فكري أباظه



النائب المحترم «ش»

الضاحك الباكي

طبعة جديدة كاملة

تتضمن

المرحلتين الأولى والثانية

الناشر
دار الهلال

الضاحك الباكي

المرحلتان الأولى والثانية

— • —

تأليف
فكري أباظة

— • —

دار الهلال

مقدمة

أضفنا الى المرحلة الأولى من قصة « الضاحك الباكى » المرحلة الثانية من حياته حتى نشبت الحرب العظمى الثانية فى سنة ١٩٣٩ ...

ونعود فنؤكد أن هذه القصة قصة واقعية حقيقية . لم يمرح فيها « الخيال » ويسرح ويسبح ! وقد تكون الوقائع والحقائق أغرب مما يخرجه خيال القصصى ... وفى قصة « الضاحك الباكى » الأولى التى أعيد طبعها « خمس مرات » . وفى قصته الثانية ــ هذه ــ التى نصدرها فى كتاب لأول مرة ... فى هذه القصة الواقعية الحقيقية غرام وهيام ، ومآسى وأوجاع ، وسياسة داخلية وخارجية ــ وبرلمانية عمرت أكثر من ربع قرن ــ وتاريخ حى للمجتمع المصرى فى جميع نواحيه ، ومختلف بيئاته وطبقاته ...

فهى قصة وليست قصة ..!

انما هى سرد غير متكلف لتاريخ حياة شاب مارس المحاماة ، والصحافة ، والسياسة ، والنيابة عن الأمة ، والرحلات والسياحات ، والحب وملحقاته من نجاح .. وفشل .. وحلو .. ومر !..

كل قارىء من أبناء الجيل الحاضر يستطيع أن يغترف من فضائل هذه الشخصية ما يغترف .. وأن يفيد منها ما شاء أن يفيد .. وأن يتعظ بما اعترضت حياته من خطأ ، وذلل ، وتقصير ، وجزاء ، وعقاب ...

ان هذه القصة عبارة عن « اعتراف » فى بعض نواحيها ، وأحداثها ، وحوادثها .. فلم يشأ صاحب القصة أن يخفى النقائص بل أبرزها درسا للناشئين ، وعبرة للمبتدئين ...

وحاول جهده أن يكون نزيها فيما أبداه من ملاحظات عامة سياسية وحزبية حتى يبرز تاريخا مصريا صادقا أمينا لتلك المرحلة من التاريخ المصرى الحديث ...

وبعد نشر هاتين المرحلتين ـ الأولى والثانية ـ يعد كاتب هذه السطور قصة « المرحلة الثالثة » ـ والأخيرة ـ الى أن يشاء الله مايشاء

المؤلف

فكرى اباظة

ثروت

الدمعة الأولى ! ...

نحن الآن فى أغسطس سنة ١٩١٧ ...

وقد تخرج الأستاذ « شكرى ... » فى مدرسة الحقوق ، حاملا شهادة « الليسانس » . ولكن فرحه بها كان دون فرحه بلقب « أستاذ » . وهو لأول مرة يعنى بلبس « النظارة » كأنها من مستلزمات الفقهاء أساطين القانون . ويحمل عصا فاخرة تزن مشيته على قاعدة موسيقية ليس فيها نشاز ، وتساعد على أن تبدو متئدة رزينة فى نظر مخلوقات الله و « زبائن المستقبل » ...

والأستاذ « شكرى ... » لم ينس بتاتا أن يلبس ياقة أمريكانية ورباط رقبة من نوع ما يلبسه الرسامون والممثلون وأرباب الخيال ...

هل أفلحت كل هذه الاستعدادات فى أن تجعل من مواد خلقته «الخام» شيئا جميلا ؟ !

يقول الآنسات والسيدات وأصدقاؤه الشبان ومعارفه الرجال : كلا !

ويصر هو على أن يكون الجواب بالايجاب ...

على أن المشكلة لم تكن وليدة هذا الخلاف . بل ان أنكى مانكب به هذا « الأستاذ » ان خصومه فى جماله كانوا يجمعون على الاعتراف بأن « تقاطيع » وجهه منفصلة مجزأة مستقلة جميلة ... أى أن كل واحدة على حدتها لاعيب فيها . ولكنهم يجمعون فى الوقت نفسه على أن مجموعها ليس بالجميل ... وكانت هذه النظرية غير مقبولة فى نظره من الوجهة الحسابية والعملية : مادام كل جزء جميلا فالكل جميل ... كانت هذه قاعدة دفاعه وخطة مرافعاته . وكانت روحه المرحة تساعد على ذيوع شناعة خلقته .. حتى تعدوا الحقيقة بمراحل فظلموه ...

خريج المدرسة لايعنى بالمستقبل أكثر مما يعنى بالعواطف . انه قد

أدى واجبه وقطع مراحل الدراسة وأصبح فى مصاف الرجال . ان أول ما يصطدم به الخريج بعد عناء الدرس هو الحب !...

خلا القلب من هم الجغرافيا والتاريخ والحساب . وخلا الذهن من هم القانون الرومانى والاقتصاد والحجز على الأسهم والسندات . اذن فى قلبه وذهنه فراغان فلتملأهما «جولييت» و«ليلى العامرية» و«كليوباترا» وغيرهن من مخلوقات الله الحسان ...

وأخذ يبحث عن الحب فدله أحد أصحابه على المنزل نمرة ١٩ فى «بنسيون» أربأ بقرائى أن أسميه ... مالكم واسم « البنسيون » وموقعه والحب لا علاقة له بالقصور ولا بالأكواخ . والحب لا صلة له بالجوامع ولا بالكنائس ولا بالمواخير . الحب أنى وجد هو الحب .. له قدسيته فى أقذر البيئات وأحط المغاور والحانات . له جلاله وعظمته فى أحقر الشخصيات وأدنأ الأرواح والنفوس . الحب هو مرض ، هو جنون ، هو حمى ، هو شيء لم يدركه الأولون ولن يدركه الآخرون ...

كانت الفتاة تسمى «ثروت» . وكان اسمها فذا عجيبا ، ولغرابة الأسماء فى بعض الأحايين جاذبية تضيف الى سائل العواطف نسبة معينة من العواطف ... ما عهدنا أن « ثروت » اسم يطلق على الفتيات . ولكن ما العمل واسمها « ثروت » ؟ !..



نظر اليها الأستاذ نظرته البسيكولوجية . وسلط عليها أشعة فراسته فلاحظ أنها تبدو طبيعية فى كل شيء . فهى لا تغرق فى المجاملة كما يغرق فيها غيرها من محترفات الحب ومرتزقة الأهواء . وهى لا تعنى بالحاضرين والذاهبين ... ثم هى بين آونة وأخرى تصدر زفرة أو حسرة أو آهة من أعماق النفس لا من الحلق ... ثم هى لا تعنى أقل عناية بتواليت الوجه ولا بأناقة الملبس . وكأنها بعد تعدد المقابلات حنت الى صداقته ووجدت فيه ما لم تجده فى غيره من الرواد

وفى ليلة من الليالى اصطحب الأستاذ معه أخاه الأصغر . ولم يكن صغيرا للحد الذى لايناسبه الاصطحاب وانما كان فى سن الشباب الناضج. فلما تم التعارف بينها وبينه قذفت الأستاذ بنظرة ازدراء رهيبة ثم همست فى أذنه قائلة : يا لها من سقطة ..!

قال الأستاذ بلهجة المحاكم : واذا جاء وحده ..؟

قالت : تكون بريئا من ذنبه ويكون بريئا من ذنبك . احترامك فرض مفروض على أخيك الأصغر وقد تطوعت للقضاء على هذا الاحساس . ثم هبه يعلم فان التجاهل يقوم مقام الجهل فهيا انصرف فى الحال وخذه معك !

***

هذا الدرس الصغير وقع وقعه المؤثر فى نفس صاحبنا فشعر بالخجل العادل المصحوب بالمنطق المعقول . وفى الزيارة التالية شكر لها نصيحتها فزادتها شرحا بأن قالت :

« هب ان أخاك هذا مال الىّ . وهبنى ملت اليه أنا الأخرى وعذرى واضح : فهو أصغر منك سنا ، وأرشق قواما ، وأجمل تنسيقا وتركيبا . هب ان الحب تمكن بيننا والحب لا يخضع لتقاليد ولا لآداب ولا لوفاء أو ولاء . هب اننا اختلسنا خباياه وخفاياه فى غفلتك وشاءت الظروف أن تكشف الخبايا والخفايا . أى عداء تولده الغيرة وأى شقاء تنكب به الأسرة ؟ !.. »

قال لها : صدقت ...

قالت : قل لأصدقائك اذن أن يحذروا ما وقعت فيه . قل لهم ان فتاة مجربة قد اصطدمت بمئات المآسى فى حياتها القصيرة من هذا النوع ومن هذا القبيل : مادخلت امرأة بين أخ وأخ ، أو بين قريب وقريب ، أو بين صديق وصديق ، الا أفسدت عدلا أو ظلما بين الأخ وأخيه ، والقريب وقريبه ، والصديق وصديقه ...

« المباذل من أصولها التستر فلا تعلنوا عنها ولا توجدوا لها شهود العيان ... »

قال لها : قبلة اعجاب !..

قالت : خذها فلعل فيها شيئا من النبل والشرف وسط هذه الأدران...

***

وفى ليلة أخرى طلبت « ثروت » الى صديقها الأستاذ أن يزورها نهارا. واختارت أن تكون المقابلة وقت القيلولة أو قبل الغروب . فلما شرع دم الغيرة فى الصعود الى شفتيه وعينيه وصدغيه لطمته على وجهه لطمة طيبة ساذجة وقالت :

« اسمع ياصبى فلسفة الليل . الليل من شأنه التهيؤ والتزين والتصنع والشراب وحب الظهور . فأنت لا تظفر بحقيقة من تحب ليلا وانما تظفر بحقيقتها نهارا ، الليل حياة مزخرفة معدة ، يودع فيه أمثالنا وأمثالكم حياة الجد والتفكير والتبصر ويهيمون فى عالم هو أقرب لعوالم المسارح منه لعوالم الحقيقة . نحن وأنتم تتنكر فى الليل ونسفر فى النهار . فان شئت أن تعرف من أنا وأن أعرف من أنت فواجهنى فى النور وحذار حذار أن تواجهنى فى الظلام !.. »

قال : لك هذا ...

قالت : اذن الى اللقاء فى حماية الشمس !..

***

خرج الأستاذ بنظارته ، وياقته الأمريكية ، وعصاه ، يهتز غرورا ويقول لنفسه : لقد أحبتنى الفتاة ...

« ومن حيث انها أحبتنى فيجب أن أفكر فى خيرها جديا ...

« ومن حيث انها فى هذا الوسط فيجب انقاذها ...

واذ وصل الى هذه النقطة خطر له فجأة خاطر اسود فتوقف عن السير وقد اهتزت أعصابه وأخذ يتمتم كالمحموم :

« لعلها ابتكرت حكاية النهار لتخلص منى فى الليل ؟

« ولعل العاشق ذا الحظوة هو بطل الظلام !.. »

وتقهقر خطوتين أو ثلاث خطوات على نيـة العودة اليهـا « لاجراء التحقيق » ولكنه عدل واستمر الى مسكنه وقد استولى عليه سوء الظن وأخذ يناجى فراسته بخليط من المتناقضات ؟ فتـارة هى سافلة منحطة ، وتارة هى تعسة كسيرة الجناح ، وحينا هى مخادعة مخاتلة ، وأحيـانا هى مجنونة طائشة ، ومرة أخرى هى « بنت الهوى » ولا أمان لبنات الهوى ، ومرة أخرى هى فريسة القضاء والقدر والحظ المنكود ...

وخلع ملابسه حيث كانت الساعة العاشرة وبدأ النوم يلاعب أجفـانه فى الساعة الثالثة صباحا ...

ولا بد أن القـارىء قد مرت عليـه تجارب كهذه ، فلا داعى لذكر سخافات هواجس الأرق وكشكول الخيال العجيب فى مثل هذه الساعات. فلندع الأسـتاذ يقضى ساعات النوم القليلة قبـل أن يحمل محفظته الى المحكمة ولنتكلم عنه فقد نسينا أن نقدمه على حقيقته للقراء ...

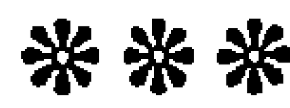


يذكرون عنه فى طفولته من عهد الولادة الىعهد الفطام أنه كان لايعرف البكاء . وكان ترتيبه الثالث عندما ولد ، فلما ترعرع قليلا كان فريسة أخويه الكبيرين . ولا تزال فى جسـمه آثار اللطم والضرب والعـاهات الصغيرة التى تخلفها عادة مشاجرات الأولاد . ولم ينعم الولد الصـغير بحنين خاص أو عطـف خاص أو حب خاص . بل كان فى منزل أبويه « شيئا » لابد من تربيته والسلام ...

والأسرة من بيت كبير وعيلة ضخمة الحسب عتيدة النسب . وكان من عادات الأسر الريفية فى ذلك الوقت المـأسوف عليه أن ترسـل أولادها لمدارس القاهرة،وهىمستقرة فىالريف مسقط الرأس ومصدر الرزقوعماد العصبية والحيثية . كانت الأسر فى ذلك الوقت المأسوف عليه لا تعرف الا الحقـل ، والجرن ، وموسم الحصـاد وجمع القطن ، ولا تعيش الا مع أتباعها من الفلاحين الزارعين

وكان الخير كثيرا لم تبدده كهرباء العواصم ولا ليـاليها الساهرة ولا سهراتها الزاهرة ولا مدنيتها الساخرة الفاجرة . كان الأولاد فى مدارس العاصمة يعيشون وحدهم عيشة استقلالية علمية لايفسدها الدلال على الأم ولا التجنى على الأب الضعيف . وكانت عيشة من طبيعتها أن تكون خشنة غير ناعمة . وأكثر ما يفسد الفتيان فى مستهل حياتهم أن تلحظهم النعومة بعناصرها المختلفة ، نعومة الأمهـات ، ونعومة الآباء ، ونعومة الملبس ، ونعومة المأكل ، ونعومة المصروف الوفير

كان الفتى بطل هذا الاستعراض يعيش مع أخويه كعيشة الجنود فى الثكنات مع الفارق . وكان والد الثلاثة شديد الرقابة يلحظ أولاده فى الشهر مرتين أو ثلاث مرات . فيقوم بواجب الحنو وواجب الاعداد . ومن حسن حظ هذه الفرقة الصغيرة من تلاميـذ المدارس أن قائدهم وهو أخوهم الأكبر كان قدوة كطالب للتعليم ، دقيقا فى مواظبته وفى مطالعته . والعجيب فى مشاهدات هذه الحياة أن الأخ الأكبر « كالأصل » تطابقه النسخ المطبوعة على غراره . فان كان فاسدا تبعه اخوته فى الفساد . وان كان صالحا تبعه اخوته فى الصلاح ...



والخلاصة ان ولدنا الصغير نشأ نشأة مدرسية « مضبوطة » من كل الوجوه . وكانت حلقات دراسته حلقات نجاح بارز أسمى بكثير من مرتبة « العادى » وأقرب بكثير الى مرتبة النبوغ ...

غير أن الأخ الأكبر رغم عبقريته كتلميذ وكطالب كان فيما بعد قدوة غير حسنة فى النسائيات . وهذا هو السر فى أن أستاذنا حين ترك المدرسة عدا عدو خيل السباق الى المنزل نمرة ١٩ فى « البنسيون » الذى لم أشأ أن أسميه ...

وما دمنا قد عدنا الى ذكر المنزل نمرة ١٩ فلنستأنف أخبـار مقابلات « النهار » فيه ...

الساعة تدق الثالثة بعد الظهر ...

والأستاذ فى محل يلدز منهمك فى شراء بعض الحلوى يحملها هـدية متواضعة لصديقة النهار ... صديقة القيلولة أو قبل الغروب !

وها هو يسرع بحمله الخفيف الى دار الحبيب . فاذا ما وصل لباب المسكن دق دقة أنيقة فانفتح الباب ...

السكون حقيقة مخيم والشمس ترسل أشعتها الى داخل الغرف . وهذه « ثروت » تستقبل صديقها باسمة وتبادر فتأخذ هـدية العاشق وتعطيه الثمن قبلة ... ثم تلتفت الى الشمس ضاحكة وهى تقول : الشمس مطهرة يا أستاذ وأشعتها تقتل الجراثيم ...

واذ تدخل غرفتها وتغلق وراءها الباب ترتمى على سريرها وتشير اليه بالجلوس على كرسى بجوار السرير ...

هل وصفت لك هذه الفتاة أيها القارىء ؟

انها سمراء اللون .. والسمرة تختلط بقليل من الاصفرار الوديع ...

شعرها الأسود الكثيف النامى الطويل تترك له حريته فيتدلى حيث يشاء بغير نظام ...

وجهها دقيق أنيق التقاطيع ترتسم عليه الطفولة والسذاجة فصيح فى تحديد السن الصغيرة بغير الرجوع الى شهادة الميلاد ...

جسمها يستطاع حمله بسهولة وبغير عناء ...

أما عيناها ففيهما كل السحر وكل الجاذبية .. لا أستطيع أن أصفهماتماما وانما أقول بايجاز انهما من النوع « الغزاز » ومن النوع الشفاف الذى يفضح ما وراءه وينم عما خلفه . من النوع الذى يكتب ويقرأ وينطق بغير مداد وبغير لسان ...

والأستاذ « شكرى ... » له فى العيون قصائد فهو خبير بالعيون ...

والفتاة على العموم صغيرة ، طفلة ، شىء يود العاشق أن يأكله ...

وبين ضفتى الشعر تبرز خصلة ثائرة عصبية لا تستقر على قرار . فهى دائبة على مداعبة الجبهة بقوامها والعينين بظرفها . ورأس الفتاة يعانى من

أحوالها الصبيانية كثيرا . فهو دائما أبدا متحرك حركة عصبية ليحول بين خصلة الشعر والجبهة والعينين ...

هذه المخلوقة الغريبة تستقبل الأستاذ الولهان وعليها قميص عادى من نوع مايرتديه الجنس اللطيف لنفسه ، وحده ، لا للمعجبين ولا للعشاق..

وقدماها هاتان عاريتان . وهذه البودرة وهذا الأحمر لم يقوما بواجب استقبال الضيف العزيز ...

يستعرض الشاب هذه المظاهر فى نفسه وقد استلقت هى على الوسادة وسبحت فى جو الأفكار ...

وطالت لحظة السكوت فحدق الأستاذ فى عينيها واذا به يظفر بدمعة !..

ـــ تبكين ؟..

ـــ ... ...

ـــ ثروت ! تبكين ؟ !

هذه دمعة أخرى . وهذه ثالثة . ثم هى تخفى وجهها بين الوسادتين فيقترب بيديه نحو وجهها فيلمس ماء الدموع !

والشاب عاطفى ، فهو يطبع على ثغرها المبلل قبلة ولا يتمالك أن يحكم قلبه الطيب فتتساقط على وجهها من عينيه قطرات الدموع ...

واذ تحس الفتاة دموع الفتى تنهض مأخوذة وتهتف بصوت خافت :

ـــ تبكى ؟ !

فيقول : نعم !

ـــ ومن أجلى ؟

فيقول : نعم !

ـــ ومن غير أن تعلم لِمَ بكائى ؟

فيقول : نعم !

فتحدق آسفة ثم تقول : يالك من تعس ! !

ثم تتناول منديلها فتمسح دموعه بعطف وأسى

ثم بغتة تستوى جالسة فى سريرها وتحدجه بنظرة ثائرة ثم تشرع فى هذه الأسئلة :

ــ ما اسمى ؟

ــ ثروت ...

ــ كذب !.. ما جنسيتى ؟

ــ مصرية ...

ــ كذب !..

وتمر فترة قصيرة من سكوت فى نظر الفتى طويل ...

***

وتقفز الفتاة من سريرها وتتجه نحو الدولاب فتخرج ملفا فيه أوراق. ثم تعود الى سريرها وتخرج صورا فوتوغرافية تحدق فيها ثم تعرضها عليه. « هذه صورة أبى .. وهذه صورة أمى .. وهذه صور اخوتى .. وهذه صورة منزلنا فى « ارمينيا »

ويصيح « شكرى » بدهشة قائلا : « ارمينيا » ؟ !

فتضحك ضحكة عنيفة وتقول : « نعم أرمينيا .. ألم تفهم للآن أننى « أرمنية » ؟..

فيتمتم هامسا : « ثروت ! .. »

فتقول : « ثروت ! .. »

ثم تجهش بالبكاء وقد قبضت على ملف الأوراق ...

وتنتابها اذ ذاك حركة تشنجية ثم يستولى عليها فجأة طارىء جنونى فتطوق بذراعيها عنق « شكرى » بشدة وقوة ثم تصيح فزعة مأخوذة وهى ترتعد ارتعادا واضحا : « انقذنى من الوحوش .. انهم ذبحوه ! .. أتوسل اليك .. انقذنى .. جاء دورى .. احمنى من السكين ! »

وتظل عالقة بعنقه والفتى قد ارتبك ارتباكا ظاهرا فان تطوراتها السريعة المتتابعة لم تترك له الوقت الضرورى لاستعادة رزانته . واذ

يشعر بالبرودة وبالدموع وبالهلع لايملك الا أن يبكى هو أيضا . ثم كأن الفتاة قد تعبت من جراء هذه الثورة العصبية والجسمية والذهنيـة .. فهى تستكين وتضعف وتلقى برأسها على صدره وتغمض عينيها ويزورها نعاس غريب عجيب ..!



فى مثل هذه المواقف الشاذة التى ليس لها مقدمات يشعر الرجل منا بشعور الأطفال . فى مثل هذه المواقف يتصل الرجل منا بالله وبالقدر فيستسلم !..

وشاب « كشكرى » حديث العهد بالدنيا العملية ، قليل الخبرة بمآسى هذا الصنف من مخلوقات الله ، لم يفعل شيئا .. يحدق ويقبل ، ويقبـل ويحدق .. وظلت هذه مهمته حتى أخذت الفتاة تستيقظ أو تفيق ، ثم « غادرت » صدره الى سريرها فأسرع الى « الكولونيا » وأخذ يدنيها من فمها ويدلك وجهها وذراعيها حتى نظرت اليه نظرة هادئة وقالت : أشكرك ...

قال لها : كيف حالك الآن ..؟

قالت : أحسن ...

قال : أتحتاجين الى طبيب ؟..

قالت : مطلقا .. كم الساعة ؟

قال : السادسة ...

قالت : اذن هيـا .. أسرع الى المكتب وأد واجبـك وعد الىّ فى القيلولة أو قبيل الغروب ...

قال : يستحيل على أن أتركك على هذا الحال ...

قالت : افعـل ما أقوله ولا تناقش . ان حملى ثقيـل . والمرأة التى يضحى لها الرجل من عمله وواجبه امرأة ان أحبت منه هذا العمل فى البداية احتقرته فى النهاية ... دعنى حالا ... اننى أريد أن أعد عدتى لليل فاذهب ...

قال : أهذه حقا ارادتك ؟

قالت : نعم وبلا تردد .. انما لاتنس الغد وأعدك بأن أكون صافية المزاج ...

والشاب لم يفق بعد من الدهشة فلا يسعه الا الانصراف ، ولكنها تستوقفه باسمة وتقول :

ــ ان العشاق يقبلون عند الانصراف فأين قبلتك ؟

فيعود اليها « منفذا الأوامر » ثم ينسحب بسكون فتغلق الباب وراءه وهى تقول :

« مسكين ... »

تخيلات الطريق

هذا هو البحر الخضم الذى يرتطم بأمواجه وتياراته العشاق . والبحر فيه الصخر واللؤلؤ وفيه اللذة والخطر ...

يقول الأستاذ لنفسه :

« أولا : البنت متعلمة ناضجة الحسن تفهم الحياة أكثر منى ... »

« ثانيا : انها من بيت طيب بدليل الصور الفوتوغرافية لأبيها ولأمها ولأخوتها ولمنزلها ... »

« ثالثا : انها لا تزال زهرة يانعة فلم تمكث طويلا فى أيدى قاطفى الزهور ... »

« رابعا : انها ذات آلام ودموع فلها سر أليم رهيب ... »

« بناء عليه : هى جديرة بالحب رغم « موقعها الجغرافى » ورغم ظاهرها التعس ... »

وبعد أن يصل الأستاذ الى هذه النتيجة بعد ذلك التسلسل المنطقى البديع يعود فيقول لنفسه :

« أولا : انها « أرمنية » ... »

« ثانيا : انها سقطت والسلام . وكم سقطت أخت لها من قبل ، لها

أب أرقى من أبيها وأم أفضل من أمها ، واخوة أنبل من اخوتها ، ومنزل أكرم من منزلها ... »

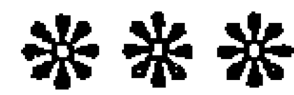
« ثالثا : ان الدموع ثروة النساء ... »

« رابعا : مالى أنا وللأدوار العصبية ، والنوبات التشنجية ، وهذه الحالات الجنونية ... »

« بناء عليه : هى غير جديرة بالحب . وأنا جدير بأن أتفرغ لعملى وواجبى ومستقبلى ... »

واذ يصل الى هذه النتيجة بعد ذلك التسلسل المنطقى البديع تدركه سيارة من سيارات الأجرة وتقف فجأة وتطل منها «ثروت» فيرفع نظره اليها ببشاشة كبشاشة الأطفال فتقول له : كنت ذاهبة اليك فى المكتب لأعتذر اليك ولأكرر شكرى ولأذكرك بباكر فى القيلولة أو قبيل الغروب فلا تنس ...

واذ يحاول الرد عليها يجدها قد غابت بسرعة عن ناظريه ... وتزول من خاطره النتيجة الثانية بأسبابها وحيثياتها وتستقر الأولى فى الذهن ، وفى القلب ...



فى مكتب أحد كبار المحامين يشتغل « المتر شكرى » كمحام تحت التمرين . وصاحب المكتب محام بارع ليس فيه الا عيب واحد . انه رجل كما يقول العـامة « دغرى » ... ولهذا كان صنف النسـاء من الزبائن لايتمتع بالدلال اللازم فى المكتب . ولكن من عهد أن اشتغل به الأستاذ شكرى المحامى الناشىء « المدردح » اختص بقضايا النساء وبمقابلة النساء ...

والمكتب له زبائن من كل الطبقات . وبالأخص الطبقات الراقيـة .. وعلى هذا كان المحصول النسائى الراقى وفيرا . من كل سن ومن كل فن .. والأستاذ شكرى يتأثر بالقدوة الا عندما تخالف سليقته وطبيعته.

فهو أيضا « دغرى » فى عمله كأستاذه الكبير . يؤديه أكمل الأداء . ولكنه كان ظريفا خلابا مع السيدات فى المكتب بحكم سليقته وطبيعته. وكان سعره فى هذه السوق رائجا ...

وكان من الممكن أن تنشأ عواطف وأن تتمكن عواطف . وكان من الممكن أن يتخير المحامى الناشىء حبا راقيا . أو زواجا راقيا . ولكنه كان أسير الفتاة القاطنة فى المنزل نمرة ١٩ ... ومن هذا تعرف شيئا من خلال وغريزة هذا المخلوق الغريب . وأزيدك بيانا فأقول ان الشاب دمقراطى متطرف . وسترى فى الحلقات التالية كيف تكونت عقيدته السياسية ضد الحكم وضد الحكومة وضد الاعتدال وكيف لعب دورا له قيمته فى فترة وجيزة فى خضم الحياة العامة

***

اذن كانت « ثروت » الساقطة فوق الجميع . فوق الجمال الفاتن ، فوق الطهر المفروض ، فوق الحسب والنسب ، فوق الثروة والجاه ، فوق حاضر الشاب ومستقبله ...

وأنت اذا استطعت أن تناجى دخيلته عن السر فى هذا الشذوذ وفى هذا التعصب لأجابتك دخيلته اجابة حازمة جازمة : انه من أجل الدموع ومن أجل الآلام ...

والشاب رغم مزاياه النفسية الروحية من أسرة كبيرة اسمها وحده رأس مال كبير . ولكنه رغم ذلك كان بطبعه عدوا للأرستقراطية ، وعدوا للنعيم ، وصديقا وفيا للبؤس وللشقاء ..

شئت أن تقبل هذا أم لم تقبله فنحن لاندافع عن الفتى ولا نرسم لك المثل الأعلى مستمدا من شخصيته . وانما نرصد الواقع ونحلل ناحية من نواحى مخلوق من مخلوقات الله ...

وها هو يستقبل فى غرفة عمله بالمكتب نماذج الجمال ، ونماذج الحرير الناعم ، ونماذج الماس الخاطف للأبصار ، ونماذج التهذيب والثقافة النسائية ، ولكنه رغم كل هذه المغريات والمحرضات لاينسى أنموذجه الوحيد : قاطنة المنزل نمرة ١٩ ...

مثل هـذه الحالة العقلية الشاذة يزيدها شـذوذ الاعتداد بالنفس . ومحامينا الناشيء كان معتدا بنفسه .. لدرجة تقرب من درجة الغرور . فكان من المستحيل أن تضمن له الشـفاء . وكان من المحتم أن تتركه لمشيئة الأقدار

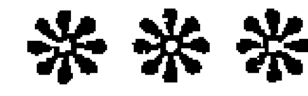
***

لاتتعجل تفاصيل المقابلات النهارية. فقد وعدت الفتاة الغامضة صديقها فى اليوم التالى أن تكون صافية المزاج . وقد برت بوعدها فكانت مقابلة ثم كانت مقابلات . ولا يعنينا أن ندون هنا التافه من أمرها وأمره . وانما يعنينا أن نذكرك بتلك المفاجأة الحادة التى بدأت بدور عصبى عنيف ثم انتهت بغفوة أو اغماءة على الصدر . ولعلك تذكر أيها القارىء ان السبب الظاهر كان عرضها الصور الفوتوغرافية على صديقها وبالأخص عندما كشفت له الغطاء عن جنسيتها فعرف أنها « أرمنيـة » ، وعن اسمها فعرف أنه ليس « ثروت » . وقد فاتنا أن نذكر لك أنها لفظت اسم « ثروت » فى الوقت الذى كانت تخرج فيـه من ملف أوراقهـا وتذكاراتها صـورة فوتوغرافية لضابط وسيم جميـل ، وشلت النـوبة العصبية يدها عن هذه الصورة الفوتوغرافية فبقيت فى مكانها ثم كان ما كان ...

تاريخ . . .

« ج . ابيكيان » غنى من أغنياء الأرمن فى القسطنطينية . والأرمن فى استامبول لهم مكانة أظن دعامتها الأولى هى المال ثم الثقافة . وللرجل بنت وحيدة واخوة أشداء أقوياء بحسب والدهم وبحيثياتهم فى المجتمع. والفتاة الوحيدة كانت مدللة ، عنى والدها بتعليمها وبالطواف بها فى عواصم أوربا . وكان الرجـل كثير الحب لها يصـطحبها فى غدواته وروحاته وزياراته . وكان لايغفل عن زيارة السفارات والقنصليـات التركية فى البلاد التى يحل بها حسب العادة المتبعة والواجب المتبع. وفى «باريس» تعرفت الأسرة بضابط تركى يغلب على الظن أن له اتصالا بدم مصرى:

والسن تجذب اليها السن وخصوصا فى بلاد الغربة بين المواطنين. ونقول لك باختصار أن نوعا من العاطفة « الطفلية » الأبجدية نشأ بين الفتى التركى والفتاة الأرمنية . والفتاة الصغيرة من كل جنس ومن كل لون ومن كل بيئة حين تطالع فى كتيب الحب لأولمرة ألفه ، وباءه ، وتاءه ، تحتفر هذه الأحرف فى قلبها مخبأها ، فيختلط بها لحم القلب ودمه حتى تصبح جزءا طبيعيا من أجزائه . ألم تلعب فى نشأتك مع صبيــة صغيرة لعبة من ألعاب الأطفال فى شوارع الحى وحاراته ثم نبت بينك وبين الصبية نبات صغير؟ سمه ماشئت أن تسميه : صداقة ، ميلا ، استلطافا ، عشرة ، ثم تركت الحى صبيــا وافترقتمــا ثم مرت الأيام والشــهور والسنون ثم مر جيل ثم جيل ثم شاءت صدف الأقدار أنتجمع بينكما فى تليفون ، أو فى طريق ، أو فى مكان وقد كبرتما وخبرتما الدنيا ولكل منكما تاريخ ؟



ألم يحصل لك هذا ؟ ثم ألم تشعر عند المقابلة أن الذكريات تدفع بالذكريات . وأن ذكرى الصبى تكشف رويدا رويدا عن النبات الصغير فاذا به ينمو ويترعرع ويشتد فى لحظة . ثم اذا بثمرته تصعد من القلب الى الشفتين فترتسم قبلة ! ؟..

ثم اذا بالقبلة تلد عاطفة .. ثم اذا بالعاطفة تلد حبا ؟ !

هذا ما أسميه الحب المبعوث ...

ثم من العــدل أن نعترف بأن حب الصــغار هو أوفى أنواع الحب وأصدق أنواع الحب وأنبل أنواع الحب !..

ولم تكن فتاتنا الأرمنية ولا صديقها التركى صغيرين لحد التصوير الذى صورته لك فى استشهادى . وانما أود أن أقول أن الحب بينهما طرق الباب فى « باريس » ثم مرت الأيام والشــهور فلما تلاقيــا فى « الآستانة » انفتح الباب واستقبل الضيف العزيز بكل ترحاب وبكل سرور ...

وشهدت متنزهات « استامبول » وفردوس استامبول وجنان استامبول مشاهد هيام تستحق التحليل والتسجيل . ولكنى أخشى أن ينسى القراء بطلهم المصرى فى هذه القصة فأنا أستميحهم عذرا وأمر على الحوادث مرا سريعا ...

دق ناقوس الدمار والخراب فى « تركيا » وانفجرت قنبلة الرعب والذعر فاذا بها تعلن اشتراكها فى الجريمة الانسانية الكبرى : الحرب العظمى !..

لم تكن علاقة الفتاة بالفتى مهددة فقط بتنافر الدم ، وتناقض الدين، ولم تكن مشكلة الارتباط الشرعى الطاهر بينهما هى مشكلة هذين العنصرين ، فهما من الذين يرون أن الحب هو الدم وهو الجنسية وهو الدين . وانما كانت النكبة النكباء أنها أرمنية وهو تركى !..

والعداوة بين العنصرين قديمة التاريخ ...

وزادتها الحرب تمكنا وتأصلا فأخذت بالفعل مظهرا من مظاهر سفك الدماء ...

***

وحين أنذر الفتى الضابط بالاستعداد لتلبية نداء الوطن فى مختلف الميادين . وحين تحقق لديه أن ساعة الفراق أوشكت أن تدق دقاتها الأليمة . ارتفع فى مجرى قلبه وقلب صديقته منسوب الحب وفاض . والحب من شأنه الشجاعة والاستهتار ومن شأنه رغم كل احتياط أن يسفر وأن يتجلى ...

وكشفت العين الأرمنية الغدارة الجبارة المتطايرة الشرر الحاقدة ملتقى العاشقين فلم تغمض الجفن بل اندلع منها لهيب النار ...

وفى عصر من « عصارى » اللقاء وقد أخذ قرص الشمس يودع النهار هرولت الفتاة الى مكان اللقاء فى الضواحى الحنونة الحساسة التى تشمل العشاق بحمايتها ، وتحول بينهم وبين الأنظار ... هرولت وكانت قد اعتادت أن تظفر بصديقها فى الانتظار . فراعها أول ما راعها أنه ليس

هناك ... هتفت فلم يهتف أحد ... وتوارى قرص الشمس فقصدت الى شجرة اعتــادت أن تركن الى جذعها هى والصــديق المتخلف . فاذا بها تصطدم بشيء فتسقط على وجهها . ولكن لم تلمس شفتاها الأرض وانما لمستا ...

... لمستا شفتى الضابط المذبوح ! ! !

وكانت قبلة الوداع ممزوجة بالدم الأحمر القانى ومصحوبة بصرخة هى أشقى ما عرف التاريخ ...

***

فى الغرفة عينها ...

وفى القيلولة وقبل الغروب ...

وقد جلست الفتاة على ركبتى الأستاذ وطوقت عنقه بذراعيها تبكى بكاء مرا هادئا ذليلا وقد حرقت أنفاسها وجهه بنارها وسعيرها ...

كانت تروى له الواقعة التى رويناها لك من أول « ج . ابيكيان » حتى قبلة الوداع

وكانت دموعه هو تجارى دموعها هى ...

وخيم سكون عميق ...

وقطع الأستاذ السكون بقوله : كفى وحسبك !

قالت : وماذا بقى ؟

قال : لاشيء

قالت : أعرفت من كانت الفتاة الأرمنية ؟

قال : لعلها أنت !

قالت : نعم !

قال : ومن كان الضابط المسكين ؟

قالت : كان « ثروت »

هنا فهم الأستاذ أنها لم تحمل من ذكريات الذبيح الا رسمه واسمه !
وهنا أدرك لم انتهت مأساة التشنج الأولى فى أول مقابلة بقولها : « انهم ذبحوه . جاء دورى . احمنى من السكين !.. »
قال وقد لمعت عيناه لمعة البطولة والمروءة : هل لا تزال تطاردك السكين ؟ !
قالت : بالله لاتذكرنى بتاريخ المطاردة وأهوالها وشقائها . كانت نهايتها هذه البؤرة وهذه المقبرة !..
قال : ان فى مجال الاصلاح لمتسعا للجميع ؟..
قالت : هيهات !..
قال : عدينى ...
قالت : انى لا أعد .. انى نذرت نفسى للشقاء وللدموع !..
قال : انى أعشق دموعك . فهيا هيا نستروح فى الهواء الطلق ونحاول النسيان ...



وكانت نزهة مسائية لعب أكثر أدوارها الصمت الطويل والتفكير الطويل ...
وامتازت بظاهرة أدنى وصف لها أنها عفيفة ...
ولعل الذكريات الأليمة ، والحوادث العنيفة ، والموقف الجدى الذى تمخضت عنه هذه الذكريات والحوادث ــ ولعل هذه العناصر الثلاثة قد رجعت بالفتى والفتاة الى العهد العذرى الخيالى البرىء
ونحن الآن فى أواخر سنة ١٩١٨ ...
والقاهرة وضواحيها مزدحمة بالعساكر الانجليز والأستراليين . وغريب أن يرد ذكرهم فى هذه اللحظة ...
سلوا « ثروت » المسكينة فهى سبب هذه المفارقات ...
سلوها : لماذا تضطرب حين تلمح وجها « أستراليا » ؟

فهى تجفل فجأة وتلتصق بصديقها التصاقا وعيناها زائغتان فزعتان ...

سلوها : لماذا تقترح على صديقها بالحاح أن يبعد بها عن وجوه وسحن « الأوستراليين » ؟

لم يجد الأستاذ فى أول الأمر ما يلفت النظر من هذه الناحية ...

فهو نفسه عانى كثيرا من رذالة «الأوستراليين» وتحكك «الأوستراليين» وتعدى « الأوستراليين » ولئن أحس « الرجل » بالاشمئزاز منهم « فالمرأة » أولى بهذا الاحساس ولكنها بالغت فى الجزع . فقال لها :

ـ أتكرهين الأوستراليين ؟

قالت : أخشاهم ...

قال : ولهذا الحد ؟

قالت : نعم ...

قال : ولم ؟ خبرينى !

قالت : لم يأت الأوان ...



عندما يكشف الرجل العاشق فى المرأة المعشوقة ـ وخصوصا من هذا الصنف ـ بطريق الصدفة أو بحكم المعاشرة الطويلة ، خلة نبيلة ، أو تاريخا حزينا ، أو ناحية مظلمة ، تنبعث من أقصى نفسه عواطف طيبة فياضة ...

« شكرى » محا من ذهنه نهائيا صورة المرأة قاطنة « البنسيون » بالمنزل رقم ١٩ ...

محا من ذهنه نهائيا صورة « الليل » وانطبعت فيه صورة النهار : « فى القيلولة أو قبل الغروب » ...

أو قل باختصار محا من ذهنه صورة « ثروت » وأحل محلها صورة الفتاة الأرمنية كريمة « ج . ابيكيان » ...

وخريج المدرسة فى مستهل حياته «التجريبية» فى هذه الدنيا المتلاطمة

الأمواج يعتريه ويعترى زملاءه وأقرانه فى السن وفى التجربة نوع من حمى الخيال والفلسفة الساذجة والمشاعر الانسانية ...

هذا « المصلح الاجتماعى » الصغير توكل على الله وصمم أن ينشل الفتاة الضائعة ...

ها هو يقرأ معها الجرائد والمجلات والكتب ويناقشها فى علم النفس وفى السياسة وينتقل بها من بحث فنى ، الى بحث صناعى ، الى بحث أدبى . فاذا سألته : لم هذا العناء ؟ أجابك : أريد أن أبعث استعدادها من القبر الذى دفن فيه ...

وها هو يزج بها فى أوساط راقية فيطوف معها الحفلات الخيرية والاجتماعية الأدبية العلمية . فاذا سألته : ماذا ترمى بهذا ؟ أجابك :

ـ أريد أن أذكرها بوسطها الماضى وأبعدها عن وسطها الحاضر ...

ثم ها هو فى ذات يوم من الأيام يفاجئها بهذا الاقتراح الطريف : أن تمضى معه أسبوعا فى الريف ؟

فى الريف ...

من العدل أن نقرر أن الفتى نجح نجاحا ما فى أساليبه الاصلاحية هذه .. لقد أخذ رونق الفتاة « النظيفة » يسطع على وجهها وأساريرها وأخذ يسود حركاتها وأحوالها ، وأخذ يطارد ظلام « البنسيون » الذى لم أشأ أن أسميه ...

وفى عزبة من عزب الريف نزل الصديقان فى ضيافة أحد أقارب الأستاذ الأعزب . فترك لهما العزبة لينعما منفردين لايعكر صفو وحدتهما مخلوق ويا للدهشة ؟ !

ان « ثروت » الماجنة طريدة العيلة ربة منزل لا تجارى : تجيد الطهى والكى وقد حملت أدواتها الصغيرة ونسيجها تصنع « جرسى » لصديقها العزيز ...

وها هى تجمع نساء القرية فتجرى عليهن الاحسان . وقد سحرتهن سحرا أخاذا بظرفها ودعتها . فهن عند اللجاج لايقسمن الا باسمها ولا يحتكمن الا لحكمها وأمرها ...

وها قد تطورت « ثروت » الماجنة فهى فى الصباح الندى . وهى فى الليل البلبل الغرد . وهى النشطة المنتعشة الصحيحة . وهى فى أسبوع الريف رمز السعادة فى كل حال !

ولما دنا موعد الرحيل بكت البكاء الأمر وكانت ساعة السفر ساعة النواح .. وقد تظاهر نساء القرية يودعنها بالدموع وبالدعوات الطيبات؟

وفى القطار همس « شكرى » فى أذنها :

ــ أسعيدة أنت ؟

ــ ... لدرجة الخوف ، دعنى أشكرك ؟

ثم أخذت تقبل يديه من شدة السرور وتقاطرت من عينيها بعض الدموع!

ربما . .

ان ذكرى الرحلة الريفيـة كانت أبدا منطبعـة فى ذهن هـذه المرأة الصغيرة ، وكان يلذ لصديقنا « شكرى » أن يسمع عبارات الاعجاب برحلة الريف من فمها الأنيق . ولكن المسألة لم تكن فى نظر « ثروت » مسألة ذكرى واعجاب فقط ، بل كانت أبعد مرمى ، وأدق مغزى ...

كانت تتكلم عن الريف بحماسة غامضـة . وكانت تسائله عن عزبة والده فى الريف بنزق وفرح ثم تعود وتغمض عين الأسى بذل ومسكنة وحسرة ؟

من العسير على الكاتب القدير أن يحلل هذا الطائف الطارىء على خاطر الفتاة . وبقدر ما تملك كفاءتنا الكتابية فى التحليل نحاول هنا أن نفرض عدة فروض : هل كانت الفتاة ترهب شيئا رهيبا فى القاهرة فهى تذكر الريف وتحن الى الريف ؟ ربما ...

هل بعث الريف من ماضيها شخصية الفتاة الصـغيرة الكريمة النقيـة العاشـقة فودت أن تعود سـيرتها الأولى ووجـدت من نفسـها كريمة « ج . ابيكيان » وخطيبة الأستاذ الضابط ثروت ؟ ! ربما ...

هل خطر لها خاطر الزواج من « شـكرى » ولكنها اسـتدركت فقاست البعد بين مستواه الحاضر ومستواها الحاضر ؟ ولمست بيدها الباب الفولاذى الضخم الذى يحجب بين دنياها المفتوحة وبيته المصون المحروس؟ ربما ...

من أتعس الخواطر التى تمر على أذهان هذا الصنف من فرائس الحياة أن يفكرن فى الزواج من عاشق أو من محب ولهان . ولذلك يمر الخاطر بسرعة البرق وتمحوه آية الليل ؟..

آية الليل !؟

آية الليل عند صاحبتنا «ثروت» وقد آن أوان الافصاح والايضاح. كان ضابطا اوستراليا خشنا يقتحم بابها لا فى « القيلولة أو قبل الغروب» كما كان يفعل « المتر شكرى » وانما فى الليل ...

و « شكرى » المحب الفيلسوف المصلح عاشق الدموع كان من صنف العشاق الذين يحترمون الخصوصيات ويقدسون الخصوصيات والذين يأنفون أن يتجسسوا أو يتحروا أو يفاجئوا . وهذه ناحية من نواحى الحب تستحق هى الأخرى التحليل : ان العاشق الذى لايتجسس ولا يفاجىء ولا يبحث لا يفعل ذلك عن غفلة أو نبل أو كرم أخلاق ، وانما هو يشفق أن يبحث ... فيكتشف ... فيتألم فيثور ... فتنقطع علاقة الحب ؟

لذلك هو يغمض العين متعمدا ، ويسد الأذن متعمدا . وان كان احساسه الحساس يقوم مقام العين والأذن سواء بسواء

حدس العاشق لايخطىء . وانما قلبه الطيب الفياض بالحب يطغى على عقله وعلى بصره فهو يغفل أو يتغافل . ويعمى أو يتعامى . ويتعقد موقفه ويصعب ان كان عشقه من نوع هذا العشق . ولم يكن يملك بوسائله حقوق العشاق المستأثرين ...

أو بعبارة أصرح : هل يتولى « شكرى » الضعيف الموارد الانفاق! ؟ لئن كان يفعل كان صاحب السلطان على كل النواحى . وان كان لايفعل فبأى حق يتلصص ؟

هذا هو العذاب بعينه : محب محبوب ولكن غير قادر !

اذن عليه أن يحسن الظن وأن يقبل المبررات وهو صاغر . فان ثارت كرامته ونخوته وجب عليه أن يكتم حبه ، وأن يسحق قلبه ، وأن ينسحب من الميدان

بطل الظلام !...

و « ثروت » هذه ماذا كانت مع بطل الظلام ؟

ظفر بها فى غير مصر فأحبها ومن حق كل مخلوق أن يحب . التقطها من الدنيا شريدة ، طريدة ، منكوبة ، فظللها بحمايته ورعايته ، وطاف بها فى كل مكان طاف به ، ووقعت فى مخالب المرض مرات فكافح بمروءته ونخوته مخالب المرض وأنقذها مرات ، وبكى لها وبكت له فأحبها عشقا ، وأحبته وفاء . والبنت من أصل طيب فهى لا تغدر وهى لاتتنكر للأوفياء ...

حتى اذا هبطا مصر عاشرته وساكنته ، ولكنه انتدب لمهمة عسكرية فى غير مصر فودعها على أن يعود ، انتهت الحرب أو لم تنته . فاستقرت بالمنزل رقم ١٩ فى مسكن أنيق ...

وبرز « شكرى » فى نهاية فترة الغياب فأحبته الفتاة . ثم عاد الضابط الأسترالى فوجدت نفسها بين نارين : نار الحب ، ونار الوفاء !..

أفهمت كيف قسمت بينهما قسمة عادلة فحفظت لصاحبنا وقت القيلولة أو قبل الغروب . وحفظت لصاحبنا الآخر وقت الظلام ؟..

أفهمت كيف كانت تفزع لرؤية الأستراليين وذكرى الأستراليين وكيف كانت تسأل : أتكرهينهم ؟ فتجيب : أخشاهم ؟

أفهمت كيف نعمت برحلة الريف وسعدت برحلة الريف وكيف لمحت بذل وانكسار الى أمنية الاستقرار بالريف ؟

ويل المرأة الطيبة ان أحبت غراما .. وأحبت اكراما ...

ويلها ويلها ان أعطت لهذا قلبها .. ولذاك ضميرها ووجدانها ...

ويلها ويلها من معركة القلب الحساس .. مع النفس الحساسة ...

أيهما تقتل : أهى العاطفة .. أم الواجب ؟

أيهما تقصى : أهو المحبوب .. أم المنقذ ؟

يقول بعض المتطرفين فى أصـــول الهوى ان الموقف لا يحتمل التردد فالحب أقوى المشاعر ، وهو يكتسح ما عداه ويتغلب على سواه !..

وعندى أن البت برأى غير معصوم من الخطأ . عندى أن المسألة نسبية يرجع الحكم فيها الى استعداد المرأة وكمالها أو نقصها ، وعندما أقول الكمال أو النقص انما أحصره فى دائرة ضيقة . وفى المرأة الساقطة كمال وفيها نقص . فيها ناحية مرذولة ، حكمها حكم سواها . وفيها ناحيـــة طيبة ، جديرة بالاجلال على كل حال ...

المرأة فى هـــذا الموقف جد تواقة الى الابقاء على الخصمين المتنازعين والمغرمين المتنافسين . وهى وشأنها وسرها فى توزيع الحب على هـــذا والوفاء على ذاك ...

دعنى من الحكم العام الذى قد تراه والذى قد لا أراه . انى أنقذك وأنقذ نفسى من هذا الحكم النفسانى فأقول ان « ثروت » كانت عادلة . فهى لا تود أن تضحى بهذا ولا تود أن تضحى بذاك ؟ !

ولكن ما العمل اذا كشف أحد المتبارزين موقع خصمه ومزاحمه ؟

ما العمل اذا تصادما وارتفع الستار ؟ !..

ما العمل اذا طلب اليها بلهجة الحزم والجزم أن تختار ؟

***

وقد تصادم العاشقان فوقعت الفتاة فى الفخ ...

وتخلى كل منهما عنها ...

وفترة تخلى العشاق فترة أليمة على العشاق وعلى المعشوقين ...

والفتاة فيها شىء من الكبرياء فصمدت للصدمة حتى تفكر وحتى تبت؟

ومن حق هذا الضابط أن يثور . فهو رجل بمعنى الـــكلمة . ضحى لها وأنفق عليها وحماها ورعاها . ففى الموقف عنصر عنيف من عنـــاصر الجحود ...

وقلنا فيما مضى ان الحب هو حمى ، وان الحب هو جنون . وهل يرضيه أن يعلم بأن الفتاة لا تجحده ولا تتنكر اليه . مادامت لا تحبه ؟

والمحب أنانى : يريد أن يستولى على القلب والجسم والعقل والذهن والنفس والحواس جميعا . ويأنف أن يظفر بنصيب وان يظفر غيره بنصيب

المحب يمقت الشركة ويأباها ...

ولئن قبل الشركة فأين تكون رجولته ؟

أضف الى عناصر هذه النار المشتعلة فى صدره أنه ضابط . أنه جندى وعسكرى . ولرجال الجندية والعسكرية اعتزاز بالكرامة لايدانيه اعتزاز. الشرف العسكرى عنصر يمتزج بكل دور من أدوار حياتهم .. فى ميادين الحرب كما فى ميادين الحب . اذن لابد من موقعة فاصلة . فلننتظر كيف تكون ...

خذلان ...

أما فتاتنا « شكرى » فكانت صدمته لا تقل عن صدمة الضابط عنفا وقسوة . هو يجهل التفاصيل ويعلم فقط أنه كان مخدوعا وأنها كانت ولا تزال تحب سواه

اذن واخجلتاه من زيارة القيلولة أو قبل الغروب !

واخجلتاه من الدموع الجارية على وجهه وعلى صدره !

واخجلتاه من رحلة الريف وهناء رحلة الريف !

واخجلتاه من ذلك الخيال الراقى الذى رسمه فى ذهنه للفتاة التعسة !

ثم واحسرتاه على تفويته للفرص التى ولت وأدبرت ...

واحسرتاه على أنه زل وسقط فى أحضان فتاة ساقطة ...

اذن سحقا للحب الراقى وللحب الوضيع ...

ولكنه يحب !..

اذن فليفكر طويلا .. وليبك بكاء ممزوجا بالخجل من البكاء !..

على أنه وسط هذه اللعنات يراجع ضميره فيقول : لاشك أنها تعسة منكوبة . ولئن كانت تحب سواه فهل يمكن أن يكون الحب محل مؤاخذة أو يمكن أن يكون جرما وجريرة ? !

وبأى حق يطالبها بقلبها .. وما هو الثمن الذى أداه ? !

أما يرضيه أنها ترتضيه ?..

انها ظريفة لطيفة لاتكرهه . وانها تسمح له بأن يتلقى الدموع وأن يتلقى الأسرار ? !

ولـكنه يحب !

والمحب أنانى ...

فلم تخدعه ، ولم تغرر به ، ولم تستهويه ? !

الانسحاب هو نعم الجواب ...

وليقتنع بالتجربة الأولى فى عالم الغرام ...

ليأخذ منها عظة ودرسا ...

ولـكن نقطة واحدة تمس رجولته ، منافسه من جيش الاحتلال أو من جنس جيش الاحتلال . فى الموقف عنصر من عناصر الجبن والتقهقر. فتظن الفتاة أن الانسحاب هو بمثابة فرار ! ?

لا !..

اذن فليتطور هذا الخذلان العاطفى بالنعرة الوطنية السياسية ، وليبلع الفتى بشره بذرة الثورة ضد غاصبى وطنه ، وغاصبى محبوبته ، ولتنبت هذه البذرة نباتها ،ولترسل شجرها بأغصان وفروع تصلح فيما بعد وقودا ونارا ! ! !

***

ومرت أيام وليال والفتى يقتحم الأوساط السياسية فى بلده ، وكانت ثائرة لقضية الوطن . وكان من فرط ثورته لايروقه الاعتدال ولا اللين

ولا المرونة . بل كان داعيــة من دعاة التطرف الذين لقبهم مواطنــوهم بالخياليين المجانين ! ! !

وكان استعداده الذى مهدنا له فى الفصول الأولى يناسبه هذا التطرف بعد هذه اللطمة ، بحيث كانت فتيلا أشعل القنبلة الدفينة فى أحشــائه فانفجرت ودوت دويا ...

وأطلت ســنة ١٩١٩ بوجهها اللعين على مصر البائســة ، وكانت قد اكتوت بنار السلطة العسكرية من مصادرة مواطنيه الآدميين وسوقهم قبل ذلك الى ميادين الردى ، ومن مصادرة أرزاقهم بأبخس الأثمان ...

ووجد الفتى من هــذا الخضم السياسى الذى غمره ما رفه من آلامه نوعا ما ، وان كانت فترات القيلولة أو قبــل الغروب تفترس قلبه كلما مرت الذكرى وتجلت الخواطر

هذه مواقف الثلاثة شرحناها وحللناها بايجاز وغموض

ترجيح !...

فى الساعة السابعة من مساء يوم من أيام فبراير ســنة ١٩١٩ دخل « عم عبد الله » فراش المكتب على الأستاذ « شكرى » فقال له : ان سيدة بالباب !

ورفع « شكرى » رأسه من الدوسيه الذى يحدق فيه وأذن بالدخول بغير اكتراث

الزائرة فتاة شاحبة يلوح على وجهها شيء من الاصــفرار . واصفرار الآلام أو المرض نوع بديع من أنواع الجاذبية والجمال

تقدمت الزائرة بخطوات مضطربة مرتبكة . فنهض الفتى مهتزا يستقبلها بأدب وشجن ثم همس قائلا :

ــ ثروت ؟

أجابت ببرود : هى أنا ...

قال : تفضلى ...

قالت : عندى حديث طويل أو قصير . والمكتب لايناسبه

قال بدهشة : أنخرج سويا ؟ !

قالت : ممكن

قال : اذن اجلسى وانتظرى قليلا

وأتم « شكرى » عمله ثم استأذن أستاذه وأشار اليها بأن تسبقه على الباب ثم لحق بها وركبا مركبة صامتين والسائق يسوق الى الأمام وهو لايسأل وهما لايرشدان

وتنبهت الفتاة قبل أن يتنبه الفتى فقالت : الى أين ؟

قال بضعف : الى حيث تشائين

قالت : أقترح أن نذهب الى حلوان

قال : أمرك ...

وأمر السائق بأن يتجه الى باب اللوق

وركبا القطار ووصلا الى حلوان وسارا على القدمين حتى ظفرا بمكان خال فى قهوة خالية من الناس فجلسا

قالت بلهجة الجد : انى جئت أنذرك !

فقال بلهجة التهكم : مشفقة أم كارهة ؟

قالت : بل مشفقة ...

قال : علىّ أم عليه ؟

قالت بلهجة صادقة صريحة : عليكما معا !

قال : اذن نحن شريكان ؟

قالت باللهجة عينها : نعم !

قال : امقت الشركة ، وأرفض الانذار ! ! !

***

سكتت الفتاة هنيهة ثم قالت : أريد أن أشرب خمرا

قال : ان الخمر مفسدة

قالت : ولكنها عندى تبعث أصدق الاحساسات وأصدق الأقوال ، وأريد أن أفضى اليك بأشياء صادقة ورهيبة !

قال : ليكن

وأمر لها بالشراب فشربت مثنى وثلاث ورباع ...

قالت : أسقطت فى نظرك نهائيا ؟ !

قال : لا ألومك . وانما سقطت أنا فى نظر نفسى

قالت : اذن انمحى كل تاريخى معك من ذهنك ؟

قال : ليست لى عليك حقوق ...

هنا اعتدلت فى جلستها وألقت بالكوب الفارغ وقالت : اسمع يا « شكرى » أتذكر جزعى من رؤية الأستراليين ؟ ألم أكرر قولى اننى لا أكرههم بل أخشاهم ؟ !

قال : أذكر

قالت : اذن فاعلم اننى جئت أنذرك . اننى أخشى عليك !

قال : اطمئنى . لقد انسحبت فتمتعى

وكأنها اعتبرت هذه العبارة اهانة فانتصبت كاللبؤة وزأرت : دنىء ! أظننت اننى جئت أستميحك عذرا لأننى أحب وأرجو منك أن تخلى الطريق . دنىء ! !

قال مستخفا : أشكرك على هذه التحية

قالت : اذن لن يكون الحديث بيننا طويلا . كلمة واحدة أو كلمتين : احذر الضابط !

قال : كم أود أن أكون أول ضحية ...

قالت : وعلى مذبحى ؟

قال : كلا ! بل على مذبح بلادى !

قالت وقد أطلت من عينيها الذابلتين الدموع :

ــ أنا الساقطة فى نظرك ونظره ونظر النــاس ونظر أبوى واخوتى وأسرتى وعشيرتى من قبل . لست آسف على شىء ، انما أنا امرأة عنصرى نبيل . وقد جئت أؤدى واجبا فقد تكون هذه آخر مقابلة بينى وبينك . أحبك وأحب الرجل . أحبك ولم تقدم لى معونة ولم تبذل ولم تضح . وأحبه لأنه فعل كل هذا . صدقت أم لم تصدق. فلست أطمع فىاستئناف العلاقة . وتستطيع أن تستنتج مع من قلبى ومع من ضميرى ووجدانى . وكم حاولت كبريائى أن تصدنى عن هذه المقابلة وعن هذا التصريح !.. وقد نجحت مرارا ولكنها فشلت هذه المرة . لأنىامرأة منحوسة ونحسى ينصب على رءوس عشاقى . ولأنى أخشى أن يجرى عليك ماجرى على « ثروت » وأن أقبلك أنت أيضا قبلة الوداع !..

نطقت بهذه العبارات بروح وحماســة . وهبطت هــذه العبارات بردا وسلاما على قلب الفتى المتقد بالنار ، فهدأ واستراح وانتزع يدها وطبع عليها قبلة

والعشاق الأطفال يأسرهم بسرعة البرق الكلام اللين المصوغ فى قالب الاعتذار أو قالب الايضاح والبيــان . وكأن « شــكرى » أراد أن يستمتع بتفاصيل هــذا النوع فكشفت له بتــدفق عما بيناه . وانتهت المقابلة على أحسن ما يكون . وقد عاد بها الى القاهرة مزهوا فخورا لأنه استعاد القلب واستعاد كرامة العشاق !..

ولكن بقى فى الظلام شبح التهديد . أما هو فكان لايأبه ولا يكترث. وأما هى فكانت تحميه بالقبل المتوالية وتصف له وسائل التحصن والحذر وعيناها مفعمتان بالدموع !

سنسافر معاً . . .

فى ساعة القيلولة وساعة قبل الغروب دق جرس «البنسيون» فهرولت « ثروت » بنفسها الى الباب ظانة أن الزائر هو « شكرى »

وما فتحت الباب حتى وجدت أمامها الضابط !

حياها فردت التحية

واتجه الى غرفتها بدون استئذان كما اعتاد أن يتجه !

فسارت وراءه

قال لها : كيف حال المصرى ؟ !

قالت : لم أره غير مرة واحدة

قال : وهل لا تزالين تحبينه ؟

أجابت : يكفيك أن أقول اننى لا أزال أحبك

قال : شكرا . هونت علىّ مهمتى !

قالت : أية مهمة ؟

قال : سنسافر معا بعد يومين اثنين !

قالت : الى أين ؟

قال : الى وطنى .. الى استراليا

قالت : أجاد أنت ؟

قال : كل الجد !

وجمت ولكنها تمالكت ثم قالت : ولكن كيف أستطيع أن أعد حوائجى فى هذا الوقت القصير ؟

قال : أما حوائجك فلا يحتاج اعدادها الى وقت طويل ، وأما الباسبورت فدعى أمره لى

قالت : ولم هذا السفر المفاجىء ؟

قال : صدر الأمر بتسريح الفرقة !

قالت : دعنى أفكر

قال : أتترددين ؟

قالت : وأى غرابة فى هذا ؟ .. من مصر الى استراليا . أليس الأمر يحتاج للتفكير ؟

قال : عجيب ! ما كان عهدى بك أن ترددى . فيجب أن تبتّى !

قالت : ان أسافر

قال : نهائيا ؟

قالت : نهائيا

وبكت .. ولست أدرى أكان البكاء من أجله أم من أجل الموقف الدقيق والمأزق الحرج ؟

وأشعل هو سيجارته ثم قال : اذن لنشرب ؟

وتناول أقداح الشراب سريعة متتابعة وهو يتأوه ويتلوى ويكظم الغيظ ، وقد ثبت لديه أن « المصرى » هو العقبة الكؤود

واسترد الضابط توازنه واستعاد بروده ثم أخذ يكرر الطلب بكلأنواع صيغه وأساليبه ، من رجاء ، والحاح ، وتشدد، وتوسل، وتذكير. ولكنها كانت أبدا مصرة بكل أنواع صيغ الاصرار وأساليبه ، من ضعف ، واعتذار ، وشدة

***

ووجم الضابط وجمة طويلة ثم زفر زفرة طويلة ثم قال : ان السفر بعد باكر، وباكر هو يوم الاعداد وهو يوم مشحون بالعمل . لم يبق الا هذا المساء وهذا الليل ، فليكن مساء الوداع وليل الوداع . ويكفينى وقد رفضت رجائى أن أمضيهما معك ولعل الأيام المقبلة تجمع بيننا فهيا...

وقامت « ثروت » فارتدت ملابسها وهى تعلم أن تمضية هذا الوقت مع الرجل الوفى المخلص هو واجب هين عادل

وذهبا الى الجزيرة وقد ودعت الشمس الأفق ، وابتدأ الظلام يرسل طلائعه على الدنيا المضيئة ...

السفر ! ...

كان الأستاذ « شكرى » فى اليوم التالى بالاسكندرية فى قضية ، وعاد بعد الظهر مضنى من وعثاء السفر ، فلما استراح قليلا حمل محفظته وتوجه الى المكتب . ثم طلب فنجانا من القهوة وفتح جريدة « المقطم » كعادته ليقرأ أخبار المحليات ...

وكان قد أمر الكتبة بأن يحضروا له بسرعة عمل الغد . وبينما هم منهمكون فى تنفيذ أوامر الشاب المحبوب اذا بصرخة تدوى فى أرجاء المكتب وتهز أركانه وقد صدرت من غرفته ...

بادر الكتبة فزعين الى النجدة فوجدوا الفتى مغمى عليه وقد سقط من كرسيه وجريدة « المقطم » بجواره

استدعى الطبيب فى الحال وعملت الاسعافات السريعة ، وكان له زميل من سنه يعرف من خصوصياته الشىء الكثير وقد لفتت نظره الجريدة فأخذها وقرأ فيها ما يأتى :

انتحار ضابط استرالى وقتل فتاة

« عثر البوليس أمس الأول أثناء تجوله فى نواحى الزمالك بعد نادى الجزيرة البريطانى حوالى الساعة الثامنة بجثتى ضابط استرالى وغانية عليها مظهر المصريات ، وقد اخترق الرصاص قلبيهما فسقطا صريعين . وقد وجد خطاب بجانب الجثتين كتبه الضابط المنتحر وذكر فيه أنه بسبب صدور الأوامر اليه بالعودة الى الوطن وعدم امكانه مخالفة هذه الأوامر ولأنه يحب صديقته هذه فقد قرر أن ينتحر فأطلق عليها الرصاص أولا ثم أطلقه على نفسه . وانه يودع أصدقاءه وأهله ويطلب الغفران من الله»

« أما الضابط فاسمه « جيمس ريد » كما ذكر فى خطابه . وأما الفتاة فاسمها « ثروت » ويظهر انه اسم محرف

« وهكذا مصارع العشاق ... »

الى أسيوط ..

إلى أسيوط !...

فى القاهرة ناد فخم للألعاب الرياضيــة كان ولا يزال أرقى النوادى الرياضية المصرية وسطا وحيثية . مؤسسوه كانوا فريقا من كبار الطبقة الأرستقراطية المثقفة الموسرة . وأعضاء لجنته العليا من الوزراء وأمثالهم

كان « شكرى » عضوا فى هذا النادى . وكان من غواة «كرة القدم» وفريق « كرة القدم » فى هذا النادى كان أقوى الفرق المعروفة ...

فى قطار الليل الذى يقوم من محطة العاصمة حوالى الساعة الثامنة مساء احتل فريق النــادى مركبة من مركبات الدرجة الثانية ووجهته أســيوط لمباراة ناديها الرياضى . وشوهد بين أفراد الفريق المسافرين « شكرى »

ورحلات فرق الكرة فى النوادى والمدارس رحلات ممتعة حقا . هى عبارة عن ضحكات من القلب . واعفنى بعد ذلك من الوصف . هى المرح وهى السعادة وهى الهناء وهى الطفولة الفتية بكل ما فيها من ســذاجة وصفاء وعدم شعور بالمسئولية ...

و « شكرى » كان الثرثار اللبق الحــاضر البديهة السريع النكتة ، وكان المورد العذب والمصدر العذب فى كل رحلة ...

ولكن .. يا لخيبة الأمل ؟ !

كان هذه المرة جامدا كالحجر ، باردا كالثلج ، شاحبا شاردا كمدمنى المخدرات ...

وحاول اخوانه أن يحركوه بنكاتهم الظريفة ومجونهم البرىء فــكان ينظر ولا يتحرك

قال الصديق نمرة ١ : انت جوعان ؟ !

وقال الصديق نمرة ٢ : انت مفلس ؟ !

وقال الصديق نمرة ٣ : انت قتلت قتيل ؟ !

وانطلقت العبارة الأخيرة كالسهم أصــابت فؤاده فصرخ صرخة داوية وأردفها بلفظة فيها كل الوجيعة : نعم !

***

صدق « شكرى » اذ صرخ وقال : نعم

ألم يكن هو القاتل حقا ؟ !

لولا انه كان طارئا طرأ على حياة قاطنة القبر ما احتواها القبر !

كانت عادت الى أحضان صــديقها ومنقذها فتبعته الى حيث شــاء ، وتزوجته أو عاشرته ، كما يشاء ، وتمتعت بالحياة ولم يغيبها الظلام !

نعم .. كان هو القاتل لا القدر !

وما هو جزاء القاتل فى عرف العدل لا فى عرف القانون ؟ ما هو جزاء القاتل فى عرف الواجب لا فى عرف المسئولية الوضيعة ؟ ما هو جزاء القاتل فى عرف المحب الولهان لا فى عرف الحيوان ونصف الحيوان ؟ !

أن يختفى من العالم وأن يرقد بجوار الضحية ! طائعا مختارا يستصدر الحكم على نفسه من ضميره ، وعلى حياته من وجدانه ، ثم ينفذه بيديه فى روحه ، ثم ينتهى ان كان رجلا وكان شجاعا ...

وان « شكرى » لرجل ! وانه لشجاع ؟

اذن علام التردد ؟ وعلام الابطاء ؟

هذا القطار يسير بسرعة البرق ، وهذه النافذة يستطيع أن يقفز منها قفزة واحدة فيصل بالسلامة الى النهاية !

ولكن من يرقده بجوارها ؟ من يعلم بأمره وأمرها ؟ من يضم عظامه الى عظامها ؟ من يشيعه الى قبرها ؟

فلينتظر قليلا ، حتى يكتب رسالته ، ويترك وصيته ...

***

ويفيق « شكرى » من نوبته الجنونيــة فيجد اخوانه حوله ذاهلين جزعين ، وقد أسعفوه بما لم يشعر به وبما لم يحسه . فينبس متوسلا :

ــ دعونى أنم

ويصدق الاخوان هذه الدعوى الكاذبة فيتركونه وحده . ولو صدق لقال : دعونى أبك ...

الله ! . . .

« يارب !.. »

هتاف صـــدر من أعماق نفسه واهتز له كيانه الجسمى والذهنى أى اهتزاز . وكأنه شعر بشيء من الراحة فى هذه النجدة الربانية وفى هـــذا الملجأ العلوى الروحانى الخفى ، فأخذ يكرر الهتاف ويضغط بيديه على صدره وعلى قلبه وعلى رأسه ضغطا عنيفا بقسوة وشدة ، فيصدر الهتاف بجرس صـــوتى مكتوم حزين تصحبه زفرة حارة نارية يتلقاها بيـــدين متناثرتى الأصابع على وجهه فترد النفس النارى الحامى عليه فاذا به كله متوقد باللهيب ؟

***

كان لهذا الهتاف أثره السحرى على نفسه الثائرة المتمردة ، فهى تتراجع رويدا رويدا عن خاطر النافذة المفتوحة فى القطار السريع وعن خاطر القفز منها للحاق بعالم الفنـــاء . وهى تخنع وتذل . ثم هى تتجه ببطء لشيء سمع عنه ولم يدرسه وهو : القدر ؟

وكأن الفتى المجنون قد استرد شيئا من ذاكرته الضائعة فى هذا الليـــل البهيم ، وبعد نكبته الفادحة .. فهو ينشط بعد افاقته ثم يطل من نافذة القطار . ولكنه لايوجه نظره للأرض التى كانت المرمى منذ دقائق ، وانما يوجه نظره للسماء ؟

السماء ؟ ماذا فى السماء ؟

لاتسألنى أنا وانما سله هو ، وانظر اليه وقد رفع يديه بخشوع . وقد سقطت دمعتان بخوف واحترام وتقديس . وقد خرجت زفرة يحف بها أبلغ ما فى قلوب البائسين من مشاعر ومظاهر وعلامات الاكبار والاجلال

السماء ؟ ماذا فى السماء ؟

آه ...

أخيرا ، وأخيرا أيها الشـــاب المتمرد المغرور . المغمور ببحر الحركة المادية الطامى . المأخوذ بأنوار الصالات والبارات والمنتديات والمراقص والملاهى . المختلس من عالم الروحانيات بضجيج المدنية وعجيجها وتيارها القوى الاندفاع ... أخيرا وأخيرا تتذكر أيها الشاب السماء . ومن فى السماء ؟

الله !..

نعم : هو « الله » ولا أدرى لم يبحث عنه الناس صعودا للسماء . ولا يبحثون عنه هبوطا للأرض !

نعم : هو « الله » الذى لانذكره فى الرخاء ــ ولا فى النعيم ــ ولا فى اللذة ــ ولا فى الراحة ــ وانما نذكره فقط عندما نحتاج ؟ !

« عندما نحتاج » ولست أزيد . ورتب على معنى « الاحتيـــاج » و « ملحقاته » ماشئت ، من حاجة الى المال ــ وحاجة الى الشفاء ــ وحاجة الى السلوى ــ وحاجة الى الانقاذ

نعم : هو « الله » أيها الجحود ! وأيها الكفر ! وأيها العمى ! وأيها الصمم !

هو « الله » الذى نذكر زبدة الصباح ، ومربّى الصباح ، وشـــاى الصباح وننساه ...

هو « الله » الذى نصــلى للدرجات ! ونركع للترقيــات ! ونسجد للعلاوات ! ونسبح بحمد الوزراء والرؤساء وننساه ...

هو «الله» الذى نحج لكعبة الحكم، ونقبل حجر لاظوغلى ، ونطوف حول بيت الوجاهة وبيت المال وننساه ...

هو «الله» الذى نضحى من أجل السلطة الأرواح والأموال والأخلاق والوطن وننساه ...

هو « الله » البعيــد عن الخاطر فى كل ضحكة ، وكل رحلة ، وكل وليمة ، وكل ســـهرة . والقريب من الخـــاطر ــ فقط ــ عند الآهات والحسرات !

هـذا « ذكر الله » رفه عن الفتى لوعته ، وزحزح كربته ، وخفف مصيبته ونكبته !

فأين « كلام الله » ؟

كلام الله ؟

كد الفتى قريحته . وأجهد ذاكرته . وأضنى مخيلته . فلم يظفر بكلمة من كلام الله !

واحسرتاه !

ألف رحمة على عهد « الكتّاب » فى القرية . وألف رحمة على عهد « سيدنا الشيخ جاد » و « ستّنا الشيخة صابحة »

بخ بخ ومرحى مرحى !

الحكومة المصرية الاسلامية القرآنية ماذا علمته فى المدارس ؟

ان الجواب عند المستر « دنلوب » وعند خلفاء المستر « دنلوب »

حصة واحدة اضافية فى المدرسة الابتدائية يلقنونه فيها بعض آيات القرآن كالببغاء . فهو يحفظ الآيات عن ظهر قلب ولا يعلم منها شيئا . حصة « الديانة » هذه تجىء فى آخر النهار وقد لعب الجوع بعقل الصغير وبطنه . وقد لعب الحر والعناء بأجفانه وذهنه ؟

فاذا ما تخطى دراسة الطفولة وانتقل الى الدراسة الثانوية حيث يشرع العقل فى النضج . وحيث تشرع المدارك فىالاستواء ، كانت الكرة والجمباز أجدى على البدن من الدين على النفس ؟ !

واذن فهناك كرة وجمباز ، ولا دين ...

فاذا ما انتقل للدراسة العالية فالدين علم متأخر لايتمشى والمنطق والقانون والاقتصاد. هو لايرتفع الىمستوىالعلوم العصرية والدراسات الفقهية !..

فاذا ما تخرج الفتى لم يذكر من قرآنه ، ودينه ، وسنته ، وروحانيته غير خيالات « كتّاب » القرية . وغير ايضاحات « سيدنا » الشيخ و « ستّنا » الشيخة

فاعذروه ان انطلق عدوا الى « البنسيون » الذى لم أشأ أن أسميه ؟
واعذروه اذا نسى « الله » ونسى « كلام الله » ...
واعذروه اذا حرضته نافذة القطار ، على السفر الى النــار ، وبئس القرار ...

***

واشتدت لهفة الفتى على « كلام الله » ...
وكان بين اخوانه من فريق الكرة المسافرين معه شاب طيب متدين أطلق عليه اخوانه اسم « الشيخ أحمد » ...
اقترب منه الأستاذ الناشيء وأسر فى أذنه أن ينتحى معه ناحية هادئة لأنه فى حاجة اليه ...
ولبى « الشيخ أحمد » الدعوة المستكينة الذليلة
قال : أتحفظ كلام الله كله ؟
قال : كله .. والحمد لله
قال : أنجدنى فقد أوشكت الآن أن أنتحر !..
هنا خلع « الشيخ أحمـد » حذاءه و « تربع » وأخـذ يرتل الآية :
« وبشر الصـابرين الذين اذا أصـابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون »
قال وقد أخذته روعة : أعد وتمهل
فأعاد « الشيخ أحمد » الآية الكريمة ، وأخذ صاحبنا يلتهم روحانيتها التهاما وهو مطرق اجلالا واحتراما
وقرأ « الشيخ أحمد » : « ولا تيأسوا من روح الله . انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون »
قال : زدنى يا « شيخ أحمد » فانى أشعر بالطمأنينة تتسلل الى قلبى
قال : اسمع : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب »

قال الفتى : يمينا لأذكرن الله ، ولأحفظن كلام الله

قال الشيخ أحمد : اذن سأعيرك مصحفى الليلة لتقرأ فيه كلام الله ولتدرك معنى كلام الله

ودفع اليه المصحف الكريم فأخذ يتلو السور سورة سورة حتى قال المنادى : أسيوط ...

أسيوط المنكوبة ! . . .

لم تكن الرحلة الرياضية هى السبب المباشر لرحلة « شكرى » الى أسيوط . انه أحب أن يغادر القاهرة ليغادر الذكريات المؤلمة . ومن الصدف العجيبة أنه قبل حدوث الحادث كان قد تلقى عدة خطابات من اخوانه المحامين تحت التمرين بأسيوط ومن اخوانه أعضاء النيابة بأسيوط ــ وكلهم من خريجى فرقته وزملائه وأصدقائه الذين يحبونه حبا جما ــ يحرضونه كل التحريض على أن يشتغل محاميا بأسيوط ، كمساعد لأحد نوابغ المحاماة هناك . ومنشأ الفكرة أن الصدف العجيبة أيضا جمعت بين اخوان الفرقة فى صعيد واحد . ولما كان « شكرى » يتمتع فى المدرسة باعجابهم وتقديرهم فكروا فى التأثيرعليه حتى يجتمع الشمل وحتى تتكون جمعيتهم الظريفة من جديد ...

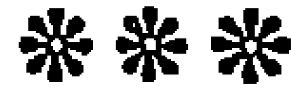
وأغرب ما كان فى ذلك الاغراء وذلك الاعزاز أنهم حملوا ذلك المحامى النابغة على أن يكتب خطابا يعرض فيه مرتبا شهريا قدره عشرون جنيها ، وهو مرتب يمتاز عن مرتبات زملائه المحامين تحت التمرين وزملائه أعضاء النيابة ...

فلما حدثت الصدمة العاطفية ، وجد «شكرى» الفرصة مهيأة معدة . ووجد فى ذلك المهجر ما قد ينسيه آلامه وأحزانه ، وما قد يشغله عن ذكرى الماضى الكئيب ...

واستقبله اخوانه على القطار الذى يصل بعد منتصف الليل بكثير . وكانت مجاملة لها وقعها . وأضافوه الليلة فى منزل أحدهم ، ثم اتصل بأعضاء ناديه حتى انتهت المباراة وملحقاتها من ضيافة وسهرات وحفلات وعاد فريقه الرياضى الى القاهرة ، واستلم هو عمله فى مكتب زميله المحامى الكبير ...

ولم تمض أيام قليلة على حياته العادية فى أسيوط حتى انطلقت القنبلة الأولى من قنابل الثورة المصرية فى اقليم المنوفية ، ثم تطاير الشرر الى غيرها من الأقاليم ، واشتعلت نار الثورة فى القطر بأسره ، فكانت ثورة مباركة لعلها المثل الأوحد على رجولة الأمة المصرية فى عهدها الحديث !

وقطعت المواصلات بأنواعها بين أسيوط والقاهرة وبين أسيوط وغيرها من مدن القطر ، فكانت عزلة تامة ثم كانت المآسى ...



لا تطمع فى أن تقرأ هنا تاريخا لحوادث الثورة فى أسيوط . ليس ذلك من شأنى ولا من شأن بطلى . وانما أنا أمزج فى استعراضى هذا بين الحب والسياسة والأخلاق والاجتماع . وفى أسيوط اجتمع لفتانا كل هذا . فقد وصلت الى أسيوط أخبار الثورة مضخمة مجسمة . فهذا رجل محترم يقسم بأغلظ الايمان أن عرب « الباسل » احتلوا القلعة ! وهذا آخر لايقل احتراما يحلف بوحيده « حسونه » أن الرديف المصرى تجمع واكتسح قشلاقات العباسية وقصر النيل ! وهذه منشورات اليد السوداء المصرية المستعينة بالفوضويين الطليان والأسبان قد بشرت بفناء الاحتلال وفرضت ارادتها فرضا على حكام الأقاليم المصريين !

نفثت هذه الأخبار النارية روح الحماسة فى صدور الناس فتحفزت أسيوط وكشرت عن أنيابها . وكان الحب الميت قد أوقد فى صدر المحامى الناشىء شعلة من الشعر الثائر. فألف نشيدا وطنيا ملأه بالدم وبالتضحية وبالفداء ، ثم لحنه تلحينا شعبيا سهلا وأذاعه ، وطبع منه الطابعون أكثر

من عشرين ألفا من النسخ وزعوها على الجماهير وعلى المخادع وفى العزب والكفور. وكانت نغمة الائتلاف بين الأقباط والمسلمين أنشودة تلك الأيام فترنم بها فى نشيده وألقاه فى الكنيسة فى صباح يوم من الأيام ، فاذا بالناس تموج موج يوم القيامة واذا بالشرر المقدس الوطنى المتشفى السفاك يدفع الجموع دفعا نحو الانجليز ...

ويزحف البؤساء العزل زحف الأسود الكاسرة المقلمة الأظفار والأنياب على مستودعات الذخيرة المحلية وعلى سلاح البوليس فيتخاطفونه تخاطفا ويتقلدونه فارغا ومملوءا . ويتكون فى لمح البصر جيش الثورة من « الجلاليب » و « الزعابيط » . وعدتهم عبوديتهم الكريهة التى طال عليها المدى ، وهناؤهم المالى والعائلى الذى سطت عليه أهوال السلطة ، فغيبت فلذات الأكباد فى فلسطين والتهمت الذرة والقمح والحمير والجمال ورزق العيال وقوت العيال ...

ويصيح الصائح ويهتف الهاتف : ان « فيصلا » شيخ العرب الغضنفر والصنديد الذى لايقهر قد تقلد القيادة العامة ، ثم يسمع الناس بعد قليل صوت الرصاص فى « المليان »

ويخيم الظلام فتشتد المعركة وتحتد . ثم فجأة تنطفىء الأنوار فى أسيوط الكبيرة ويسودها الظلام ...

ان وابور النور قد تعطل ...

ويختبىء الناس فى دورهم ويحكمون اغلاق الأبواب ، وقد انتشر الذعر فتسلل الى كل بيت والى كل قلب

فجأة ينطفىء النور ثم فجأة تندلع النار ...

هذا « تبن السلطة » المكبوس المكدس على مقربة من جدران العمارات والقصور فى أسيوط قد أصبح محيطا لا من الماء ولكن من اللهيب ...

والنار ترتفع وترتفع ثم تلقى بأذنابها الطائرة على المبانى القريبة فتحترق ...

وينتهز الأشرار الفرصة فيقتحمون الحوانيت سالبين ناهبين متاجر الأجانب والوطنيين سواء بسواء

وتتوحد الأسر الأجنبية وتتحصن وراء الأبواب بالدموع وبالدعوات وبالأنين ...

ورجال الحكومة قد أسقط فى أيديهم من الكبير الى الصغير فتلاشوا جميعا وقنع كل واحد منهم بمخبأ وبملجأ ...

وتختفى أسيوط ، فلا ترى فيها ولا تسمع الا الظلام والا الرصاص والا النار والا العويل ...



وفى تلك الليلة السوداء المجنونة وجد « شكرى » واخوانه الأغراب من أعضاء النيابة والمحامين الناشئين أن البيوت الكبيرة قد أوصدت أبوابها وأوقفت حولها الحراس من فلاحيها وزارعيها خوفا من الثورة .. الثورة ضد الانجليز ، والثورة ضد الثروة ! ! !

نعم كانت حقا ثورة ضد الانجليز يقودها بعض المتنورين . وثورة ضد الثروة يقودها الأشرار الفقراء . أما ثورة الانجليز فكانت تدور رحى معاركها حول مدرسة الأمريكان وحول الخزان . وأما ثورة الثروة فكانت تدور معاركها فى الحوانيت والمتاجر . وكان « شكرى » واخوانه الأغراب يتحصنون فى شقة أحد الزملاء . ولكن « شكرى » بعد نكبته العاطفية كان لايزال ذاهلا شارد الذهن لايقوم روحه بشىء . سمع فى الشقة المجاورة أنينا ، وأحس بكاء وعويلا ، فاتجه نحو الباب وأخطر من بداخله بأنه رسول أمان ففتحوا له . وجد أمامه ــ ويا لهول ما وجد ! ــ نساء وأطفالا رضعا وغير رضع ورجالا كالنساء وكالأطفال «أجانب» يكاد يميتهم الهلع قبل أن يصيبهم الرصاص . وأبت سخافته فى هذه اللحظة الرهيبة الا أن يلقى عليهم محاضرة فى روح الحركة ونزاهة الحركة . ولكن من يسمع ومن يصدق . وألقت سيدة وقورة بجسمها على

قدميه تقطعهما تقبيلا وتوسلا وهى تشير اشارة متخاذلة نحو باب العمارة ، وكانت عمارة «محمود باشا سليمان» رجل الصعيد العتيد ، وولده «محمد باشا محمود » أحـد المنفيين فى « مالطة » ومن أجلهم قامت الثورة . واندفع « شكرى » نحو الباب يتبين ما يجرى فاذا به يلمح صـفائح البنزين المنهوب من مخزن مجـاور ، قد رصت رصا على محـاذاة جدار العمارة ، واذا به يشهد ـ ويا لهول ما يشهد ! ـ الثائرين يوشكون أن يشعلوها بعيدان الكبريت ! ! !

زأر فى وجوههم زئير اليـائس المستميت . فقـال أحدهم : « هنـا انجليز»... قال : « أخطأتم.. بل هنا أجانب . وهنا أمهات . وهنا أطفال . ولن يقدم أحدكم على جريمة قبل أن أكون أنا أول ضحية . هـذه عمارة « محمد محمود » ولأجل حريته وحرية بلاده ثرتم . وأنتم الليلة تخربون بيته وتنسفون ملكه .. الى الوراء .. الى الوراء ... »

قال وحش من الوحوش : « اسـكت . وهـل وزع محمود باشـا سليمان أرغفة العيش على الجائعين ؟ نحن طلاب قوت ! ! ! »

وكانت صـدمة أية صـدمة للفتى الوطنى . خلط عجيب بين طلاب الاستقلال وطلاب القوت ! وخلط غريب بين الكفاح القومى والاشتراكية الساذجة !..



وحاول اللص الأكبر أن يشعل النار فقبض الفتى على يده متوسـلا ، ولكن الفقر الجاهل الـكافر كان لايعى ولا يفهم . حتى هتف هاتف : اسرعوا الى دكان السجاير . فتركت العصابة صفائح البنزين وهرعت الى الغنيمة اللذيذة . فحمل بيده هو وزملاؤه الصفائح . ولم يرتد أحد من غواة التدخين ...

صوت الرصاص لايزال يدوى دويه الرهيب ...

عمارة « النميس » الحديثة الطراز تشتعل بالنار ...

بركان التبن المكبوس لايزال يرسل الشرر واللهب ...

كل هذا كان هينا بجانب النكبة التى حلت بمتاجر الصاغة داخل البلد . أسيوط عاصمة الذهب والمصاغ أصبحت محكومة بعصابات اللصوص . وحوانيت الصاغة وفيها رءوس الأموال الطائلة قد أصبحت أثرا بعد عين

كان التجار الأقبــاط هم الفريسة . ولعلّى أذكر تعليلا واحدا يهون الأمر . فقد كانت الليلة السوداء ليلة الاثنين وكانت ليــلة لم يرقب مقدماتها الأقباط لأنهم يقفلون متاجرهم يوم الأحد، فلم يحتاطوا ، فحلت بهم النكبة . وكان همّ الشبان المسلمين أن يصونوا الوحدة القوميــة وكانت مهمة شاقة . وكان عسيرا على المسلم أن يقنع قبطيــا نكب فى ثروته عن آخرها بنزاهة اللصــوص وبعدهم عن فكرة « التعصب » . ولعل « شكرى » كان أتعس الناس بهذه الظاهرة . وكانت مواســاة الأقباط المنكوبين سخافة . وتغلغل « شكرى » بين العصابات فى الليــل البهيم يعظ وينصح . ولكن هيهات !..

ثروت الثانية !

وفى زقاق من الأزقة سمع صوت استغاثة مكتوم ، فاتجه نحوه فى الظلام . وحدق فى وجه المستغيث فلما تبينه ســقط على الأرض قابضا على القدمين بيديه الفولاذيتين . وانقلب المستغيث مغيثا فحنى على الأستاذ يهدىء روعه ويثيب اليه رشده . وأفاق « شكرى » فأخذ يقبل شعر المستغيث ووجهه تحت تأثير طــارىء غريب من الجنون النصــفى . ثم انهمرت دموعه وأخذ يصيح : ثروت . أنت هنا ؟.. اذن لم تموتى ! ؟

كانت الفتاة المستغيثة فتاة هى بعينها « ثروت » فى القوام ، وفى القد وفى اللون وفى الروح .. ولكنها لم تكن ثروت ...

والفتاة المستغيثة مأخوذة بهذه الحــالة العجيبة . ولكنها تحس نحوه احساس الاشفاق فتمسح دموعه وتقول له : تنبه . أنت مخطىء . أنا طالبة

بمدرسة الأمريكان واسمى « مريم » ... هيا انقذنى وعد بى الى منزلى
ويثوب صديقى « شكرى » الى رشده فيدرك خطر الموقف وسخافة تصوره . ويعتذر للفتاة اعتذارا كله خجل .. ويحيطها بذراعه وصدره ويقتحم بها الجماهير الثائرة الناهبة . وهو كالأسد متحفز لكل مفاجأة . حتى اذا استقام الطريق قليلا وخلا من المارة سألته الفتاة برقة : ألست صاحب النشيد ؟

فيجيب : أنا هو يا آنسة ...

فتقول : لك تهنئتى واعجابى . أنا أحفظه عن ظهر قلب وكل زميلاتى ... ثم تبكى ؟

فيقول لها : ما يبكيك ؟

فتقول : جاء أبى لزيارتنا قبل الحادثة ولم يعد للآن فبادرت أبحث عنه وسط هذا الرعب فلم أظفر به . وكدت أفترس حتى استغثت بك...

قال : أحمد الله . ومن أين أبوك ؟

قالت : نحن من بلدة (. . .) وهى قريبة من هنا وسنعود بأية طريقة فى أول فرصة ...

قال : بسلامة الله ...

ومرت برهة .. واذا بالفتاة تفاجئه بهذا السؤال :

— ومن هى ثروت ؟..

قال : هى التى أتت بى الى هنا

قالت : أهى من سكان أسيوط ؟

قال : بل من سكان القبور

وكانت فتاة لماحة ففهمت ولم تنبس ببنت شفة ...

فلما وصلت لمنزلها عطفت قائلة برقة وأسى : أتراها تشبهنى ثروت المرحومة ؟

قال وهو يضغط على يدها شاكرا عطفها : كل الشبه

قالت : اذن أدعوك لزيارتى كلما شئت أن تراها

قال : أشكرك

وكان أبوها على باب المنزل ينتظرها بفارغ صبر فتلقاها بحنوالآباء ، ثم سألها : من هذا ؟

فقالت : منقذى

واستأذن « شكرى » وعاد أدراجه ، وهو بين ثروت الميتة .. وثروت الحية ...



الثورة الجامحة لا تبقى ولا تذر . كل شىء فى البلد ينهب : أثواب الحرير النفيسة . زجاجات الروائح العطرية الغالية الثمن . أسرة النحاس الفاخرة . الأحذية اللامعة وغير اللامعة . الأثاث الذى لا يقدر بثمن . مخازن « استين » تنقل كلها ، حتى « باركيه » الأرضية يقتلع . وكانت المناظر بين مضحك ومبك . فهذا ثائر يحمل على ظهره « البنك » الذى يعرض عليه العمال الأقمشة ويقف حوله الزبائن وهو ينوء تحت حمله الثقيل هاتفا : يحيى الوطن ! ! وهذا ثائر آخر ظفر بجاكتة «سبورت» من جاكتات « التنس » الظريفة فهو يرتديها على جلابيته أو زعبوطه . وهذا ثائر لبس حذاء من نوعين ولونين : « الفردة » اليمنى سوداء لامعة للسهرة ، و « الفردة » اليسرى بيضاء « للتنس » ـ وتضرب الفوضى باختصار أطنابها على أسيوط فلا تحكمها الا الفوضى ! ! !

فاذا ما سألت عن « الحكومة » : أين هى ؟ وأين مقرها ؟ وجدتها متحصنة فى بيوت الأعيان أو القناصل محروسة بالأهالى من غير جنس اللصوص ؟ !

وتنتشر اشاعة : ان الطائرات الانجليزية على وشك الوصول لتلقى القنابل على المدينة الهائجة المائجة . فترى فى الحال رتلا من العربات الفاخرة تحمل الأعيان وتحمل « الحكومة » بموظفيها الكبار وتنهب الأرض نهبا .. الى أين ؟ أتدرى ؟

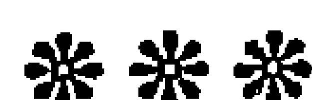
الى الاسبتالية الأميرية لتلوذ الحكومة ويلوذ الأعيان بالبنــاء المقدس وليختفوا فيه تحت حماية المرضى وذوى العلل والأسقام !..

وتسمع فى السماء أزيز الطـائرات فيملأ الذعر قلوب الثــائرين وغير الثائرين ويلوح الشبح المخيف فى الجو فيدور دورة أو دورتين ثم يهدى تحيته البليغة الى المدينة : قنابل ...

ويشاء ربك الحكيم الجبار أن تسقط القنابل على الاســبتالية مخبــأ الحكومة وملجأ الأعيان والموسرين والأرستوقراطيين بعد أن أجلوا عنها المرضى وأنصاف الموتى ...

ويتحكم الهلع فى الرءوس وفى الأبدان وفى الأذهان وفى الألسنة فلا يلد الا مظهرا واحدا : الذهول ...

واستراحت القنابل واستراحت الطـائرات بعد أن خطفت عدة أرواح صغيرة لأطفال صغار وبعد أن أسكتت صوت رصاص الأهالى الثائرين...



وينزوى الأستاذ « شكرى » فى غرفته بالفندق وهو يمزق شعره ويلطم خده من الغيظ ومن العجز . يسائل المسكين نفسه بذل وجبن وانكسار : أيصعد الى الســماء فينازل الطـائرات ؟ أم ينزل الى الأرض فيكافح العساكر « الهنود » ؟

هو يهتف : الى النزال الى النزال . ولكنه يلوح بيديه أسوة بالمرحوم المبرور « دون كيشوت » البطل المغرور

ويدق باب الغرفة فجأة فيأذن بالدخول

الخادم يحمل ورقة صغيرة فيها هذا الاسم :

« ثروت » ...

وتدخل الآنسة « مريم » وعلى ثغرها ابتســامة شــجاعة فتلقى تحية

ساذجة بعيدة عن التكلف والتصنع وعلى الطريقة الانجليزية المهذبة المحببة الى القلب والنفس ...

برهة .. ما أدقها وأرقها وأصعبها فى التحليل !..

دهشة ، وعاطفة ، وتقدير ، وحيرة ...

ويغلق الباب . ولا يدرى واضع هذا الاستعراض من أغلقه :

أهو الخادم ؟ أم الأستاذ ؟ أم الآنسة ؟ أم هو الجماد أغلق نفسه بنفسه برا بهذا الطهر وهذا العفاف ؟..

قالت : هل يحرجك وجودى ؟

قال : مطلقا يا آنسة ، بل بالعكس .. وجودى الذى يحرجك ...

قالت : لايعنينى ، أنا أسيوطية وأنت فى أسيوط غريب ...

قال : شكرا

قالت : نعم غريب ... وحزين أيضا ... ومهدد بخطر !

قال : شكرا

قالت : وعدت « ثروت الحيـة » بالزيارة فلم تفعل ، فها هى تسعى اليك

قال : شكرا

قالت : خشيت عليك من الطائرات فجئت لأطمئن ...

ولمحت الفتاة اللماحة فى عينيه دمعتين فأخرجت منديلها الصغير الأنيق وهفت به وبأناملها عليهما ، فاستولى على يدها الصـغيرة يقبلها بضعف واستسلام ...

***

هل تلذ لك أيتها القارئة الصغيرة وأيها القارىء الصغير رواية هـذه المقابلة العجيبة ؟

كان من رأيى أن أضن عليكما بالتفاصيل لولا أنها تكاد تكون خالية من التفاصيل ...

هو مشهد من مشاهد السينما . ولا عجب فالفتاة لابد قرأت كثيرا من الروايات وشاهدت كثيرا من « الأفلام » السينمائية . ووجدت فى صاحبنا بطلا من الأبطال الذين شاهدتهم أو قرأت عنهم فأقدمت وفى نفسها أن تفاجئه لتواسيه ...

و « ثروت » عندها قصة . ومثار للفضول وحب الاستطلاع . وهو غريزى عند الفتيات والجنس الناعم على العموم ...

اذن لنهمل الخطر جانبا . ولنحتقر الطائرات مؤقتا . ولنتجاهل أسيوط المنكوبة لحظة . وليتكلم « شكرى » طويلا عن « ثروت » :

يا لسذاجة الفتيات ! !

لئن قبلنا عذر الآنسة « مريم » فكيف نقبل عذر الفتى الناضج « شكرى » وقد أخذ يروى قصة « ثروت » بأسلوب تركب من الحماسة ، والدموع ، والتنهدات ، والحسرات ..؟

يقول بعض خبراء العواطف : ان « الخطر » يلد العاطفة بسرعة البرق ! أليس هو الذى يعطف القلب على القلب ؟ أليس هو الذكرى الرائعة الرهيبة التى لا تفارق الأذهان فى مختلف الأسنان ..؟

وما هو الحب ؟

هو عندى بلا تطويل ولا اطناب : مجرد « الذكريات » ..

هل فهمت ما أقصده من هذه العبارة الموجزة ؟ انكنت لاتزال محدود الذكاء فاعلم أن عاطفة نشأت سريعة بين « شكرى » و « مريم » ولكنها « شىء » مبتكر فى عالم العاطفة ؟ !

أما « شكرى » فدفاعه أن هذا « الشىء » نحو « مريم » هو الوفاء كل الوفاء « لثروت »

أليست تشبهها قدا ، ولونا ، وروحا ؟ !

اذن هو لايخون الميتة بهذه الحية ...

وعجيب هذا الوفاء للأموات !

انه يشعر رغم هذا التحليل بشىء من وخز الضمير

ولكن ما أرحمك يارب !

يموت العزيز علينا فنشيع جثته بكل مظاهر الحزن والجنون والوجيعة . فاذا ما ضمنا المأتم فى ليلتـــه الأولى لم تتعفف عن السمر وعن تبـــادل النكات وعن الضحك ؟ !

وتغيب فى أسرع من رد الطرف ذكرى العزيز ...

ويغيب الوفاء ...

ليس هذا فى نظرى جحودا ونذالة.. والا كانجحودا من أخس أنواع الجحود ، ونذالة من أحقر أنواع النذالات

انما هو « الله » سبحانه وتعالى يبعث الصبر الى نفس المحزون بقوة تفوق قوة الحزن ردا لفعل الصدمة فتتخدر الأعصـــاب المتوترة ، فتعود فى الحال سيرتها الأولى ...

فينسى الأحياء الأموات فى أقرب الأوقات !..

أما «مريم» الصغيرة الناشئة فقد أحدث الخطر فى نفسها هزته الأولى

ثم أحدثت المفاجأة الثانية الهزة الثانية ...

ثم استفز عواطفها الفضول ...

ثم لذ لها أنها تشبه فتاة من أجلها سالت دموع شاب معروف . ومن أجلها حدث تشنج واغماء ، ومن أجلها تجلت عواطف قوية فيها لوعة وفيها أنين ...

ولا يغرى المرأة الصغيرة أو الكبيرة غير الاعجاب المضمر أو الصريح

ثم أتدرى ما الذى أشعل هذه العاطفة الصغيرة العجيبة ؟

انها الغيرة !

ولو من ميتة ؟ !

والغيرة من الأموات عنصر فذ معقد من عناصر غريزة المرأة ؟ !

انها غيرة لا تصل الى مستوى التشفى أو الحقد أو المقت . وانمـا هى غيرة والسلام ...

ولا تستكثر هذا التحليل على فتاة فى سن الثامنة عشرة . انك ان اتجهت الى هذا النقد عددتك محدود التجربة فى عالم الفتيات !

وليس هذا مجال الدفاع عن نظريتى بتطويل . وانما أقول باختصار: تلك هى تجاربى وكفى !

***

هذه هى نفسية الفتى ونفسية الفتـاة حين كان « شكرى » يروى و « مريم » تسمع . وحين كانت الثورة فى أسيوط تسكن أمام صوت مقذوفات القنابل . ولكن احتشام الشاب الأصيل والشابة الأصيلة كان يحول دون كل تلميح أوتصريح . كانت العواطف تتفاهم بحذر وتحفظ وجبن . وكانت الألسنة خرساء والعيون تغالط ولكن الروحين تتقاربان

وانتهت المقـابلة على « رسميات » فيها حنـو . وعلى مواعيـد ومقابلات فيها خفر وحياء ...

لم تكد الفتـاة تلتفت نحو الباب حتى سمعت أسيوط دويا ثالثا هو مدفع «المتراليوز» قد ركب وسط الخزان وأطلق ناره يمينا ويسارا فأباد مخلوقات ومخلوقات . ورأى « شكرى » من واجبه أن يصحب الفتـاة الى منزلها فى عربة ، فركبت مكرهة وركب مكرها .. حتى اذا وصلت الى باب منزلها ودعها بارتباك ...

وعاد فى الحال الى غرفته ثم أغلق بابها وهو فى أشد حالات التهيج والسخط ، ثم نظر فى المرآة وخاطب نفسه قائلا : انت نذل !..

***

ثم ارتمى على سريره يبكى الوفاء .. ويبكى عدم الوفاء
ثم زفر زفرة وهمس هاتفا : غفرانك يا ثروت ...

القرون الوسطى !!!

وما شأن القرون الوسطى بسنة ١٩١٩ ؟..
بل وما شأنها بأسيوط ؟..
سل الجنود البريطانية الأسترالية الهندية الزاحفة نحو أسيوط ...
سل « النيابة العمومية » الانجليزية القائمة فى أسيوط ...
سل « المحاكم العرفية » المنعقدة فى أسيوط ...
سل الضحايا واذرف الدمع على البلد الذليل المسكين ...

***

انطفأت نار الثورة فى عاصمة الصعيد ...
وابتدأت نار السلطة فى الاشتعال ...

***

اقرأوا الأوامر الآتية :

« يجب على كل مصرى كائنا من كان أن يؤدى التعظيم العسكرى لكل بذلة رسمية من بذلات جيش جلالة الملك البريطانى فى الطريق» !!!

« يجب على كل صاحب بيت تطلب السلطة العسكرية تفتيشه أن يفتح الأبواب فى الحال ! ! ! »

« يجب على من اتصل بعلمه أى تفصيل من تفصيلات الاضطرابات أن يقدم البيانات فى الحال ! ! ! »

سمعنا وأطعنا ...

ها نحن نؤدى التعظيم العسكرى اللازم لكل « بذلة رسمية » ولو كانت لسائق سيارة ، وأ لسائس حصان ...

ها نحن نفتح الأبواب لعساكر السلطة السكارى المترنحين ...

ثم ــ واحسرتاه ــ ها هى البلاغات تنهال كالمطر على المعسكر !..

وتربع « مكنوتن » مفتش الداخليـة على العرش وملك وحكم ... وسـطا « كرباجـه » على ظهور المهندسـين والمعلمين فى القهوات والمنتـديات العامة . وذل له الـكبار والصـغار والحـكام المصريون والمحكومون المصريون ...

وتسلى العساكر الانجليز بالرصاص يداعبون به أرواح المـارة من باب المزاح وتضييع الوقت ما دامت أرواح هـذه الخراف بغير ثمن ؟ !



فى وسط ذلك الرعب طأطأت الرءوس جميعا ما عدا رءوس ...

رءوس صغيرة لينة طرية تراصت تحت أعلام غير منكسة ، بل تحت أعلام مرفرفة فى الهواء متوثبة نحو السماء !..

يهدرون هدير البحر ويزأرون زئير الأسود .. منشدين :

« وطنى ! وطنى !.. »

وزحف الجيش الصغير الوثاب نحو دار أحد أساطين الزعماء ـ بسيونى « بك » ـ وحاصر القضاة والمحامين فى اجتماع عقد باسم « النصيحة والتهدئة ... »

واذا بالجيش الصغير ينتفض جيشا عرمرما بارز القلوب ، والأنياب ، والأظافر ، واذا به يصطف صفوفا منتظمة ، وينتظم فرقا ، وضـباطا ، وجنودا ، وحملة أعلام !..

وخطب القائد الصغير الأول ، فقال :

« جاءت أخبار الأعداء بأن جيشهم زاحف ! وأن رصاصهم «دم دم»؟ فأعددنا العدة للمعركة . وسلاحنا سلاحان معنويان : قلوب ، وايمان! »

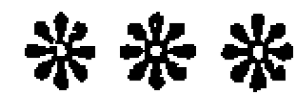
ثم نهض القائد الصغير الثانى ، فقال :

« قيل لنا أن « دم دم » هذا رصاص مسموم ينقل من الأولى الى الأخرى فى ثانيـة . فأعددنا له عشرة أعلام وعشر ضحايا . فاذا سقط حامل العلم الأول تقدم وريثه حامل العلم الثانى . وهكذا حتى تبيـد

فرقتنا وتسقط أعلام مصر على جثث فتيان مصر ! ! »

هنا قام أحد البــارزين فما كاد يفتح فمه بالقول اللين حتى أخـذته الصيحات من اليمين واليسار ومن الأمام والخلف وحتى امتلأت جوانب المنزل بالنشيد النارى ... نشيد الأستاذ « شكرى »

ووراء صفوف الفتيان انتظمت صفوف الفتيات وعلى رأسهن القـائدة « مريم » !



أولئك كانوا طلبة مدرسة الأمريكان . لم يشهد الأستاذ «شكرى» فى حياته أبلغ ألسنة ، ولا أعمر قلوبا ، ولا أعنف عزائم ، من ألسنتهم وقلوبهم وعزائمهم ..

وعبثا حاول الزعماء المجتمعون أن يخففوا من حدتهم ، وبادر الوشاة فبلغوا معسكر السلطة أن « الضحايا » الفتية قد باعت ــ سـلفا ــ للوطن الأرواح والأبدان . فخشيت السلطة تجدد الفتنة وألقت السلاح ، وفرغت فى « الفاضى » الرصاص المسموم ...

وأنقذ الطلبة الأعزاء أسيوط الكبيرة من نكبة دامية . ولله در طلبة الأمريكان . كانوا عنصر الثـورة الذى ضرب المثـل الأعلى فى معنى الثورة ومعنى الفداء ! !



أمطرت سماء الخسة والنذالة وابلا من البلاغات على ضباط السلطة القضائيين . وبدأت التحقيقات تسير بسرعة البرق . وصدرت أوامرالقبض كرصاص « المتراليوز » تصيب من فى طريقها بريئا كان أم غير برىء كبيرا كان أم غير كبير ...

تلك كانت تحقيقات تليها محاكمات وفيها « سين » و « جيم » وأخذ ورد . انما كانت بجانبها طلقات نارية يطلقها العساكر الانجليز على من

يتوسمون فى شكله ، وعدم انتظام تقاطيعه ، وقلة انسجام ملابسه ، انه مجرم .. مثل هؤلاء كانوا لايستحقون قبضا ولا تحقيقا ولا محاكمة .. علام ضياع الوقت وضياع الحبر ، وضياع الورق ؟ !..

الرصاصة السريعة هى المحققة وهى المحاكمة وهى المنفذة . والقبور موجودة فى الطريق ، وفى الزوايا ، وفى الأزقة .. ورحم الله من لم ترحمه السلطة العسكرية ؟ !..

من بين « الضحايا » المرحوم « كامل » مأمور البندر . أتدرى ماذا كانت تهمته ؟..

حينما فاجأه الثوار محاولين اقتحام الأبواب لاغتصاب السلاح اتصل بكبير الحكومة طالبا الأمر فقال له : تصرف !..

واتصل بالمستر « مكنوتن » الانجليزى ممثل السلطة العسكرية فقال له : تصرف !..

واتصل بقائد القوة العسكرية القليلة الموجودة اذ ذاك فقال له : تصرف !..

وتصرفت الضحية المسكينة بالشدة تارة ، وبالنصيحة تارة أخرى ، وبالخداع حينا ، وبالاغراء أحيانا . وكان وحده هو الكل فى الكل والباقون متحصنون اما فى المخابىء أو فى المغاور أو فى المستشفى ، وخفف تصرفه الحكيم من حدة الحوادث... ثم ذهبت الأيام فاذا به يحاكم على انه « تصرف » .. واذا به يتلقى حكم « الاعدام » واذا بجثته يحملها فى الفجر أعوان السلطة فيلقونها تحت أقدام عياله وأولاده ليبحثوا لها عن حفرة ؟..

الى رحمة الله أيها البرىء . لم يكن الاعدام لجريمة وانما كان القصد منه « الارهاب » وصادفته القرعة !..

وقبضت السلطة على عدد وافر من الزعماء والأساطين الذين كانت مهمتهم فى أسيوط هى النصح والارشاد وكبح جماح الثورة والثائرين ؟

لم ؟ ! ..

صعب عليك أن تفهم منطق السلطة العسكرية ...

قاعدة قضائية عندهم لا تقبل مناقشة ولا لجاجا : « ان من كان يملك النصح والارشاد ، كان يملك منع الثورة .. فهو مجرم » ! ! !

وامتلأت السجون .. ولا أريد أن أطيل عليك الحديث فهو لاينتهى ...

أهرب !...

« اهرب » !...

كلمة صغيرة فى ورقة صغيرة وجدها « شكرى » فى غرفته ... والخط كان خط « مريم » ...

« شكرى » كان يعلم تمام العلم أن السلطة العسكرية كانت اذ ذاك سلطة غاشمة . ويعلم انه ألف نشيدا ألقاه على آلاف المجتمعين فى الكنيسة يوم المعركة الأولى . وكان يعلم أنه من السهل جدا أن يقال عن نشيده النارى انه المحرض الأول للثورة . ويعلم أنه من الميسور جدا أن يكون الجزاء لهذا المنطق المتسلسل المنسجم انما هو : الاعدام ...

تراءى له هذا الموقف بكل ما فيه من خطر وبشاعة وروعة . فهل تدرى ماذا كان احساس فيلسوفنا الصغير الطائش نحو هذا الانذار ؟..

انه أخذ يقبل الورقة مثنى وثلاث ورباع ...

أليست من « مريم ؟ ؟.. أليست من شبيهة « ثروت » ؟..

أليست من الصغيرة الناشئة العاطفة ؟..

أليست تتضمن نوعا من العطف ومن الوفاء ؟ ثم من الخوف عليه..

لا لا ...

يجب أن يذهب توا للبحث عن « مريم » ليعرف منها التفاصيل

التى تهدد حياته ... كانت هذه هى الحجة الظاهرة المقبولة ...

أما الحجة الحقيقية فكانت : فرصة للقاء ...

هى : ألم تهرب بعد ؟

هو : وهل أستطيع ؟ !

هى : كيف ؟ .. بأية طريقة ! وفى الحال !..

هو : وبدون أن أراك ؟ !

سكتت « مريم » عندما أبدى « شكرى » هذا الاعتراض . ولكن الفتاة كانت جادة غير هازلة . وفاضت عواطفها وأخذت تقبل يده بشدة قائلة : اهرب ! اهرب ! انك فى خطر ...

قال : أين والدك ؟

قالت : ذهب ليبحث لنا عن وسيلة للسفر . سنغادر البلدة الكريهة فى الحال

قال : اذن حق على الهرب !

وتشجع فأخذ يدها اليمنى بين يديه . ولكنها لم تعطه الفرصة برجولة وكبرياء ...

قال : لعلى تجاوزت حد الأدب ...

قالت : بل تجاوزت حد الجنون . اسمع يا « شكرى » ليس الوقت وقت عاطفة انهم قد شرعوا يحققون فى نشيدك . ولى قريب يشتغل مع رجال التحقيق أبلغنى هذا فذهبت اليك ولم أجدك،وخوفا من ضياع الوقت تركت ورقة . وكلمة ... ثم اسمع ماذا فعلت بعد ذلك : بحثت عن « المطبعجى » وعرفت اسمه ومكانه . وقام معى فورا فأتلف المسودة التى بخطك وأتلف النسخ التى فى عهدته . ثم مررت على بيوت زميلاتى بقدر الاستطاعة فمزقنا النسخ الموزعة عليهن . ثم ذهبت الى المكتب فأخطرت « مصطفى أفندى » الوكيل بالموضوع . ثم أوصيت قريبى الذى يساعد المحققين بك وبشبابك خيرا ...

قالت هذا كله بحماسة ورعشة ، ثم جلست على كرسى وألقت برأسها بين يديه .. فاذا بهما مغمورتان بالدموع ! ! ! ..

ومرت لحظة ... ثم انحنى الفتى العاطفى يلثم شعرها بفمه

ثم همس فى أذنها قائلا : اتركى نشيدى . وتكلمى عن قلبك وعن قلبى

قالت بعد تردد وصمت : دع الحديث عنهما للمستقبل ...

قال : انك قبطية ؟

قالت : ماذا تعنى ؟

قال : اننى مسلم ...

قالت : لم أفهم شيئا ...

قال : هل يمكن أن نلتقى ؟

قالت : بعد أن يستتب السلام .. ولم لا ؟

قال : لم تفهمينى . هل يمكن أن نلتقى تحت ظل عقد مقدس !..

انتفضت الفتاة وقد تورد خداها فتجلى جمالها القبطى وامتزجت حمرة اللون بضعف الخفر .. فكانت سحرا وسحرا « حلالا » ...

وتمتمت قائلة : « شكرى » ...

قال : نعم يا « مريم » ...

قالت : النشيد !

قال : بل القلب !

قالت : أعد السؤال ...

قال : هل يمكن أن نلتقى تحت ظل عقد مقدس ؟

قالت : عندى الجواب .. ولكنى ...

قال : ماذا ..؟

قالت : خجول ...

قال : اذن لن أهرب ! ! !

قالت : أتوسل اليك ...

قال : حتى تجيبى ...

قالت : أتعدنى ان أنا أجبتك عن سؤالك أن تهرب فى الحال ؟..

قال : فى الحال ...

قالت : أعد السؤال ...

قال : هل يمكن أن نلتقى تحت ظل عقد مقدس ؟

قالت : نعم !..

قال : وكيف ؟ !

قالت : ... الدين هو القلب ...

قال : أتسمحين اذن بقبلة ؟..

قالت : هاكها ...

وقبلها الفتى قبلة الطهر .. قبلة جبانة خجولا مترددة نزقة لم تستغرق ربع ثانية !..

وانسحب مسلوب اللب وهو يقول : « الى اللقاء ! »

ـــ وهى تجيب : « الى اللقاء ! »

***

عندما يقرأ القراء كتابى قد تستفزهم بعض النتائج السريعة فى المواقف الغرامية والاجتماعية . هذا الوعد السريع بالزواج ، وهذا الاتصال القلبى السريع بالفتاة القبطية ، قد يكونان فى نظر بعض القراء مأخذا ومحلا للنقد !..

ليكن ...

لست أدون وقائع خيالية من رأسى . وأستمد تصويرها من خيالى . ولست أنقل لكم المثل الصحيح للتجارب الصحيحة . وانما أنا أنقل لكم بأمانة حقائق وحوادث مادية وقعت بالفعل كما قدمت .. فى المأساة

الأولى ... ليفهم القراء جيدا اننى لست بالمؤلف بالمعنى الذى يفهمونه . فان كان ثمة ملاحظات فمسئوليتها على ابطالى ...

واذا أنا راجعت صديقى « شكرى » وقلت له : كيف يتحول قلبك فى مدى أربعة شهور أو خمسة شهور الى فتاة حيـة . وقد دفنته بجوار فتاة ميتة ؟ !

قال وهو يتأوه : آه لو دخلت قلبى وفحصته ! انه ما نسى الميتة . ولن يجحد الحية . ان « الزواج » ياصديقى هو علاج المنكوب فى الحب . ان « الزواج » هو البعث وانه هو السلوى ...

ثم أنصفنى وخبرنى . من أحببت ؟ أليست هى التى رحلت بقـدها وجمـالها وروحهـا ؟ ثم ماذا أقول فى الخطر الذى جمعنى بهـا وعرفنى بشخصها ؟ ثم ماذا أقول فى عطفها وخوفها على .. وفى لوعتها على حياتى ؟ ثم ماذا أقول أخيرا فى قلبى ؟ تالله لو أقنعتنى بأنه جحد أو خان لسحقته ولكنى أسائله فى ظلام الليل وفى هذا الخطر فيقول : هى .. وهى ! ! !

وانى لقلبى مطيع ! ! !

تاجر الحمير ؟ !

« عثمان أفندى » ضـابط بالمدرسـة الثانوية . يسـاعد هو الآخر المحققين . ولكنه كان لايسـلو الخمر . فهو دائمـا أبدا مترنح . قابل « شكرى » فى المساء فمد « شكرى » يده لمصـافحته . فقبض عليها وهو يهتز سكرا وذعرا وقال : الوداع ؟ !

قال شكرى : من تودع ؟

قال : أودعك . لقد بدأوا يتحرون عنك وعن نشيدك ...

فى هذه اللحظة وفد أحد القضاة ممن يحتلون اليوم منصبا من أسمى مناصب الدولة القضائية فنصح « شكرى » بالفرار فورا الى سـاحل

سليم . وأبلغه أنه كلف من سعادة المدير بتبليغه هذا الانذار

قال شـكرى : ان الفرار دليـل الجرم . ثم بأى حق أنكب عائلـة « محمود باشا سليمان » بجريمتى ؟ لا ، سأبحث عن طريقة أخرى ...

وقام من فوره فبحث عن وكيل المكتب وصفى معه أوراقه وأشغاله . ثم علم أن زورقا بخاريا سيقوم فى الصباح الى « ديروط » يحمل فرقة من الجند تحت رياسة أحد الضباط الشبان ومعهم مرتبات المركز فقـال فى نفسه : ان الشباب يحن الى الشباب . فلأحاولن أن أندس فى الزورق البخارى مع العسـاكر ، حتى اذا ما وصلت الى « ديروط » تابعت رحلتى على الركائب أو العربات من مركز الى مركز ، ومن اقليم الى اقليم ، حتى أصل الى بنى سويف. وقيل أن شركة «كوك» تنقل الركاب من بنى سويف الى القاهرة .. حيث تنتهى رحلتى ، وتتحقق نجاتى ! ..

وفى الصباح المبكر نهض « شـكرى » متسلحا بالكتمان الى حيث يوجد الزورق البخارى والعساكر والضابط الشـاب . وشرع الزورق يتحرك فقفز فيه . ولكنه لم يشعر الا والضابط الشاب ينهال عليه بعصاه هو وعساكره ليحولوا دون نجاته !..

وضاع الأمل واضطرب برنامج الرحلة من أوله لآخره ...

وعاد بعد أن ودع النجاة ليستقبل الخطر ! ! !

وفى طريق العودة وسـط المزارع ارتمى على جـذع شـجرة يفكر فى شيئين : (١) مريم ... (٢) حياته ...

***

وكان التعب قد أخذ منه مأخذه . وشعر أنه فى حاجة شديدة الى النوم. ولكن كيف ينام قبل أن يطوف بدار الفتاة . واتجه نحو الدار فوجدها مقفرة . وعلم أن الأسرة القبطية رحلت الى مسقط رأسها

وعاد الى الفندق فوجد غرفته لم تحتل بعد . ووجد على المنضـدة ورقة صغيرة أخرى فيها هذه الكلمات : « سيصلك رسول وخطاب عند

وصولى بأخبارى . فدنى بأخبارك فان كنت قد سافرت فاكتب الى بعنوان والدى (. . . .) لأطمئن على سلامتك . لك عواطفى وعهدى » ...



وكان الموقف يستلزم عملا حاسما وسريعا ...

ولكنه لم يوفق للعمل الحاسم السريع فى اليوم التالى . بل شعر بوحشة لم يشعر بها طوال أيامه بأسيوط . فقد كان اخوانه الموظفون يتحاشونه ويتباعدون عنه . اذ قد سرى بينهم انه « محل تحقيق » ...

وفى المساء وفد عليه شاب أسمر اللون ، عصبى المزاج ينتفض خوفا . وتقدم الشاب فعرفه بنفسه بصوت خافت قائلا : انه قريب « مريم » ومساعد المحققين ... ثم ساءله بلهجة الخوف : ألم تدبر أمرك بعد ؟ !

قال : دبرت . وفشلت ...

قال : لايزال فى الوقت متسـع . ان أوراقك تحت يدى وسـأؤخر عرضها . ولكن لا تطمع فى أكثر من يومين أو ثلاثة أيام ... وانى أدلك على طريق . لقد عادت قطرات السكة الحديدية للمسير . ولكنها قطرات حربية فقط تحتاج الى « جواز سفر » ...

قال « شكرى » : ولكن من يمنح الجواز ؟

قال : السلطة العسكرية ...

فضحك « شكرى » وقال : اذن ألجأ الى الاتهام فى فرارى ! !

قال : انهم لم يعرفوا شخصيـتك بعد . وانما الكلام حول النشـيد وحول البحث عن مؤلفه .. فعندك فرصة !

قال له : شكرا . كيف الأسرة ؟ !

قال : رحلت . ولكنى سمعت أن فى البلدة حوادث حصلت أمس واليوم . وسأبلغك اياها ان تأخر فرارك ...

قال : بالله عليك لا تضن على بالتفاصيل . ثم ودعه شاكرا وانصرف الشاب ...

كانت حالة « شكرى » النفسانية سيئة للغاية : فى البلدة حوادث ! ! ولكن ما شأن « مريم » بها الا أن تذعر أو تخاف . وقد ذعرت وخافت فى أسيوط ... لابأس ! ان القطر كله حوادث ...

وتحرى « شكرى » فعلم حقيقة أن « القطارات الحربية » تسير. ولكنه علم أن « ويصا بك » من كبار الوجهاء والأغنياء طلب جوازا بصفته قنصل أمريكا فرفض الطلب ... وان الحصار تام وانه من المستحيل أن يظفر بتلك الأمنية !..

وأخرج « شكرى » أوراقه يفحصها ورقة ورقة ليعدم منها مايمكن أن يكون محل شبهة . فوجد بينها « تذكرة العضويه » بناديه القاهرى الذى تبارى مع نادى أسيوط . وخطرت له فكرة طارئة فقال فى نفسه : « الانجليز قوم « سبورت » يقدرون الرياضة والرياضيين . والرياضة لا دين لها ولا جنسية . وهى تخلق بين جميع الأجناس والملل نوعا من التضامن والتساند والتعاون. فلنجرب تذكرة العضوية والهبة الرياضية»!

وكان يعلم أن من بين مدرسى المدرسة الثانوية الانجليز مدرس يدعى المستر « سنودن »

وكان يعلم انه ارتبط مع بعض أقاربه فى القاهرة بعلاقات صداقة متينة. وكان يعلم أنه لعب أمامه فى المباراة التى حصلت بين نادى القاهرة ونادى أسيوط ...

وتشجع وذهب لزيارته وعرفه بنفسه وذكره بالمباراة ...

قال الانجليزى : كيف حال ابراهيم ، وحسين ، وكمال ..؟

قال : جميعا بخير ...

قال : ما قرابتك بهم ..؟

قال : أولاد أعمامى ...

قال : وما رأيك فى المباراة التى حصلت بيننا ؟

قال : لولاك يا مستر « سنودن » لغلبناكم « دستة » ...

واستغل « شكرى » غرور الرجل وكان مبتدئا فى « كرة القدم » ومن السهل اغراء المبتدئين

وكانت النتيجة انه ارتاح لمحادثته وتبسط معه ثم سأله : « ولكن كيف لم تعد مع ناديك ؟ »

فأبرز « شكرى » تذكرة العضوية وأطلعه عليها

ثم قال له : لهذا جئت لتساعدنى فى الحصول على جواز سفر فى القطار الحربى . تأخرت عن السفر لأن والدى انتهز فرصة سفرى لأسيوط فأعطانى سبعين جنيها لأشترى « حميرا » . فأسيوط مشهورة بنوع « الحمير » ووالدى مزارع ...

قال : ألم تشترك فى الاضطرابات ؟..

قال : وكيف ؟ اننى لا أعرف أحدا هنا . وقد سافر أعضاء «النادى» وبعد يومين اثنين قطعت المواصلات . وأنفقت المبلغ . ولم أوفق الى شراء « حمار واحد » ... وأريد الآن أن أعود !..

قال : تعال ...

وأخذه الى الضابط المختص ويسمى المستر « ترنك » وعرفه به . وفى الحال حرر له جواز السفر على الوجه الآتى :

« شكرى » ... « تاجر حمير »

« يصرح له بالسفر على القطار الحربى باكر »

« وجهته القاهرة »

***

والتقط « شكرى » الجواز شاكرا صديقه الانجليزى وعاد وهو يخفى السر على نفسه ...

تفتيش حتى الساعة الثانية صباحاً

وجوب جلاء الذكور عند التفتيش !...

فى المساء نادى المنادون بأن السلطة العسكرية ستفتش البيوت حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل !..

وان السلطة تأمر بأن لايكون موجودا عند التفتيش جنس«الذكور» ممن هم فوق الثانية عشرة ؟ !

وان الطرق ستراقب ويفتش المارة من الآن حتى الساعة المحددة ؟ !

ما الفكرة فى ابعاد الذكور ؟ !

روعت أسيوط كل الروع بهذا النبأ فهجرت الأسر المسلمة فى الحال منازلها وقضت الليل فى الجبانات على بعد كيلومترات ...

وهاجرت الأسر القبطية الى العراء على مسافات تتراوح بين خمسة عشر كيلومترا وعشرين

وانتشر الذعر وفقد الناس الادراك خوفا على « الأعراض » !

***

العرض ؟ !!! .. وما مناسبته ؟

قالوا ان الذئاب الوحشية العسكرية سطت على الأعراض فى نواحى الاقليم . وهذا هو سر الهلع وسر الرعب وسر الفرار ؟

ولكن « شكرى » كان مشغولا برحلته فى الصباح على القطار الحربى فلم يعبأ بهذه الحكاية

ونشر الليل ظلامه على « أسيوط » الباكية ، ودقت الساعة الواحدة فكانت شبه خالية من العائلات . ووجدت السلطة انه من العبث تنفيذ الأمر فعدلت فى اللحظات الأخيرة ...

ونام « شكرى » ليلته مضطرب النفس ، قلقا ، يستشعر نكبة ،

ولكنه لايحس الا أنها ستحل بشخصه

***

وأخفى الأمر عن أعز أصدقائه .. لا من ناحية عدم الثقة بالأصدقاء ولكن من ناحية عدم الثقة بشهوات الألسنة

وفى الساعة الخامسة صباحا نهض من فراشه وجمع حوائجه بنفسه الى القطار

وكان قد أرسل ورقة الى قريب « مريم » فى الليل يخبره بنجاحه وسفره فى هذا الميعاد

وأخذ مجلسه فى القطار فى الدرجة الثانية أو الثالثة لايدرى . ومر الضابط والجنود الانجليز يحدقون فى وجهه لأنه كان الغريب والمصرى الوحيد بين الركاب

وأبرز لهم الجواز أكثر من عشر مرات فكانوا يقرأون ويندهشون

وفتشوه مرات كثيرة فلم يجدوا معه بالطبيعة شيئا ...

وصفرت القاطرة ...

وبدأ القطار يتحرك ...

***

يا الهى ... ان القدر القاسى يتمخض عن شىء عنيف رهيب !

كان هذا شعور الفتى . وقد أحس ظلاما فى داخلية نفسه وهو يودع « أسيوط » المنكوبة

وتحرك القطار وسار متئدا فأطل من نافذة ليودع الذكريات الكريهة والمحبوبة

واذا به يرى رجلا يجرى بسرعة على محاذاة القطار وهو يلهث من التعب ولسانه لايفتأ ينادى : الأستاذ شكرى ... الأستاذ شكرى ...

ويمد يده فيأخذ من الرجل ظرفا مجللا بالسواد ...

الظرف بلا عنوان ... ممن يكون الخطاب ؟ ..
وهذا السواد ؟ ! .. وهذه المفاجأة ؟ !
من يعلم بسفرى فى هذه الساعة الا قريب « مريم » ؟ !
يا الهى ... هل ينعاها ؟ !
ويرتمى الفتى بعد هذه الخواطر السريعة وقد خارت قواه . ثم تنتابه اغماءة : لا هى باليقظة ولا هى بالخامدة ...
والقطار يسير ... والضباط تمر ذاهبة آيبة ...
وهو يفيق من المفاجأة ولا يملك أن يختلس فرصة لفض الخطاب ...
ولكنه يشعر أن فيه « نكبة » فيبكى لها سلفا وتحت الحساب ...

***

ويفض المسكين التعس الخطاب بيديه المتشنجتين فيجد الخط خط « مريم » دون أن يقرأ فيحمد الله
انها لم تمت ...
ربما كان الميت أباها أو أمها أو واحدا من ذوى قرباها ...
وينتعش قليلا ...
ثم يتشجع ويقرأ الكلمات الأولى فى الخطاب وهاكها :
« شكرى ... »
حسنا .. توجيه عادى فيه كلفة زائلة ...
ثم يقرأ الفقرة الثانية فتدوى فى القطار صرخة داوية كالتى دوت فى غرفة المكتب منذ شهور ...
ويسرع الجنود والضباط فيجدون الفتى نصف ميت فيتصدقون عليه بشىء من « الكلونيا » و «النشادر» ثم يعود اليهم برودهم الانجليزى فيتركونه وشأنه ...
« أعزيك فى ثروت الثانية !.. »

« لقد ماتت مريم !.. »

يا له من غبى . استيقظ يابنى . وثب الى رشدك. كيف تصدق وفاتها وهذا نعيها بخطها . كيف تنبئك الميتة بأنها ماتت ؟ !

يا لك من متسرع . اقرأ .. اقرأ ! ! !

ويعاود الفتى ادراكه ، ويطمئن نوعا ! ! ! ثم اذا بصرخة ثانية أقوى من الأولى . واذا به يهجم على الضابط وعلى الجنود ينشب فيهم أظافره ويعض أجسامهم بأسنانه . ثم اذا به يتجه فجأة نحو النـافذة يحاول القاء نفسه فى عالم الفناء ! ! !

ويقبضون عليه بأيديهم الفولاذية فيسقط بين أيديهم على الأرض فاقد الرشد مغميا عليه ...

***

ان بقية الخطاب كانت ما يأتى :

« ان ذئبا أستراليا افترسنى ... حاولت الانتحار وسأحاوله ... خطبتك مفسوخة ... الوداع يامسكين ... »

« ثروت الثانية »

« مريم . . . »

عليل . . .

فى حى شبرا شارع نسيت اسمه يتفرع من شارع « شيكولانى ».. المنزل نمرة ٤ فى هذا الشارع الذى نسيت اسمه منزل أنيق ...

وفى ذلك المنزل الأنيق ، وفى الدور الأرضى .. غرفة كسيرة الجنـاح أعدت « للعليل » القادم من أسيوط ...

يتلصص سكان المنزل حول باب الغرفة بحذر ووجل ولهفة وفضول ..

« شكرى » مريض ! .. مرضه : صفرة ، وهزال ، وشرود ...

الثمانون كيلو هبطت الى الستين ...

الدكتور « سليمان عزمى » يعود المريض صباحا ، ومساء ...

ويقول أصدقاء المريض الأطباء : انه « البرد الشـــديد » تارة ، أو « الشراب » تارة أخرى ، أو « الخوف » حينا ، أو « جو أسيوط » أحيانا .. طبهم جميعا خائب : « شكرى » ماشكا بردا ، ولا شرب شرابا ، ولا شعر بخوف ، ولا تأثر بجو ؟

مرضه فى « القلب » . ولكنه مرض لم تكشفه يد طبيب ، ولم تنبىء به « سماعة » . كان المرض « ثروت » الأولى ، و « ثروت » الثانية !!!



كانت حكاية الحب ومآسيه بعيدة كل البعد عن أذهان أفراد الأسرة...

والعشاق نوعان : نوع فياض . ونوع كتوم !..

وعند النوع الثانى العشق سر مقدس !.. وهؤلاء هم الذين يتعذبون..

وصديقنا كان من النوع الثانى...

وكانت وطأة المرض عليه عنيفة : كان يجب أن يستلقى على ظهره فى فراشه وأن يستريح ... وأن لايتناول الا اللبن فى الصباح ، والظهر ، والمساء . وكان يجب أن يدلك جسمه بالكلونيا بين حين وآخر. ثم كان يجب أن لايتكلم !.. وكان هذا كل ما يتمناه ...

وكان عذرا يختفى وراءه .. ويخفى سره المعروف للقراء ... ولكن كان لابد له أن يرسل تلغرافا . ولمن ؟ ! لوالد مريم ! ! يا للحرج ... ماذا يقول ؟ أخذ ذهنه المضعضع يفكر فلا يجود ... لــكن كان لابد له أن يفعل . ويالجرأة العشاق! أخذ ورقة وسطر بعد العنوان هذه الكلمات: « أطلب يد مريم . أريدها زوجة . أتوسل اليك . بلّغها وأنقذها . . أعتذر عن الحضور بمرضى الشديد »

« شكرى »

وكان لابد له من رسول جاهل لايقرأ ليرسل التلغراف . وخادم المنزل توافرت فيه الصفة .. فأعطاه التلغراف وزوده بالكتمان !

الأب والأم !...

فى ناد من أندية الرياضة .. فى مدينة من مدن الأقاليم .. سألتنى مسز « والتون » هذا السؤال : أيهما أفضل زوجى ، أم ابنى ؟

قلت : لم أفهم سيدتى جيدا . عفوك ؟

قالت : المشكلة بينى وبين زوجى هى مايأتى : أنا وهو مقيمان فى القطر المصرى . وابنى « دجلس » يتعلم فى الوطن ، فى انجلترا ... والولد فى حاجة الى الاشراف والى الرقابة والى الاعداد . وزوجى هنا محتاج لخدمتى ... لمن أكرس وظيفتى ؟

قلت : لزوجك سيدتى ! وبلا تردد !

قالت : و « دجلس » الصغير !..

قلت : سيكبر ويترعرع ويشتد ويكد ويكافح ويطمع ويطمح ويحب! وهو فى كل أدواره هذه لن يفكر فى « الأب والأم » الا تفكيرا ثانويا

أما مطامعه وميوله وكفاحه وحبه فستحتل المكانة الأولى ، والمنزل الاسمى !..

فى « الأبناء » عقوق طبيعى .. وهم ان أدوا للوالدين الواجب فيالبعد المسافة بين عواطفهم نحوكم وعواطفكم نحوهم ! زوجك أولى بعطفك وحبك ووفائك وولائك . وزوجك أبقى وأوفى . فكرسى وظيفتك للمسكين . ودعى الابن للزمن ...

هذا « شكرى » هل بكى لأبيه أو لأمه مثل ما قد بكى لثروت ولمريم ؟ هل فكر فى أبيه وفى أمه مثل ما قد فكر فى ثروت وفى مريم ؟ ! وهؤلاء الكبار العظام هل فكروا فى « الزوج العجوز » مثل ما قد فكروا فى مطامعهم ووظائفهم ومرتباتهم وسعادتهم ؟ !

الدنيا المادية لم تترك مجالا لعواطف الأبناء نحو الآباء الا بقدر. ولكنها لم تمس بحال نار الحب المشتعلة فى صدور الآباء للأبناء ...

وتسائل الأبناء الفلاسفة فى هـذا العقوق فيقولون لك بكل جرأة : لم يمن علينا الوالدان ؟ ! انها لحظة من لحظات اللذة والمتعة قضياها معـا فجئنا الى الدنيا رغم أنفهما وتحت ضغط البهيمية الحادة ، فهى عمليـة تفريخ ...

فاذا ما ذكرتهم بالعنـاء والتعب فى عهود الولادة والفطـام والمرض والتربية والاعداد ، أجابوك بكل جرأة : انه واجب ترتب عليهما وأثر من آثار الجريمة ...

فاذا ما لمحت لهم بالسـعادة التى يتمتعون بهـا فى الحيـاة وبالمركز والحيثية ، أجابوك بكل جرأة : أين هى السعادة ؟ ! ان الحيـاة مضنية منهكة فهى اساءة وليست احسانا ...

هذا العقوق الملموس المحسوس لم يغير من طبيعة الآباء نحو الأبنـاء فبقيت كما شاء لها الله ، بلسما للجراح ، ودواء وشفاء للأبناء المرضى ، والمنكويين والمجروحين ...

وهكذا يقطع الفتى منا أشواطه المختلفة فى الحيـاة فتتلقاه أحضان ، وتهجره أحضان ، وتنبـذه أحضـان ، فاذا ما صرعه الكر والفر واللف والدوران ارتمى فى النهاية بين أحضان الوالدين ...

وهى أحضـان لا تتعب ، ولا تخون ، ولا تنكب ، ولا تتنكر ، ولا تجحد ، ولا تتدلل ، بل هى تحت أمر الأبناء عندما يحل بهم الشقاء ..

هى الكهف ، وهى الملاذ ، وهى الدير ، وهى الوقاية ، وهى الشفاء !

هى معبد التكفير عن الخطايا ، وهى مورد التوبة ، ومصدر الغفران

***

وأذن الدكتور « سليمان عزمى » للمريض بعد شهرين أن يتريض . وأن يسير باقتصاد . وأن يتناول الليمونادة ، والتمر هندى ، والبرتقال وغيرها من السوائل ، فخرج من سجنه يتوكأ على عصاه ويجلس فى أقرب

فهوة يقـدم نفسه لأصـدقائه من جديد بعد أن تغيرت سحنته وبرزت عظامه وغارت عيناه ...

أما نزهتـه فكانت الى مكتب التلغراف . فهو لم يتلق ردا من والد مريم . فأخذ يرسل برقيات مختصرة قاصرة على السؤال عن الصحة ، تارة لأبيها وتارة لقريبها صاحب واقعة النشيد .. فلا يحظى برد ! ..

السيدة مريم

أشفق على القراء أن أروى لهم تفاصيل الافتراس . وتفاصيل النكبة. وحش من وحوش الغابات لا من وحوش الآدميين، مزهو بقوته وحيوانيته ورصاصه وحديده ، هاجم بفرقته بيوت أعيان البلدة المفجوعة فى الظلام بحجة التفتيش عن السلاح ، عثر على الفتـاة فى ركن من الأركان فأمر باعتقال الرجال وحجز باقى السكان فى غرفة . ثم اختلى بالفتاة فكانت هى ، وهو ، والشيطان ، وأخس ما فى هذه الدنيا من نذالة وعفونة وسقوط !..

ونشبت المعركة الحامية بين الذئب الضـارى والحمل الوديع ... وماذا تنتظر ؟

ان فى المرور بسرعة على تفاصيل الفاجعة بلاغة يخجل أمامها البيـان والاطناب ...

ولن يقوى قلمى العف على الوصـف وعلى الرواية . وأقر بعجزى وأفضل أن أسدل الستار ...

وخرجت الفريسة النبيلة المختلسة من النضال نصف ميتة . وقد شج رأسها وسال الدم على وجنتيها . وتركها الوحش الكاسر وقد فقدت حتى الأمل فى الأمل ...

وجاء الأب من المعتقل وزحفت الأم من الحجز وتجمع الأقارب والجيران

فلما تبينوا الأمر سقطوا صرعى أمام الفضيحة !..

والدم فى الصعيد يغلى ويفور بغير منطق وبغير تفكير . فقد زحف الرجال المنكوبون على المعسكر يحاولون الأخذ بالثأر فكانت فاجعة أخرى وكانت مذبحة ...

وعاد الأب كالمجنون يريد أن يثأر لعرضه . ولكنه لايظفر بالمجرم .. أين هو ؟ ومن هو ؟ وكيف السبيل اليه ؟..

اذن ليلطمن وجهه ، وليضربن برأسه الحائط ، ولكن كيف يشفى الغليل ؟ !..

يا للخواطر السوداء تنتاب فاقدى الرشد والمجانين . ان الرجل الثائر لعرضه يختطف سكينا ويشحذها شحذا ثم ينطلق كالسهم الى فلذة كبده. الى المظلومة .. الى الجثة العزيزة الغالية .. الى ابنته مريم ... ثم يرفع يده هاتفا : ارحمنى يارب . ثم يهوى بها للقضاء على الفتاة ...

وهو اذ يوشك أن يسفك دم ابنته بيديه . يشل القدر العادل هذه اليد الطائشة وليس بينها وبين الاحشاء الا ثانية ...

أما رسول العدل ورسول السماء فكان شابا قويا شهما ، قبض على الذراع بأسرع من لمح البصر وانتفض كالأسد يزأر ويذود ! ! !

قال الرجل : أنقذتها ...

قال الشاب : من أبيها ...

قال الرجل : وهل أنقذتها وأنقذت أباها من الفضيحة ؟ !

قال الشاب : سأفعل ...

قال الرجل : أترد العرض المنتهك ؟ !..

قال الشاب : سأفعل ! ! !

وهنا يرتمى الرجل من الخذلان واليأس يبكى كالثكلى . ويذرف الدمع السخين ...

وتتنبه الفتاة رويدا رويدا ثم تصرخ صرخة ما أشقاها وما أوجعها... ثم تتوالى الصرخات بأنغام الدهشة ، والأسى ، والوجيعة ، واليأس ، وحولها سيول الدموع !..

الجو كله وجوم .. ومن يستطيع أن يتكلم ؟ بأية لغة ؟ وبأى معنى ؟ .. ان المصاب يجل عن العزاء ...

الفتاة العظيمة التى كافحت كفاح الأبطال ، وأصيبت بالرضوض والجروح لا تخضع للنكبة ، بل تنتصب واقفة وتتمتم : ليس بى شىء . أريد أن أتقيأ . سأذهب الى المرحاض ...

وتذهب أو تزحف الى المرحاض مبتسمة ابتسامة صفراء نكراء وبقفزة لم تدركها القلوب المحيطة بها وبعصابها ... تصل الى المرحاض بسرعة البرق الخاطف ، فتقبض على زجاجة « حمض الفنيك » وترفعها الى الفم الأنيق وتوشك أن تتجرع ! ! !

ولكن الشاب القوى الشهم رسول العدل ورسول السماء شل يدها كما شل يد أبيها ...

وهوت الزجاجة على البلاط تتهشم وتسيل !..

ثم حملها بين ذراعيه الىغرفتها وأجرى لها بقوة الايمانالاسعاف بالرغم منها . ثم أرصد عليها وعلى أبيها الحرس وغاب لحظة ثم عاد ومعه قسيس ! ..



وفى وسط هذا المأتم يتقدم الشاب القوى الشهم رسول السماء الى أبيها طالبا يدها ...

يا للمفارقات ! ويا للمتناقضات ! ويا للمفاجآت !..

الشاب أستاذ مدرس يحمل أرقى الشهادات ويرتفع بنسبه وحسبه على أقرانه . فهو مطمع كل عروس . وأمل كل أب وأم ...

ولكن الأب يجيب الدعوة النبيلة بالرفض النبيل ...

ولكن الفتاة تستقبل هذه البشرى المنقذة باللطم وبالعويل ...

يا أرق وأرقى العواطف المتبادلة : علتك ان فى طريقك كرامة ! وفى طريقك تضحية !..

الشاب يضحى ...

والأب والفتاة تحت ضغط الكرامة يأبيان التضحية !..

ولكن هذا الشاب الجبار كان مستعدا لكل معضلة . ها هو يوجه للأب السؤال الحازم : أمُصِر أنت على الرفض ؟..

فيجيب الرجل : بدون تردد !..

فيقول الشاب : اذن وداعا ...

وتنطلق من مسدسه على رأسه رصاصة تخيب ولا تصيب !..

وينخدع الرجل بهذه المناورة المسبوكة فيقبض على يد الشاب ويهتف : قبلت ! قبلت !..

وينقلب المأتم الحزين عرسا حزينا ، ويتولى القسيس عقد الزواج ومريم مستسلمة !!! ...

وهكذا يبر الشاب بوعده فينقذ العائلة من الفضيحة ويرد العرض المنتهك ...

واجبي ! ...

الهزيل العليل خريج المرض يتوكأ على عصاه ويسير ببطء الى قهوة منعزلة فى حى شبرا وكله هواجس وأفكار ...

انقطعت صلة « شكرى » بالآنسة « مريم » وبأخبارها من يوم أن أرسلت له الخطاب الأسود . وكل ما يعلمه هو ما ورد فى ذلك الخطاب المشئوم : « أن وحشا أستراليا افترسها ــ وأنها حاولت الانتحار وستحاوله ــ وان خطبته مفسوخة » ...

لم يتردد الشاب الأصيل فى أن يحول قدر ما يستطيع دون محاولة الانتحار . ولم يتردد فى اختيار الموقف النبيل . فأرسل تلغرافه الى والدها يطلب الزواج من المنكوبة فى أعز ما تملك ويتوسل الى الوالد فى انقاذ الفتاة . ولكنه لم يتلق ردا ...

وكانت فى الواقع مجازفة صبيانية من « شكرى » . فان خطبة تعرض بالتلغراف لهى خطبة عجيبة ! ثم ماذا يعلم عنه والد « مريم » ؟ ماذا يعلم عنه ، وعن كفاءته ، أو ديانته ، أو حيثيته ، أو أسرته ؟ ! لاشىء ...

ولكن ماذا كان يستطيع أن يفعل المريض طريح الفراش الواهى القوى . ماذا كان يستطيع أن يفعل للحيلولة دون نكبة الانتحار ولتحديد موقفه ازاء الفاجعة ؟ !

لاشىء الا ما فعل ...

ها هو اليوم قد استرد شيئا من عافيته . وأصبح كفؤا نوعا ما للسير ... وللبحث ... وللتحرى !..

ولكن التلغرافات المتوالية التى لم يتلق ردا عنها ماذا كان مصيرها ؟ وماذا كان شأنها ؟ وهل كان اهمال الرد لنكبة وكارثة ؟ أم لاحتقار وازدراء ؟ أم لمجرد الاهمال ؟

أخذ يفكر ويفكر حتى كشف الغبى فجأة انه فى منتهى الغباء !..

كان امضاؤه الكريم على التلغرافات « شكرى » ؟ !

ومن هو « شكرى » هذا من بين سكان القاهرة . وما هو لقبه وعنوانه ؟ !

اذن « مريم » معذورة ووالدها معذور . واذن فعل التلغراف الأول فعله بما فيه من انذار بعدم الانتحار . وبما فيه من نبل وتضحية بطلب الزواج ...

فلم يبق عليه الا أن يذهب ...

ورد التلغراف على والد « مريم » بعد عقد الزواج بأيام . فلم يفهم منه شيئا ...

انه لايعرف « شكرى » هذا ولا يذكره . هل يعرض البرقية العجيبة على زوج ابنته ؟ لا !.. انها سخافة وحماقة . ففيها وحولها ما يمس كرامة الزوج الشهم وما قد يمس كرامة الفتاة ...

اذن « مريم » وحدها التى تعرف السر ...

ويذهب الوالد بتلغرافه الى الفتاة ــ وهى لا تزال تئن من الجروح والرضوض ومن تأثير الحوادث المفاجئة ــ فيقرأه عليها فتنتفض مضطربة وتصدر زفرة حارة تعقبها دموع ...

ــ ماذا يا ابنتى ؟

ــ لاشىء ياوالدى . ان فى الدنيا أخلاقا !..

ــ من مرسل التلغراف ؟

ــ منقذى فى أسيوط !..

يذهل الوالد هنيهة ويعاود ذاكرته . ثم كأنه يلحظ ما انتاب كريمته من ذكريات أليمة . ثم كأنه يدرك أنه لايدرك شيئا فيفر من التفاصيل فرارا ويسألها :

ــ أنرد عليه بالشكر وبأنك قد تزوجت ؟ !

فتبتسم الفتاة ابتسامة صفراء منكرة . وتغطى وجهها بيديها الهزيلتين وتستغرق فى التفكير وقد تجلى أمام عينيها الموقف المدهش العجيب : كارثة ــ وزواج ــ وخطبة بعد الزواج ــ ونبل من الزوج ــ ونبل من الخطيب الغريب ؟ !

ويحدق الوالد فى التلغراف ثم يصيح فجأة : من هو شكرى هذا ؟ انه بلا لقب وبلا عنوان . فماذا نفعل ؟ !

قالت الفتاة : لاشىء ياوالدى . لننتظر ولنفكر ...

وهل تدرى فيم كانت تفكر « مريم » ؟
فى الانتحار وفى الانتحار دائما ...
انها بين نيران ثلاث :

نار الكارثة ــ ونار الزوج الشهم ــ ونارالمحب الوفى ! ! ! وكيف توفق بين هذه الأوضاع المتباينة . ان شخصيتها هى الأساس . فاذا انعدمت هذه الشخصية استراحت وأراحت ...

ولكنها تريد الانتحار كاملا لا شروعا فى انتحار . وهى لا تملك الوسائل وهى على السرير . فلتصبر حتى تملك من قواها . وحتى تستطيع أن تختار أسهل وأسرع وسائل الهلاك ...

ان الصغيرة الواهنة المهدمة ضعفت عن أن تقاوم جيوش الهم والغم والذكريات والمواقف الفذة المتناقضة ، فاشتد عليها المرض وحمدت الله على اشتداده راجية أن يكون فى « الموت الطبيعى » خلاص من « الموت الصناعى » وخلاص من كل ما فات ...

واجتمع الأطباء وتشاوروا وتداولوا فقرروا نقلها فى الحال الى المستشفى فى أسيوط ...

وحملها الأب المسكين ، والزوج الشهم الى مدينة الذكريات الأولى ... الى مدينة الأحلام والآمال ...

رحلة ...

« شكرى » يستأذن والديه فى الغياب يومين أو بضعة أيام عن القاهرة ... هما يسألانه عن السبب فيقول : انها « رحلة » ...
رحلة لترويح الخاطر واستنشاق الهواء الطلق بعد المرض ...
فى محله .. ولكن أين ؟

والجواب ليس من الصعوبة بمكان . انه يستطيع أن يلفق أكذوبة

محبوكة يتخلص بها من التحقيق .. وقد فعل ...

و « الشنطة » الصغيرة الحجم التى اختارها أيدت دعواه . وقد وضع فيها بعض الحاجات الضرورية لفسحة قصيرة . وسنتعرض حتما لهذه الحاجات الضرورية فى الحين المناسب . اذ كانت بينها « حاجة » تلفت النظر وجدت مدسوسة دسا بين البيجامة وفرشة الشعر ومشط الشعر ومصحف صغير فيه كلام الله ...

***

وهو يطلب عربة ويساوم الحوذى على الأجرة بحساب الساعة . اذن له جولة فى القاهرة لايعلمها الا الله .. وهو !

ويقبل والديه واخوته وأخته الصغيرة . ولكن ما باله يضطرب نوعا ما ؟ !

لاشىء ... انها الرحلة القصيرة . والرحلة القصيرة بعد المرض الطويل

***

ويسير الحوذى مسافة أمتار ثم ينحرف الى اليمين فى شارع شيكولانى ثم الى اليسار فى شارع شبرا ثم يستمر ويستمر طويلا حتى يصل الى ميدان « الأوبرا » ثم ينحرف الى اليسار حتى يقف أمام محل «يلدز» الحلوانى ...

« يلدز » ؟ !

هل يذكر القراء أن هذا الاسم مر عليهم وهم يقرأون هذه القصة ؟ أين ؟ وفى أى موضع ؟

نعم ...

فى السنة الماضية ، سنة ١٩١٨ ، فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، فى ساعة القيلولة أو قبل الغروب ...

عندما كان يحمل من ذلك المحل هدية متواضعة لصديقة النهار .. للمرحومة « ثروت » !

وها هو يشترى بعض الفطائر بغير ترو وبغير تدقيق لا فى الصنف ولا فى الثمن . والعـامل « الرومى » مذهول يقترح فيجاب اقتراحه . حتى تتم عملية الشراء والدفع . فيحمل الحمل الخفيف الثقيل الى العربة ويأمر الحوذى بالذهاب الى بائع زهور فى شارع المغربى فينتقى الزهور الحزينة الباكية ... ثم يأمر الحوذى بالذهاب الى سوق الخضار بميـدان العتبة الخضراء فيشترى فاكهة الموسم بجميع أنواعها ... حتى اذا تمت له كل هذه الصفقات وجلس فى العربة سبح فى بحر الخيال ...

ويلمح الحوذى ذلك الشرود فينبه الزبون بهذا السؤال :

— الى أين ياسيدى ؟ !

فيجيب : الى جبل المقطم ...

***

هذا قبر القتيلة !..

وهذا القاتل !..

موقف من أتعس المواقف البشرية ... والزيارة هى الأخرى فى القيلولة وقبل الغروب ... وتفد الذكريات تزاحم الذكريات ثم تنتهى الى المصرع !

ويقف « شـكرى » جامدا ثم يرتمى فجأة على القبر واهى القوى ، مضعضع الحواس حتى يأتى حارس القبور فيعنى به ويقدم له الماء ... ويظل فتانا شاردا ذاهلا ثم يصيح : « رحماك ثروت » ...

ثم يتطلع مستنجدا بحارس القبـور ويشـير الى زهوره ، وفاكهته ، وفطائره ... فيتولاها ناثرا الأولى على القبر ، وموزعا الثانية والثالثة على الفقهاء الذين أقبلوا مسرعين كأنهم على ميعاد !..

ويرتلون ويقرأون ويدعون ويترحمون ...

ثم يشير اليهم الحـارس بالانصراف وينسحب على مقربة من القبر ، ويترك القبر ومن فيه لزائر القبر !..

يطيل الكتاب القصصيون فى أمثال هــذه المواقف .. كفاءة لا أملكها أو هى صنعة لا أحذقها ، ولا أفهمها أيضا ، وأنا قانع بأن أوجد قرائى حيث يوجد أبطالى . ثم لايحتمل الموقف بعد هذا اطنابا ولا تفصيــلا . شاركوا المؤلف فى تصويره ولا تكلفوه عنــاء فى ابرازه جملا وكلمات وصيــاغة . هى حالة نفسانية أحســها كما تحسونها أنتم . أليست شجنا وحزنا ودموعا ، وأنات وحسرات ، وأسى ؟ !

ثم فى الموقف شيء من الوفاء . وفاء المحبين الأحياء للمحبين الأموات!

رحمة الله على ساكنى القبور ...

انهم لايطالبون الأحياء الا بالذكرى ...

وها هو « شكرى » يذكر « ثروت الأولى » . قبل أن يرحل الى ثروت الثانية ...

بل نعيش . . . ! ! !

طالت زيارة القبر ... ما العمل ؟

أيعود الى المنزل وقد ودع من فيه ؟

أم يسافر فى قطار الليل فيصل فى نصف الليــل الى البلدة الصـغيرة فيكون محل ريبة وموطن شبهة ؟

لا .. ليقض الليلة فى فندق ، على أن يأخذ قطار الصباح ...

ويبيت فى فندق حتى اذا ما أصبح الصبــاح نهض يعيد نظرة على « الحاجات » التى فى « شنطته » ...

كل ما فيها مألوف يعنى بوضعه كل مسافر فى رحلة قصيرة .. ما عدا زجاجة صغيرة فيها مسحوق أبيض ؟ !

هذه هى « الحاجة » التى قلنا عنها أنها تلفت النظر . والتى قلنا عنها أنها وجدت مدسوسة بين البيجامة وفرشة الشعر ومشــط الشعر

ومصحف صغير فيه كلام الله ...

ان هذه الزجاجة الصغيرة ذات المسحوق الأبيض كانت محل عنايته وحرصه . والمسحوق الأبيض كمية صغيرة . فما هو ؟

لعله « شبكة » الخطبة . أو هدية العاشق للمعشوقة ؟

سنكشف أمرها بعد حين ...

***

ـ (. . .) من فضلك

ويقطع « التذكرجى » التذكرة الى (. . .)

وينزوى « شكرى » فى ركن من الأركان يحدق فى المصحف الصغير ويتلو كلام الله

ويصفر القطار .. ثم يسير ...

***

السفر طويل . بماذا يقطع « شكرى » الوقت ؟

لقد تلا كثيرا من كلام الله

فليفكر فيما هو ذاهب اليه . وفيما عساه أن يسمع ويشهد :

« لئن وجدتها فارقت الحياة منتحرة . فعندى الرد السريع ! »

« ولئن وجدتها على قيد الحياة فسأطلب يدها . وهى لن ترفض . بقى أبوها وبقيت مشكلة الاختلاف فى الدين ... »

« والقلب هو الدين . هكذا قالت هى ! فهل يقول أبوها مثل ما قالت ؟ ! »

« أستبعد ! واذن ما العمل ؟ هل تفر معى ؟ نذالة وخسة وجريمة ليست فى عرفنا ولا فى عرف التقاليد ... »

« اذا وجدتها قد نسيت عهدها وعهدى فماذا أفعل ؟ ! لاشىء ... أنسحب مقهورا وأعود بعد أن أكون قد سجلت وفائى وواجبى !.. »

« على الفروض الثلاثة : انى لتعس !.. »

ويغزوه النعاس ولكنه لايكتحل نوما .. فان أفكاره ، وحركة القطار ، وجلبـــة المحطات ، وعدم توافر الراحة ، وثرثرة الركاب ، كانت كفيلة باقلاقه من حين الى حين ...

وهو فى كل انتباهة يقلب المسألة على وجوهها فلا ينتهـى الا الى الفروض الثلاثة فيقول : انى لتعس ...

***

يا عجبا !..

أتدرى ــ وقد وصل بعد طول السفر وطول التفكير ــ ماذا خطر بباله؟

أن لا ينزل وأن يعود !..

خاطر التردد هذا لايرد عليه الا بعد أن يتجلى له ميدان الموقعة ...

ولكنه ينزل أخيرا ... وهو يرتعد من هول ما قد يسمع !

ويحوطه ويحوط « الشنطة » التى بيده الشيالون ، فيســأل أحدهم باضطراب ووجل وتوسل :

ــ هل تعرف منزل « فلان أفندى » ؟..

فيجيب الشيال : فلان أفندى ؟ !

فيقول « شكرى » : نعم أبو « مريم » !..

فيجيب الشيال : آه ... مريم . ولدى ! ربنا يشفى ...

ويطمئن الفتى ويحمد الله . انها لم تمت !..

ويقفز أمام الشيال من شدة الفرح فيوقفه هذا وينبئه بأنها فىالمستشفى بأسيوط ...

وهنا يصفر القطار مؤذنا باستئناف المسير . فيختطف شنطته فى الحــال ويرمى الى الشيال قطعة فضية ويستأنف السفر ...

الى أسيوط !..

كان يجب على « شكرى » أن يتنكر . وأن يبالغ فى التنكر ... انه

معروف فى أسيوط : فى الدوائر القضائية وفى دوائر الأسر الكريمة ...

وكان لايعنيه أن المحاكمات دائرة . وان نشيده كان محل تحقيق . بقدر ما كان يعنيه أن لايمس مركز « مريم » وأسرة « مريم » بسوء ...

انه كان يجهل كل شيء . والظهور قد يجر الى مشاكل . فالحكمة تقضى بأن يتوارى قدر الاستطاعة حتى يؤدى مهمته ...

وقد وصل فى النهار . ولئن كان المرض الطويل قد غير ملامحه فقد كان من الممكن أن يعرف وأن يكتشف ...

لم تكن له الا وجهة واحدة : المستشفى ...

وله فى المستشفى طبيب وصديق .. اختار أن يجعله موطن السر ، ووسيلة الوصول الى المريضة ...

أخفى وجهه بقدر الاستطاعة وركب عربة الى مسكن هذا الصديق وكان يسكن وحده هو وخادمه . فلما وصل طرق الباب فوجد كل شيء لم يتغير . وشاء الحظ الحسن ان الخادم لم يعرفه ولم يذكره فسأله عن سيده فقال : انه يستريح فى غرفة النوم ...

وجلس فى غرفة الاستقبال . ولم تمض دقائق حتى حضر الصديق الطبيب . شاب من سنه ومن وسطه . وزميل من زملاء المدارس الثانوية الأعزاء ...

وهذا أيضا لم يعرفه الا بعد محادثة قصيرة

ــ شكرى !..

ــ أنا هو ...

ــ كيف ؟ لقد تغيرت كثيرا .. انك مريض

ــ نعم ! ومهدم

ــ دعنا من المجاملات ، لم جئت الى أسيوط وحكاية نشيدك لاتزال حية ؟

ــ للضرورة أحكام . وأنا فى حاجة قصوى اليك ...

وجلس الصديقان أحدهما مأخوذ بالمفاجأة مشفق . والثانى متحفز يود أن ينهى مهمته ...

ــ انت فى حاجة الى الراحة بعد السفر .. والى الطعام

ــ أما الطعام فليست لى به حاجة . تناولته فى القطار . وأما الراحة فأشعر حقيقة اننى محتاج اليها يادكتور

ــ اذن تفضل

ويذهب به الى غرفة نومه فيقول له « شكرى » :

ــ متى تذهب الى المستشفى ؟ !

ــ عندى « نوباتشية » الليل . من الساعة السابعة مساء . وسأبيت هناك ...

ــ هل عندكم فتاة ؟ !

ــ كثيرات ...

ــ فتاة اسمها « مريم » !

ــ آه ...! المسكينة

ــ أهى فى خطر ؟

ــ زال الخطر الجسمانى . وبقى الخطر النفسانى ...

وحينئذ يهتز « شكرى » هزة جدية . ويسائل صديقه بلهجة حازمة عن ثقة فيه وفى أخلاقه ورجولته .. فيؤمن هذا وقد تأثر من لهجة الكلام وأسلوب التعبير ...

ــ أنا محام وأنت طبيب . وكلانا موطن للسر وللكتمان . أيضيرك أو يضير واجبك أن تجمعنى بها منفردين فى أية فترة من فترات الليل أو النهار ؟..

ــ لا .. انى أثق بك تمام الثقة . ومن السهل أن تراها وحدك بعد الساعة السابعة وسنذهب معا ...

ـ أشكرك . انك تعاون فى أمر مقدس ياصديقى . وأمهلنى أخبرك بالتفاصيل بعد المقابلة ...

***

ويقترح الطبيب الشاب على « شـــكرى » أن يبقى فى المنزل حتى يحين الميعاد . ويستطيع أن يقطع الوقت فى القراءة وفى الاستراحة حتى يعود اليه . ثم يرتدى ملابسه ويخرج ...

وفى الساعة السادسة يصلح « شكرى » من شأنه قليلا . ويصـــل صديقه الطبيب وقد استرد طبيعته المرحة فيمازح « شكرى » ولكن هذا يجاريه بتكلف . فيقول له : انك متعب يا « شكرى » وليست هـــذه عادتك . أمغرم بالفتاة أنت ؟

فيجيب : ستعرف كل التفاصيل فلا تتعجل !..

ويصلان الى المستشفى ويدخلان غرفة الطبيب الخاصـــة وقد شـــمل المستشفى سكون يناسب الموقف المقبل ...

***

ويدق الطبيب دقة رقيقة على باب غرفة المريضة ثم يدخل :

ـ كيف حالك الآن ؟

ـ أحسن ...

ـ ان حرارتك عادية منذ أيام . وقد التأمت كل الجروح . وسنأمر بالافراج عنك بعد قليل ...

ـ أشكرك ...

هنا يلتفت الدكتور الى الممرضة فيصرفها بحجة لا تثير شكا ...

ـ فى غرفتى زائر غريب يريد أن يراك ...

ـ زائر غريب ؟ !

ـ نعم شاب من سنى . يقول انه يعرفك كل المعرفة . وهو صديقى . وهو مريض . فهل تقبلين زيارته . وهل تعديننى بأن تحسنى استقباله ؟

وهنا تنتفض الفتاة وتجلس بحركة عصبية سريعة قائلة :

ــ هو ؟ !..

ويلاحظ الدكتور هذا التطور المفاجىء فيزداد دهشة من هذه الألغاز. ثم يلاحظ من ناحية أخرى أن الفتاة مضطربة مرتبكة فيخشى المسئولية ويجمد فى موقفه ...

ــ أنا لا أفهم شيئا ولا أعلم شيئا . ظننت اننى أقدم خدمة . فان لم يرق لك استقباله فلن يحضر !..

الفتاة لا ترد ...

والدموع المتساقطة لا تنبىء عن رفض أو عن قبول ...

وتهذى الفتاة فتقول : لا .. لا ! لا أقابله ...

ثم تقبض على يد الدكتور وتقول : لا .. لا ! بل يحضر ...

ثم تعود فتتوسل اليه أن ينتظر لحظة حتى تفكر وتبت ...

ويطول أمد الانتظار ثم تلقى الفتاة برأسها على الوسادة وقد ضعفت واستسلمت . وبصوت خافت تأذن بدخول الزائر الغريب ...

***

ويتسلل « شــكرى » الى الغرفة تسلل اللص الشريف ذى العاطفــة ويوصد الباب ...

يتقدم خطوة ويتقهقر خطوة وهو لايكاد يحفظ توازنه ..

الفتاة تخفى وجهها وعينيها بيديها ...

هو يلقى بنفسه على كرسى بجوار الفراش ...

وتمر لحظة سكوت وارتباك ...

وتخرج كلمة مكتومة ضعيفة متقطعة مهتزة هى : مريم ...

ويرد الصدى : شكرى ...

نعم : هما مريم وشكرى قد تقابلا أخيرا وتهاتفا بالاسمين. ثم ماذا ؟ ! من يشرع منهما فى الحديث قبل الآخر ؟..

ان مهمة الفتى أهون من مهمة الفتاة : عنده الأمل . وعنده الحب . وعنده النبل . وعنده الواجب . وعنده الوفاء !..

أما هى فماذا عندها ؟ !

عندها اليأس . وعندها الكارثة . وعندها المفـاجأة التى تهد رواسى الجبال ، والتى تسحق قلوب ذوى الحب وذوى الوفاء !..

ويتشجع الفتى الذى يجهل ما حدث ويطاوع قلبه فيحنو على صديقته يحاول أن يقبلها فى جبهتها فتحول بين شفتيه وبين الجبهة بشجاعة المرضى وذوى السقام ...

هى محقة : انها ليست له ولن تكون له .. هى اما لزوجها ، واما للقبر.. ولا ثالث !..

والمسكين لايدرى . يظن أن الكارثة التى حلت بها ألقت فى روعها أن ترفض حبه وقلبه . فيعاود الكرة وتعاود هى الكرة ...

ويأبى القدر الا أن يحسم الموقف فى هـذه اللحظة . فيدق البـاب وتدخل ممرضة فيتقهقر « شكرى » بكرسيه خطوتين ...

وتقول الممرضة : ان « زوجك » ياسـيدتى يستفهم عن حالتك الآن بالتليفون ...

فيصرخ « شكرى » هاتفا : زوجك ؟ !

فتنسحب الممرضة ويخيم السكون ...

***

ان المريضة الكريمة فهمت واجبها بسرعة البرق بعد هذه المفاجأة . انها رغم هزالها وضعفها تقفز من سريرها الى حيث يجلس الزائر الغريب ...

وأين هو ؟

انه موجود . ولكنه غائب ! ! !

هيكل من الهياكل البشرية بقى حيث وضعوه . لايتحرك ولا يتنفس ولا ينظر ولا يسمع . أو هو تمثال من التماثيل غير الناجحة لايرمز الى جمال أو فن أو معنى ، وانما هو قطعة من الجماد فى شكل انسان !..

والفتاة ؟

أتستغيث ؟ أتطلب النجدة ؟ لا .. انها تلجأ الى الكلونيا فتدلك بها وجهه ويديه بحنو وعطف وشفقه وكرم ...

ثم تناديه من أعماق النفس المعذبة : شكرى !

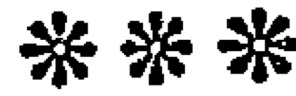
ويجيب « شكرى » النداء فجأة . ثم يتماسك ويقف مجاهدا ثم يتقهقر خطوتين . وترتسم عليه أمارات الخجل القاسي والارتياع اللاذع والاحتشام الموجع . ثم ينبس بهذه الكلمات :

ـــ أعتذر ياسيدتى .. اغفرى لى جرأتى . لم أكن أعلم ...

ثم يخفى وجهه بين يديه ويتقهقر نحو الباب ...

ولكن « مريم » لا تتردد . وبالصوت القديم الخالى من الكلفة والمفعم بالعاطفة تأمره أن يبقى وأن يجلس ...

هو يتردد ... ولكنها تكرر الأمر بلهجة أحزم فيستسلم



ان الصدمة كانت قاسية على « شكرى » . لم يستطع أن يتكلف فى أول الأمر وأن يتصنع . اتضح له الموقف بغتة وبسرعة فقلب خطته رأسا على عقب. ولكنه ألهم موقف الاعتذار والاحتشام فجاء ملابسا للاكتشاف مناسبا للطارىء المفاجىء متسقا مع الواجب ...

وبدأ يشعر أنه غريب ...

ثم بدأ يشعر انه يرتكب جريمة أدبية ببقائه فى هذه الغرفة

ثم بدا له ان الموقف حرج . وأن الوضع غير طبيعى . وأن المركز دقيق

و « مريم » النبيهة الذكية تلاحقه فى خواطره هذه فتقطع فترة الارتباك قائلة :

ـــ هون عليك . نستطيع أن نتكلم طويلا ...

ثم تروى له الحوادث التى مرت . أما نكبتها فتمر عليهـا مرا سريعا بحركات عصبية سريعة ويساعدها « شكرى » بملامحه الحزينة وتوسـلاته الرقيقة بأن تنتقل من موضوع الكارثة مخففا لوعتها وألمها الدفين بعبارات

المواساة البليغة خاتما جهده بقوله : هى ارادة القضاء والقدر وأنت مؤمنة فاخضعى !..

وتنتقل مريم الى موضوع الزواج ومنـاظره السينمائية السريعة ولا تضن على الزوج الشهم رسول السماء بتقرير الواقع فيتأثر « شكرى » كل التأثر من رجولة غريمه ونبله وبطولته ، فيمد يده الى الفتاة ويصافحها وقد استعاد رجولته هو أيضا ويقول :

« أهنئـك من صميم قلبى . ان زوجك لرجل . وأؤكد لك يا مريم اننى شعرت الآن بشىء من سعادة النفس وراحة الضمير ... »

قالت وقد أتمت ما بقى من أخبارها وأخبار مرضها : « انك لمخطىء . ان الشاب تحت تأثير الحادث الفاجع ثارت عواطفه فأقدم على عمل من أعمال الخيـال . وعلى مجازفة من مجازفات الروايات . وعلى ضرب من ضروب البطولة التى تقرؤها فى أساطير الأولين . لم يخترنى كما يختار العريس عروسه . وانما كان الأمر أمر دقائق ... وانه لمغبون !.. »

ويحاول « شكرى » أن يعترض وأن يحتج وأن يناقش . فتنظر اليه نظرة حادة قاسية وتقول : « اسكت! اسكت! لا تغالط أيها التعس.. أنت أيضا ... جئت الى وأنت مريض منهوك القوى مضعضع الحواس لماذا ؟ ماذا بقى لى من صفات العذارى .. واحسرتاه ؟.. ماذا فىّ من جاذبيات الفتيات وقد دمغت الدمغة التاريخية الخالدة ... لا .. لا ! لا تغالط ... جئت أنت أيضا لتؤدى الواجب . لأنك شاب نبيل ... مصابكما ــ أنت وهو ــ انكما على خلق . أنتما تعطفان وتحسنان على منكودة .. »

وتبكى الفتاة بكاء مرا فلا يملك « شكرى » الا أن يقبل يدها ويبكى هو أيضا ...

ــ أقسم يا مريم أنك مخطئـة .. اطردى تلك الهواجس واعلمى أنك ضحية من ضحايا الثورة ، وفريسة من فرائس الأمة المظلومة . هيا .. هيا انهضى ، فحولك تقديس .. وحولك قلوب ...

قالت وقد قبضت على يده بشدة وقسوة وضغط : « اسمع ! لن أكون

له . ولن أكون لك . سيحظى بى القبر فهو عريسى وزوجى . فهيا انصرف فى الحال وترحم علىّ !.. »

وتلمع عينا شكرى لمعانا غريبا !..

ان هذا التصريح الخطير لم يهزه ولم يفعل فعل الصواعق على الرءوس انه صمد وثبت . وبكل رزانة واتزان وتؤدة قال : أحسنت ! نعمت النهاية ...

أخذت الفتاة بمظهره الهادىء . وراعها الرد الذى لم تكن تتوقعه ...

ـ أمتهكم ؟ ! أم تظننى طفلة ؟ !

قال : « لا ياصديقتى . لايتهكم الناس فى مثل هده الحالات المظلمة الحزينة . أنا جاد لا هازل !.. »

والفتاة بالرغم من أن قرارها الجهنمى يصادف القبول تزداد دهشة ... ثم تزداد جزعا . ان « شكرى » لا تنم هيئته ، ولا لهجته ، ولا جملته ، عن استخفاف أو استنكار ...

ونظر فى الساعة فوجدها الثامنة الا ربعا ...

قال : أخشى أن أكون السبب فى تأخير عشائك ...

قالت : ليكن !..

قال : هل اخترت السلاح ؟ !

قالت : أى سلاح ؟

قال : سلاح الموت ...

قالت : سأختار أسرعها وأحدها وأقساها ...

قال : عندى أمنيتك . كنت أعددتها لنفسى وحدى اذا كنت نجحت فى محاولاتك وسبقتنى الى هنـــاك ... أما الآن فيا لتصـــاريف القـــدر نستطيع أن نسافر معا ! ! !

ويخرج من جيبه « الحاجة » التى وجدت مدسوسة دسا بين البيجامة وفرشة الشعر ومشط الشعر ومصحف صغير فيه كلام الله ...

وجحظت عينا الفتـاة وتحفزت وتوثبت كالنمرة الثـائرة وصاحت : شكرى ! ما هذا ؟ !

قال بثبات وتؤدة : هـذا « استركنين » . سيد السموم وسهم المنية وعزرائيل العقاقير . يتناوله الكفار أمثالنا والجاحدون أمثالنا والجبنـاء أمثالنا وأعداء الله أمثالنا فيرتعشون ويتقلصون ثم يموتون !..

وتهجم الفتاة على الفتى وقد روعها لمعان فى العينين أقوى من سابقه وأنفذ . فيردها بذراعه الحديدية ثم يقذف بغطاء الزجاجة ويدنيها من فمه قائلا :

ــ الرجال أولا سيدتى . وسأبقى لك نصيبك . التى بكوب من الماء ..

واذ يدنى الزجاجة ذات المسحوق الى فمه تلطمه الفتاة لطمة جبـارة تطير الزجاجة من يده فينتثر المسحوق الشرير على الأرض . ثم تركع الفتاة وتبكى وتتوسل وتقبل قدميه مترنمة بأرق وأروع وأرحم ما عرف عالم الأصوات :

شكرى ... شكرى ... لا نموت ... بل نعيش ! ! !

اذكرينى !

ابتسم « شكرى » ابتسامة الظافر . وأخذ بيد الفتاة الى فراشـها برفق وحنان ثم نظر الى ساعته وساوره القلق اذ أخذ من وقتها أكثر مما يأخذه الزائر العادى . كذلك خطر له أنه أحرج صديقه الدكتور أكثر مما يجب . وخطر له أن هذه الزيارة الطويلة قد تثير لغطا فى المستشفى وان كان على ثقة من أن صديقه قد دبر الأمور كما يجب أن تدبر ...

قال : والآن يا صديقتى أو يا شقيقتى . قررت « أن نعيش » أليس كذلك ؟ ! ..

قالت : نعم ، من الظلم أن تموت أنت ... وسأعيش لتعيش !

قال : حسنا . أشكرك اذ أنقذتنى لوالدى ولمستقبلى ولشـبابى .

ويالك من طفلة ؟ بل يالى من طفل أنا أيضا ؟ لايأس مع الحياة يامريم ستعيشين وسيمحو المستقبل الزاهر ذكريات الماضى الأسود والحاضر المعتم . ستكونين نعم الزوجة ثم تصبحين أما ... وأولادك سوف يطردون بوجوههم البريئة ، وضحكاتهم الموسيقية ، وألفاظهم الأخاذة ، أشباح الحوادث ، وسيشغلك الزمن والواجب عن كل شيء الا عن أمومتك ...

قالت : ليفعل القدر ما يشاء .. أنا بنت القدر !..

قال : نحن جميعا أبناء القدر ...

قالت : بقى شيء ؟..

قال : ما هو ؟..

قالت : ما بينى وبينك ...

قال : كان ما بينى وبينك طهرا وسيظل الى الخلود طهرا . كان مابينى وبينك أوفى وأقدس وأعف ما بين فتاة وفتى . وسيبقى الى الأبد محتفظا بقدسيته ، متحليا بكرامته ، حيا بذكرياته ، منتعشا بعذريته !.. هو الحب « البلاتونى » يا مريم . حب الخيال والسماء والأحلام . حب الملائكة . حب النقاء والبقاء !..

« أتحزرين ما سوف يحدث ؟ يستحيل هذا الهوى العذرى الى صداقة بالزمن . صداقة حلوة خفاقة فأتنسم عن بعد أخبارك وتتنسمين عن بعد أخبارى . ادعو لك وتدعين لى بالسعادة كلما انبثق نور الفجر ، أو ودع قرص الشمس نهار الجلبة والضوضاء والكفاح ، أو أرخى الليل سدوله على مخلوقات الله الذين يلجؤون الى مخادعهم ومخابئهم فى حراسة القضاء والقدر !..

« ثم لابد أن نلتقى .. وأفضل أن يكون اللقاء بعيدا ، بعد أن يخف وقع الصدمة ، وتبرد نار اللوعة ، وتخمد شعلة اللذعة ... حينذاك — ولا أدرى متى وأين — نذكر معا عهد الشباب ، وحلاوة الشباب ، وأحداث الشباب !..

نعم : نعيش يا مريم ونعيش . والله كفيل بأن يشفيك ويشفينى من الفاجعة ! ! !

***

ويسكت « شكرى » منتظرا الرد فيجده دموعا هادئة تتهادى على الوجنتين وتتلاحق بكبرياء وجلال ...

قالت : أدنت لحظة الوداع ؟ !

قال : بل أوشكت أن تنتهى ...

قالت : أعطنى قلما ...

فيخرج من جيبه قلما « أمريكانيا » وتمد هى يدها الى الوسادة فتخرج من تحتها صورة لمريم الطالبة فى مدرسة الأمريكان . ثم بيدها المرتعشة تخط على الصورة هذه الكلمات :

« الى خيالى النبيل ... »

« مريم »

ويأتى دوره فى الاهداء فلا يجد شيئا . ثم فجأة يصطدم بزجاجة « الاستركنين » الفارغة فيلتقطها من الأرض ويقدمها لمريم قائلا :

ـ هذه هديتى أنا . احتفظى بها فقد كان سمها هو الترياق . وكان موتها هو الحياة !..

***

ويتناول الفتى يد الفتاة فيقبلها بخشوع وحرارة ، وتشترك دموعه المتساقطة فى الوداع فتترك أثرا على الجلد الرقيق ...

ويأتى دور الفتاة فلا تملك الا أن تضع قبلتها مكان قبلته على يدها . ولا تملك الا أن تمزج دموعها بدموعه على الجلد الرقيق

ـ الوداع يا مريم !..

ـ الوداع يا شكرى ...

وتتبع وقع أقدامه خطوة خطوة حتى اذا ما ابتلعه المستقبل المجهول دخلت الى الغرفة ممرضة تحمل ورقة صغيرة فيها كلمة ...

أما الورقة فمنه واليها ...

وأما الكلمة فكانت :

« أذكريني ... »

استشفاء !

لا أدرى تماما هل تتفق أمزجة المفجوعين فى الحب .. المقهورين فى عالم العواطف . اليائسين من تحقق الآمال الغرامية ... لا أدرى هل تتفق أمزجتهم فى اختيار الملجأ والمنفى والملاذ بعد النكبة .. أم لكل مزاج ، ولكل رأى ؟..

أنا من الناس الذين يغمرون أنفسهم غمرا فى بحر الواجب والعمل عند الفشل فى الحب . فاذا ماحل آخر الأسبوع واستقبلت يوم الراحة وانقطعت صلتى بالعمل والواجب تحركت فى نفسى الذكريات واشتعلت فى قلبى النار واستولى على الألم ...

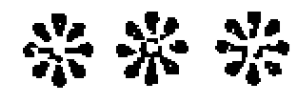
ونقرأ فى الروايات وفى الأخبار العالمية العاطفية أن كثيرات وكثيرين من فرائس القلوب الخفاقة يسافرون ويستسلمون للوحدة وللعزلة اذ يجدون فى ذلك السلوان ...

ونقرأ أن كثيرات يلجأن للدير ويقطعن صلتهن بالدنيا الخلابة وبالأنوار وبمسارح الفرح والحبور ...

ونعرف أن كثيرين من هذا الصنف المنكوب يجدون العلاج فى الضجيج وفى العجيج وفى الجلبة والضوضاء وفى المجتمعات المنعشة والسهرات التى لايديرها العقل وانما يتولاها الهوس ...

الواقع أن الأمزجة تختلف وان الاستعدادات تتباين ...

و « شكرى » بعد عودته الثانية من « أسيوط » يفكر ويفكر .وأخيرا يقع اختياره بعد طول التفكير على « الريف » ...



هذا « محمود » العربجى ينتظر سيده « شكرى » على المحطة الريفية الصغيرة ذات الذكريات بالعربة القروية التى أنهكها الكر والفر وأضناها الذهاب والاياب فى استقبال الزائرين وتوصيل المسافرين ... العربة التى ظلت زمنا طويلا رمز الكرم والجود ، والتى حملت فيما مضى زرافات ووحدانا من الأدباء والكبراء والوزراء والحكام أيام كانت الدنيا دنيا الكرم والجود . والوفاء والصفاء . وحسن الحال وصفاء البال ...

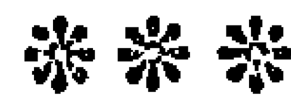
ولمح « شكرى » أن الخيل تتعثر وتتخبط من الهزال والضعف والجوع فقال : ما هذا يا أسطى محمود ؟

جرت من العربجى المسكين دمعة وقال فى صوت مخنوق : من عهد ان سكنتم مصر ياسيدى وكل شىء هنا جائع وعطشان ...

قال شكرى : حتى الزرع يا محمود ؟..

قال : حتى الرجال والنساء والأطفال ...

وانحرفت العربة تحاول أن تتخطى المزلقان المرتفع عن السكة الزراعية فتعثرت الخيل وتخبطت وتقهقرت العربة تكاد تهوى براكبها فى الترعة فضرب « شكرى » كفا على كف قائلا : واحسرتاه !..



هذه طلائع الريف المهجور . الريف الذى كان زاهيا زاهرا موسرا مملوءا بالروح وبالحياة مفعما بالخيرات والبركات ؟ الريف مصدر المجد ومورد الرزق ومنبع النعيم المقيم ؟ الريف دعامة الثروة ومنبت المجد العتيق ، والصديق الوفى والرفيق الذى لا يغدر ولا يخون ؟ الريف الفاضل عدو الرذيلة وكفيل الجمال والكمال ؟ هذا هو الريف قد خيم عليه الغيم المعتم وانتشرت فوق أرجائه الكآبة التى تسحق القلوب !..

ووصلت العربة الى القرية . وواحسرتاه مرة أخرى ! هذه هى التلال قد زادت تلالا . وهذه هى البرك تضاعفت بركا . وهؤلاء هم الأطفال العراة كما نزلوا من بطون أمهاتهم لايرتدون شيئا لأن « هدمتهم » الوحيدة ... الوحيدة صيفا وشتاء فى « الغسيل ! !.. »

ويظل الطفل بجسمه العارى العليل طول النهار حتى تغسل « الهدمة » وتنشف فيرتديها على اللحم !.. يرتديها على اللحم بعد أن تكون قد فعلت الأهوية والرياح والغفار والميكروبات فعلها فى صدره وبطنه وسيقانه ؟ !..

ويصل « شكرى » الى بيت الأسرة الحافل بالذكريات فتفد اليه وفود الرجال والنساء من القرية . أما الرجال فلينتظروا قليلا فى « السلاملك » وليشربوا القهوة حتى ينتهى من استقبال الزائرات ...

المتطوعون ! !

هذه « أم رجب » التى عرفها ضحوكا ثرثارة حاضرة البديهة سريعة النكتة زاخرة بالأمثال ما بالها قد تغيرت وهرمت وتجللت بالسواد ؟ ! لك العزاء يامسكينة ... ابنها الوحيد قد غيبته صحارى فلسطين فكان ضحية من ضحايا السلطة ! ! !

وهذه « أم الخير » مثلها .. وانما فقدت اثنين !!

وهذه « أم نعمة » مثلها .. وانما فقدت ثلاثة ! !

حسنا ، حسنا : يا ولايا ياثكالى لاتبتئسن ولا تحزن ففى سبيل الوطن ذهبت فلذات الأكباد ! !..

فى سبيل الوطن ؟ !..

نعم ! ولم لا ؟ ! هكذا قال أقطابنا وزعماؤنا وساستنا والا فكيف رضيت ضمائرهم المصرية . وكيف قبلت قلوبهم الوطنية . وكيف سمحت عقولهم الشرقية . أن تسوق ذلك الجيش العرمرم من العراة الحفاة كقطيع

الغنم ضـد الأتراك ومع الانجليز الى الحدود والى ما بعد الحدود حيث ضحوا المهج فى وهج الشمس وظلام الليل وفى الأغوار والأنجاد والهضاب والجبال ؟ !

فى سـبيل الوطن لاشك ! ؟ فلمـا نال الوطن النصر وتقهقر العدو وفرضت الشروط على من خسر الحرب قاسية حامية قاصمة قاضية : قبض الوطن الثمن ونال الجزاء ! !..

قبض الثمن ذلا على ذل . وعارا على عار . واسـتعبادا على استعباد . وفقرا على فقر !..

وبقى فى البلد الاحتلال .. رمزا خالدا للاستقلال !..

الفلاح !

ـ وأنت يا «سليمة» كيف حال ابنك «طلب» ؟ اليوم يوم الأربعاء . هل أحضرت له شيئا من السوق ؟

قالت « سليمة » وقد سرتها هذه المداعبة انها أحضرت له حلاوة حمصية و « حتتين قته » ...

قال : « ألم تحضرى له لحمة ؟ »

قالت : « لحمة ؟ ! بنجيبها سوق وسوق لأ !.. »

وأمن الفلاحات الزائرات على كلامها . يأكل الفلاحون اللحم فى الشهر مرتين . واللحم فى عرفهم شيء من العظام و « الشغت». يشترونه بأرخص الأثمان من لحم الجاموس أو البقر أو الماعز الذى تدركه وتنقذه السكين من آلام الاحتضار ... وقد يخدعهم الجزارون الغلاظ القلوب والأكباد فيبيعونهم اللحم من « الفطيس » . اللحم الفاسد الذى يحمل الى جوفهم الأمراض والأوبئة ... أما طعامهم بقية أيام الشهر فالعيش الذرة الجاف مع قليل من الملح . وقليل من البصل . وقليل من الفجل والجرجير والمش .

وقليل من الخضــار المطبوخ لا بالسمن ولا بالزبد ولا بالزيت وانما ... بالماء ! ! !

وثروة الفلاح فى الريف أولاد وماشية. أما الأولاد فسائل «الشمس» : هل استطاعت يوما أن تنفذ بأشــعتها الى داخل الدور المبنيــة من الطين والطوب « النيىء » والتى أبى فن مهندسيها ومقاوليها أن يجعل فى جدرانها منافذ لدخول الشعاع الربانى المطهر ؟ وسائل « الهواء » : هل كان أوسع من الشمس حيلة فاستطاع أن يتسلل ولو كاللص الى هذه القلاع الحقيرة المحصنة ؟

ثم سل سكان هــذه الدور : هل يفصل بينهم وبين البهــائم وروث البهائم فاصل ؟

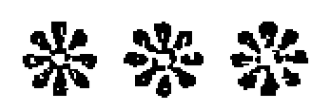
هل تمتاز الزريبة عن « الحضير » والمصطبة والقاعة والدهليز ، أم الكل سواء فى الأثاث وفى الرياش ؟ !

ثم سائل الانكلستوما والبلهارســيا وغيرهما وغيرهما : ماذا فعلت فى الفلاح وابن الفلاح وبنت الفلاح ؟

سل العزب والكفور : أين ذهب الرجال والفتيان وما الذى حصدهم حصدا حتى أقفرت الدور الا من الأرامل والثكالى ؟ !

أما « الماشــية » فحدثينى يا أم نعمة : أين ذهب جمــل عم « حسن أبو متولى » وثيرانه وبقره وجاموسه وحماره الحصاوى وماعزه وخرافه .. وأين ذهب جمل عم « سليمان القطاوى » وثوره وبقره وجاموسه وحماره الحصاوى وماعزه وخرافه ... وأين ذهبت ماشية عم «ابراهيم أبو رمضان» وعم « حسين زقندح » وغيرهم وغيرهم من أعيان المزارعين خبراء الغيط وأقطاب الزرع فى القرية ؟ !..

ــ راح الخير ياسيدى ...



ذهب الخير وولى ، وأقفرت مخازن الذرة والقمح فى بيوت الفلاحين البسطاء .. فاذا ما بحثت عن السبب وجدته هو السبب دائما . هاجــر

الأسياد الى العواصم وأجروا الضياع لفلاحيهم . وهؤلاء فقراء لايملكون ثمن السماد وثمن التقاوى وأجرة الرى وغيرها وغيرها من النفقات والتكاليف . وتأخروا بسبب العجز المالى عن السداد فتراكم الدين للسيد على المسود . والسيد فى القاهرة أو فى البندر يريد نقودا تسد نفقات تفرنجه وأناقته ورفاهية المدنية .. فهو لايرحم لأنه هو أيضا محتاج. والغيظ يتحمل فى هذه الحالة اهمال الفلاح وجشع المالك ... والفلاح تحت ضغط السداد يبيع ما يملك من ماشية . فاذا ما تجرد عنها تجرد عن سلاحه ففشل كرجل خبير فى الزراعة فنان ...

هذه هى الناحية المادية التى كانت نتيجة حتمية من نتائج التطور الريفى : أن ينقلب الزارع بيده من عامل الى مستأجر

أما الناحية المادية فأدهى وأمر وأنكى . شعر الفلاح بنوع من الكبرياء والغرور اذ أصبح جديرا بالتعاقد مع سيده بعد أن كان رجلا من رجاله يأتمر بأمره وينتهى بنهيه . وهذا النوع من التحرر والرقى رفع نوعا مستوى معيشته فلم يدم الارتفاع طويلا .. فهوى !

هوى الأعيان وهوى الفلاحون ونضب معين الخير وضاقت الأرزاق . وجاءت الحركة السياسية فكان لها ضلع من سنة ١٩١٩ حتى كتابة هذه السطور ...



شغلت السياسة ولاة الأمور بالتتابع منذلك التاريخ حتى هذا التاريخ. فخدم ولاة الأمور « الحزبية » أكثر مما خدموا الأمة من الناحية الزراعية والاقتصادية . فاختل التوازن بين الايراد والمنصرف . وأصبحت دعوى أن « مصر غنية » أكذوبة من الأكاذيب الفاضحة ومغالطة من المغالطات الذائعة !

اذن صدقت « أم نعمة » اذ قالت :

« راح الخير ياسيدى ... »

وارتفع القطن فى سنة ١٩١٩ فوصل سعر القنطار الى أربعين جنيها وأكثر من أربعين ...

ثم جاءت سنة ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٢ وما بعدها وبدأ سعر القطن يهبط ويهبط ويهبط . ثم يهبط ويهبط الى مستوى الفقر المدقع المتجسم فى الأشباح التى أمامه : وجوه صفر عليلة ، خلق بالية ، عظام تكاد تكسو اللحم ولا يكسوها اللحم ... اذن ماذا استفاد الفلاحون البائسون من ارتفاع الأسعار ذلك الارتفاع الجنونى الخيالى الغريب ؟ !

لاشىء ...

الفلاح الصغير دائما هو الفلاح الصغير . سنة اليسر وسنة العسر عنده سيان . وغريبة هذه المشاهدة فى بلادنا المسكينة . والفلاح المصرى هو فلاح العالم الوحيد الذى لا يتأثر بالأزمة ولا يتأثر بالنعمة . وعندما أقول الفلاح أرجو أن يفهم قرائى أننى أقصد تلك الطبقة الحافية العارية المريضة التى حافظت فى ماضيها وحاضرها على تقاليدها القديمة وهى الجلد والصبر والعمل فكانت دائما مصدر الرزق .. ولكن بلا مقابل ! ..



وخرج « شكرى » الى السلاملك فقابل الرجال . وأخذ يستمع الى شكاواهم المرة ونكباتهم الأليمة التى مرت بهم فى عهد شراء الجمال والحمير والبغال والذرة والشعير وفى عهد سوق الأولاد للعمل فىفلسطين

ثم أخذ يستمع الى شكاواهم المرة ونكباتهم الأليمة بعد « الثورة » فى عهد التحقيقات والأحكام وعهد التشفى والانتقام !..

ثم أخذ يستمع الى شكاواهم المرة ونكباتهم الأليمة الخاصة بالأرزاق والأقوات

ثم أخذ يستمع الى ذكريات عهد البر والوفاء بين السادة وبين المسودين

ثم خلص الى نتيجة اشتراكية بحتة ، وهى أن هذا الصنف من الآدميين صنف مجحود يقاسى شر أنواع نكران الجميل !..

وأخذ يستشفى فتانا فى الريف فلم يطق البقاء طويلا وانما أخذ يعالج جروح قلبه بالحياة الهادئة. وبالوسط الجاهل الساذج. وبالخضرة المنبسطة. وبالنوم المبكر وبحياة الخمول والذكريات ...

ثم عاد الى القاهرة ليحيا حياة جديدة : حياة المحاماة من جديد وحياة السياسة . وليته لم يحيها ...

وبجانب هاتين الحياتين انتحر ــ أو قل صمم على الانتحار ــ فى حياة الحب والغرام ...

اضحك يضحك لك العالم !...

فعل الريف فعله فى نفس « شكرى » وفى نفسيته ...

وفعلت المأساة الأولى والثانية فعل الريف ...

وخلع المحامى الناشىء المنظار الأسود عن عينيه . وصمم أن يعيش فيلسوفا وفيلسوفا مرحا طروبا مستهترا بالحياة مطبقا المثل العالمى المشهور:

« اضحك يضحك لك العالم ! »

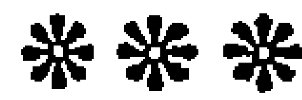
وها هو قد عاد الى القاهرة . وبرز فى نواديها وأحزابها وقهواتها ، وسهراتها ومجتمعاتها . فكان واسطة العقد . و « سنترال » الحظ والأنس والمجون الطيب البرىء ...

ولكنه فى مجونه ومباذله وهذره وهذيانه كان يبدو كالمجنون المتكلف المتطبع . كان يكافح فى داخلية نفسه آلامه . ويعارك ذكرياته الحزينة ويناضل لطماته السابقة . ويحاول أن يشفى جروحه الدامية ...

وظهر على جمهور القراء المصريين بمقال تحت هذا العنوان : « اضحك يضحك لك العالم » . فأوصى أهله وأصدقاءه بأنه اذا مات فعليهم أن يجللوا نعشه بالزهور البيضاء والحمراء ــ وأن يلبسوا الملابس الزاهية الألوان ــ وأن يرقصوا ويمرحوا ويطربوا ويشربوا على صحته فى ليلة المأتم الأولى !..

صدق الشاب وصدقت نظرته الى الحياة . انى اذ أدون وقائع حاله الآن ــ أى فى سنة ١٩٣٢ ــ أستعرض فى ذاكرتى عزيزاتى وأعزائى الذين ذهبوا ... وأفذاذ العالم الذين هووا الى الحضيض فى أوج عزتهم وسؤددهم ومجدهم ... وكيف خلق القدر خاملين فجعل منهم نابهين وكيف غدر بالنابهين فجعلهم خاملين ... انى اذ أذكر ذلك وأستعرضه أجد ألا قاعدة فى هذه الدنيا . وان من واجب المفكر الرزين أن يكون « قدريا » على طول الخط . عدوا للمطامع والأمال . يكافح ولكن بلا شجن ولا ألم. ويسعى ولكن بلا عذاب : يكد ويقدح زناد الفكر ولا يكل ولا يمل ولكن تحت شرط : أن ينام فى الليل ملء جفونه وأن لايقول : آه ...

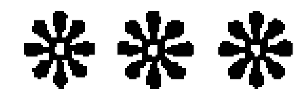
تلك الفتاة التى كانت تتربع على عروش جميع القلوب . وكانت حديث الشبان فى السهرات . وكانت مطمع عشرات من الخطاب . فجأة تسعل سعالا خفيفا . ثم تشحب . ثم تذوب . ثم تنتهى ... ماتت بالصدر وبالعلة الخبيثة . لم اختطفها القدر ولم يرحم شبابها وجمالها وكمالها ؟ ولم يرحم عواطف الذين اشتروا هناءهم من الدنيا بها . ولم يرحم اجماع الناس على حبها ؟ لم تموت ؟ ! لا أدرى ... وانما شاء القدر . فأبكوا وأذرفوا الدمع السخين باستخفاء !..



وذلك الشاب المتألق فى نوادى القاهرة الصاعد بسرعة البرق الى العلاء . المحمود الخصال والخلال . المدير لادارة حكومية كانت مثالا فى الدقة والاحكام والنظام ، يفكر فى الزواج ويختار خطيبته من أكرم البيوت وأجمل الفتيات .. ويمرح بها وبسيارته فى المساء الجميل يتبادلان أرق العواطف ويدبران حديقة المستقبل الغناء . هذا الشاب يمتلىء بيته المعد « للدخلة » بعد ثلاثة أيام بأثاث العروس الفاخر وقد ازدحم باخوانه وأقاربه يتفرجون ويهنئون حتى اذا انصرفوا ذهب الى القهوة وطلب فنجانا . ثم ارتفق بذراعه ووضع أنامله على جبهته يفكر فى تنميق غرفة الاستقبال، واعداد الحمام ، وتهيئة غرفة الطعام، ثم يسرح فى خيال الأحلام .

ويأتى « الجرســون » بفنجان القهوة ويداعبه فلا يرد ... ويحركه فلا يتحرك ... ويضع يده على قلبه فيجده قد مات ! ! !

وهــذا الشاب الذى نشأ فى وسط تجارى . فلما هيأت له كفاءته أن يتولى المنصب الذى يساير نبوغه ويتمشى وجدارته نثر نشــاطه الحكيم المتئد ذات اليمين وذات الشمال ، فأثمر وأنتج واكتسح وأباد وزحف الى المشروعات الوطنية الاقتصادية زحف الجيش الجرار الكامل العدة القوى السلاح . حتى اذا دوى اسمه دويه ، وطار فى الوطن كل مطار . ألهب فجأة رأسه برصاص المسدس فسقط جثة هامدة بين ذراعى زوجته وعلى مرأى من طفليه بغير سبب معقول ؟ !



وهذا .. وهذا .. وذاك .. والصرعى فى الطريق . وفى القطار. وعلى مكاتب الدواوين . وفى القهوات والنوادى .. من هؤلاء ؟

هؤلاء هم ضحايا القدر بغير سابق انذار . اذن لا تساوى الدنيا شيئا . فعلام الهم والغم والحزن والشجن . وعلام الآهات والأنات والحسرات . وعلام الأرق فى الليل والكدر فى النهار ؟.. اذن الى الوراء يا مشاغل الدنيا والى الوراء يا مطامع ويا مظاهر . ويا آمال ويا أمنيات . وأهلا بك ياقدر. ان « شكرى » يســتقبلك مستسلما ويؤسس فلســفته الجــديدة على قاعدة : « اضحك يضحك لك العالم ! »

مشاريع الزواج !...

يلاحظ الأبوان الكريمان على ولدهما الثالث أنه يتخبــط . فمن حزن قاتل ، الى داء عضال ، الى ضحكات جنونية ، الى مرح مفاجىء ، الى انغمار فى السياسة على غير هدى وعلى غير أساس ...

ثم ها هو يندفع فى تيار التحرير السياسى المتطرف الملتهب المشــتعل نارا ... وها هى رسالاته تظهر فى أكبر الجرائد اليومية الصباحية بأسلوب

فاز بحسن الحظ وبالحظوى ووقع من النفوس موقع الهوى والسلوى .. وامتزجت فيه الفكاهة بالجد . والسكر بالحنظل . ويظهر أن سر نجاح ذلك النوع من الأساليب الكتابية يرجع الى أن النفوس كانت ولا تزال مفعمة بآلام الحياة وبأكدارها ورزاياها ، فهى جد تواقة الى القراءة المرفهة المعزية المواسية ، المرسلة ارسالا لا اتقان فيه ولاصنعة ، مادامت تخضع لوحى الطبيعة والسليقة لا وحى التكلف والتعمل . وداعب الكاتب فيمن داعب جنس النساء والفتيات !

ولاحظت « الأم » اليقظة أن فتاها يفتح على شبابه فتحا جديدا وأنه أوشك أن يندفع فى تيار الاغراء فصاحت : الزواج ! الزواج !



وقعت الصيحة من نفسه موقعا حسنا فصاح هو أيضا : الزواج الزواج !

واشتغل قلم المباحث والتحريات وكانت للأم اقتراحات . وللعمات اقتراحات . وللخالة اقتراحات . وللأخت اقتراحات . وكم كانت الأذواق متنافرة . والآراء متباينة حتى سئم الخلاف فقال لهن : استرحن واتركننى أختار ...

الخطيبة نمرة « ١ »

تلميذة على وشك التخرج لا تزيد سنها على ستة عشر عاما . عرفها فى ليلة ساهرة بمنزل أسرتها . وكانت سهرة مختلطة اجتمع فيها رجال ونساء

ولفت نظره أنها كانت لا تلتفت الا اليه . ولا تعنى الا به . ولعله كان أصغر الموجودين وكانت هى أصغر الموجودات . والسن تجذب اليها السن ولو مع التفاوت فيه

ولاحظ بعض المدعوين انه ، وهى ، يختلسان النظرات فسلط دعاباته عليهما . وكانت الفتاة تنتعش بالدعابة . وتلذ لها الملاحظة . فتشجع !

وكانت فتاة جمالها كله ينحصر فى تعبير واحد : رقيقة !

كانت نحيلة ، دقيقة ، سمراء ، ذات فم أنيق وأسنان صغيرة فتانة .. ذات عينين لا تستطيع أن تحدق فيهما طويلا . ولكن ما لنا ولكل هـذا الوصف وهو لم يستهوه منها جمال اللون ، ولا جمال القد ، ولا جمـال الفم والعينين ، وانما لعب بلبه أنها كانت لا تنطق حرف « الراء » كما ينطق الناس حرف « الراء » ! ؟

« راء » شاذة لا هى بالراء الواضحة ولا هى « بالغين » المدغومة . وانما نصفها من هنا ونصفها من هناك ؟ !

لا أظن مصدرها لثة الأسنان الخلفية وانما يغلب أنها تصـدر بعد طى طرف اللسان من الحلق ...

ولمحت الفتاة الصغيرة أنها لمست بأناملها قلبـه . فزادته عناية ورعاية وأخذت ــ كربة منزل صغيرة ــ تعنى بطلباته أثناء السهرة ...

وفى غفلة بريئة من المدعوين اختلى بها بجوار « البيـانو » فأخذت تحادثه بحديث فيه الساذج ، والماكر ، ولكنه كله خلاب ..

وتوسل اليها أن تضرب على البيـانو وأن تسمعه شيئا فتمنعت تمنع الأطفال .. ثم رضخت رضوخ الأطفال .. ثم لعبت لعب الأطفال ...

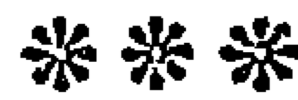
تكررت الزيارات وزالت الكلفة وعرف سكان المنزل ، وأصدقاء المنزل، أن علاقة « الحب » نمت بين الاثنين . وأنها تتجه بسرعة نحو الخطبة . ونحو الزواج ...!

وبدأ يدرس الفتاة دراسة الزوجة لا دراسة العاطفة فوجد أن الفارق كبير بين أسرته وتقاليده القديمة الرجعية . وبين أسرتها المتحررة العصرية . والفتاة كانت صغيرة فى السن وكان النزق والطيش الصبيـانى صفتين لاصقتين بأحوالها وتصرفاتها . كانت فى « السينما » متلاحقة الملاحظات على الشبان وملابسهم وأحوالهم . فهذا فى نظرها جميل... وهذا رشيق... وذاك ثقيل الدم ... وذلك وجيه !

وكانت مشغوفة بالرقص يكاد يبكيها وينغص عيشها أن « شكرى »

لايرقص . وكم توسلت اليه وألحت عليه أن يتعلم ليكون شابا من آخر طراز ...

وكانت من غواة قيادة السيارات . وكم وبخته توبيخا ممزوجا بالألم وبالكدر لأنه متأخر : فهو لايلعب البيانو ولايرقص ، ولايقود السيارات. وانها تود أن تخلق منه فى أقرب فرصة شابا من النوع المعروف : « سبورت » !..



وجد « شكرى » ان الفرق عظيم بين عقليته وعقلية خطيبته . وأن الدراسة التى تتجه يوميا نحو « الأعماق » تكشف عن خيبة الأمل رويدا ؟ ! ولاحظ فى احدى السهرات أن زائرا جديدا قد طرأ على الوسط : شاب أنيق من سن الفتاة . وممن يرتدون « الجاكتة الكحلية » ذات الأزرار المذهبة . والبنطلون الواسع المتصل بأسفل الكعب . ومن حملة « الكرافتات » ذات اللون « القوس قزحى » . ومن ذوى الشعر المكوى . وباختصار ممن يصح أن نطلق عليهم لقب « الجنس نصف اللطيف » ...

ورقص هذا الشاب معها فى احدى الليالى الساهرة فنظر اليهما وعيناه تقدحان بالشرر . ولكنهما والحق يقال كانا منسجمين متكافئين فى الرشاقة والأناقة والسن والعقلية والمؤهلات ؟ !..

بدأ نجمه يأفل ونجم هذا يرتفع . وفى ليلة من الليالى انعطف «شكرى» فى شارع الأسرة فى زيارة من زياراته . فلمح سيارة « سبورت » من ذات المقعدين تقف بكياسة ولباقة على الباب ثم لمح الفتاة والفتى قد نزلا منها بكياسة ولباقة وقد تأبط ذراعها وتأبطت ذراعه بشغف وحنان وعاطفة . فقال فى نفسه : وداعا . والى الوراء ! ! !

ودق جرس التليفون فى اليوم التالى فى الميعاد فأخذ السماعة ودارت المحادثة الآتية :

هو : آلو . مين ؟ .. هى : أنا ...

هو : كيف حالك ؟ .. هى : عال ...
هو : أهنئك ... هى : بماذا ؟
هو : به ... هى : من ؟
هو : الرشيق الـ « سبورت » ...

ألقت السماعة بغضب . وفى الليل ذهب « شكرى » الى أحد التياترات ليتناسى همه ، فوجد الأسرة فى أحد البناوير . ولمح الفتاة « السبورت » والفتى « السبورت » متلاصقين فاقتحم الباب وسلم بأدب وابتسام . ثم همس فى أذنها قائلا : « أهنئك » ...

فأطرقت وقد كسا وجهها احمرار خفيف . ولم تمض شهور حتى تزوج الفتى من الفتاة ...

فتنهد قائلا : بالرفاء والبنين !..

الخطيبة نمرة « ٢ »

نحن الآن فى سنة ١٩٢٣ وقد استقل « الأستاذ شكرى » بمكتب فى مدينة من عواصم الأقاليم . وقد كان محاميا موفقا من البارزين الذين يحق لهم الجلوس مع سعادة المدير . وسعادة الوكيل . وسعادة الحكمدار. وبزغ نجمه فى سماء الكتابة فتلهف القراء بحق أو بغير حق على مقالاته فى الجرائد . وبالرغم من اقامته بالمدينة التى اتخذها موطنا لحرفته فانه كان وثيق الاتصال أسبوعيا بالقاهرة

وقرأ فى هذه الأثناء رسالة اجتماعية دقيقة البحث عن الزواج فى مجلة أسبوعية أفرنجية ، ذهب فيها الكاتب الذائع الصيت الى أن الزواج المؤسس على « الحب » زواج « الفشل » فيه غالب . وان الزوجية المبنية على تقدير الجديات أجدى على الزوجين وأبقى من المبنية على العواطف والخيال . وهو فوق ذلك قد جرب الحب العفيف فى مأساته الثانية والحب الذى يظنه الناس غير عفيف فى مأساته الأولى . ثم اتعظ

من فشل خطبته الأولى فصمم على أن يتزوج كما تزوج آباؤه وأجداده من قبل ...

وبعث بخاطبته « أم هناوه » كالكشافة فى ميادين القتال .. ويالها من سخافة ! لقد جاءته بأخبار وأوصاف وتفاصيل وأرقام الله وحده أعلم بصحتها ودقتها . ثم فهم ضمنا من كلامها أنها أنبأتهم بأخبار وأوصاف وتفاصيل وأرقام الله ، وهو ، العالمان بصحتها ودقتها . وأعجب ما فى الموضوع أنها طلبت « صورته الفوتوغرافية » ! فحمد الله ولجأ الى صديقه « هنزلمان » فخلق منه — فوتوغرافيا — خلقة وسيمة خلابة فتانة وبارك الله فى فعل « الرتوش » ومهارة الفنان .. وكان لابد للأستاذ المثقف المتهكم على كل شىء من أن يخضع خضوع المستسلمين لهذه الاجراءات وهذه التقاليد . وقيل ان سفيرة أو سفيرتين من أهله المقربين يجب أن تذهبا لزيارة أهل الفتاة . ولمعاينة الفتاة . وعجيب — فى نظره — أن يستلزم الأمر هذا ومستخدمو « سمعان » و «شيكوريل» يعاينون بدون سفيرة أو سفيرتين . ويشاهدون وليس عندهم الا نية البيع والشراء والمساومة و « الفصال » ...

وسأل الأستاذ : وكيف تتم هذه المعاينة ؟..

قالت خالته الفصيحة : نخطر أهل العروس بالزيارة ...

قال : ثم ماذا ؟

قالت : نحدد الميعاد فتستعد العروس وتنظم نفسها وجمالها وقوامها وترتدى أبدع ثيابها وتعطر جسمها وشعرها بالروائح . حتى اذا وصلنا وشربنا القهوة أو الشربات استدعيت العروس فأقبلت تتهادى خجولا وجلست بأدب واحتشام ثم يأتى دور البحث والفحص ...

قال : وكيف ؟ !

قالت : هنا اللباقة والمهارة . فالواحدة المجربة تشرع فى الحديث معها وتحدق أثناء الحديث فى « أسنانها » لترى ان كانت فيها عيوب أو كسور من ناحية التناسق واللون . ومن الحديث نستنتج « خفة الروح »

أو « ثقل الدم » . ونعرف نوع « الصوت » ان كان ناعما أو خشنا أو غليظا ...

قال : ثم ماذا ؟

قالت : ... وقد تخرج الواحدة منا «سيجارتها» وتطلب الى العروس برفق أن تشعل عود الكبريت فتتقدم لتلمح قوامها وقدها وتقترب . فنتشاغل لتشعل عودا آخر ولتتسع لنا الفرصة لنحدق فى عينيها عن قرب ، ثم تنتهز السفيرة الأخرى هذا الوضع « فتطبطب » على صدرها لتلمس « ثدييها » ببراعة واحكام ...

قال : كفى !

قالت : ماذا ؟..

قال : يا للخجل ! وأى فرق بينكن وبين « سماسرة » الخيول . وغواة الخيول ؟ أتتن بهذا الشكل لا تخطبن فتاة وانما تشترين حصانا !..

وكان لابد من هذه السفارة .. فتوسل الأستاذ الى سفيراته أن يترفقن بالفتاة المسكينة فوعدنه خيرا ...

ولا يعرف الأستاذ ماذا تم فى هذه المعاينة وانما تقدمت اليه تقارير متناقضة . فالسفيرة « نمرة ١ » ترى أنها «لاتصلح». والسفيرة «نمرة ٢» ترى أنها « كاملة » . والسفيرة « نمرة ٣ » ترى أنها « لابأس بها » ...

وجاء دور « التحريات » عن الأستاذ وعن ماليته ، وعن سيره وسلوكه ، وعن عدد اخوته ، وعن ... وعن ... وأفكه ما فى الموضوع انهم سألوا عنه « مأمور قسم شبرا » ولعلهم استعانوا بالبوليس السرى عن أحواله وأسراره ... واستغرقت هذه التحريات أشهرا ثلاثة . ثم صدر القرار أخيرا بالقبول مبدئيا . وجاء دور الكلام عن « المهر » و « الشبكة » وليس المجال مجال التفصيل فسخافاته ومهازله معروفة . وفرضت أسرة العروس رقما عاليا فقبله الأستاذ راضخا . ولم يكن فى حياته الحاضرة ولا المقبلة ــ من الماديين . وكانت أتعاب القضايا فى سنتى (١٩٢١ و ١٩٢٢) تتدفق على جيبه فلم يكن رقم « المهر » أو « الشبكة » من العقبات !

وسمح للخطيب أن يتردد على منزل الأسرة الضخم فى القاهرة ، وأن يقابل رب الأسرة العظيم وزوجته العظيمة . وكانت زوجته عظيمة حقا .. بل متألهة !..

وأوعزوا اليه أن يقدم « الدبلة » فقدمها باجراءات ومراسيم ورسميات . وحين جاء دور العمل الحاسم وقد استعد له وتم الاتفاق على كل التفاصيل من « كتب كتاب » و « ليلة دخلة » و « فرح » استدعته الزوجة العظيمة أو الأم العظيمة لمقابلة خاصة فأسرع اليها فهمست فى أذنه سائلة : أين تكون الدخلة ؟

قال : كما تأمرين ...

قالت : اعنى أين تكون الاقامة ؟

قال : فى بلدى التى أشتغل فيها .. حيث حرفتى وعملائى ورزقى !

قالت : لا .. لا .. بنتى لا تعيش الا فى مصر !

قال : عفوك ياسيدتى . أتعيش وحدها وأعيش وحدى ؟ !

قالت : لا .. ولكن تنتقل الى مصر !

قال : سيدتى . ان هذا مستحيل !

قالت : ونحن أيضا مستحيل ...

ودخل رب الأسرة الفخم فىهذه اللحظة . فتضرع اليه الأستاذ متوسلا و « استأنف » أمام عظمته « قرار » الزوجة العظيمة فصدر نطقه الكريم « بالتأييد » ! ! ! !

وانسدل الستار على الخطبة الثانية ...

الخطيبة نمرة « ٣ »

فى يوم من الأيام تلقى الأستاذ « شكرى » خطابا باللغة الفرنسية من فتاة لا تتجاوز الثامنة عشرة .. مثقفة متعلمة ، كما يبدو من روح تحريرها وكما تذكر فى خطابها ، والخطاب يتضمن شكوى مرة من معيشتها فى

منزل الأسرة . ومما تلقاه من الألم النفسانى بسبب اصطدام التربية العصرية بالتقاليد القديمة . ووقعت الفتاة بتوقيع مستعار . غير أنها ذكرت العنوان . ومن الصدف العجيبة أنه عرف العنوان وعرف المنزل لأول وهلة وعرف الفتاة . ولكنه لم يشأ أن يتعدى حده . فرد ردا موجزا يتفق وتربيته ومكانة الفتاة وأسرتها ؛ واعدا بكتابة بحث طويل فى مجلة معروفة لتستفيد الفتاة من رده الذى سوف ينشر فى المجلة الشهرية. وكان الخطاب والرد ــ على هذا الشكل ــ عبارة عن مراسلة أدبية اجتماعية لا تدل على شىء ولا تنبىء عن شىء ...

وظهر البحث الطويل فى المجلة وقرأته الفتاة الراقية . فرأت من واجبها أن تشكره على نصائحه وارشاداته واتصلت به تليفونيا . وبالرغم من عصريتها وثقافتها وتمدينها كلمته بصوت مضطرب ، ولكنها فهمت من حديثه أنه عرفها وأنه يعرف أسرتها وأنه يحمل لها كل احترام واجلال واتنهت المخابرة التليفونية !

وعنّ للفتاة فى ظرف آخر أن تكلفه ببحث آخر فكلمته بالتليفون مرة أخرى وأجابها الى رغبتها ونشر البحث الآخر ، فرأت أن تشكره فكلمته مرة ثالثة ورابعة وخامسة ...

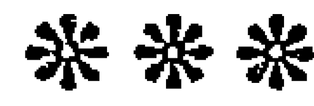
كانت الفتاة كما ترى مثقفة تثقيفا عاليا . ثم هى فوق ذلك كانت موسرة ومن بيت كبير . وقد تحرى الأستاذ ــ من باب الفضول ــ فعلم أنها جميلة . ومن محادثاته معها تحقق لديه أنها ثابتة فى خلقها . فلم يبدر منها لفظ ، ولم تخرج كلمة ، ولم تفلت جملة ، يمكن أن يستنتج منها أنها من ذوات النزق أو الطيش أو التسامح فى القواعد الأخلاقية التى تزين الفتاة ...

أحب فيها هذا التحفظ وهذا الاتزان على صغر السن وصغر التجربة . وأغراه أنها تعرفت اليه من طريق الأدب البرىء والبحث البرىء . ثم رأى فى شكاواها المنزلية ما يستحق العطف ويستحق التقدير ففكر فى أن يتشجع ، ومر على ذهنه خاطر الزواج ...

وشاءت الظروف الطيبة أن تنتقل الفتاة وأسرتها الى الاسكندرية فى الصيف . وأن تقطن بجوار منزل من منازل أفراد أسرته المقربين اليه . واختلطت الأسرتان وامتزجتا ، وجاء ذكر الأستاذ على لسان الفتاة ...

ثم تقدم الحديث وتوغل فجرى البحث من ناحيتها عن أخلاقه . وعوائده وروحه . واستعداده للزواج . ففهمت القريبة ما شاء لها ذكاؤها وقرظت قريبها أحسن التقريظ ...

وكانت المباحثات وفق مرامها ، فطربت ولم تستطع أن تخفى سرورها وانكشف الموقع فانتقلت المتحادثتان مباشرة الى « مشروع الزواج » ...



وبلغت التفاصيل الى الأستاذ فأبرق بالموافقة من غير تحفظ ومن غير قيود . واستمر تزاور الأسرتين والموضوع هو حديث الأيام والليالى على أن تتم الاجراءات فى القاهرة !..

وكنا قد وصلنا الى أواخر سنة ١٩٢٣ وقد خلق الانجليز للبلد « برلمانا » و « انتخابات » وشرع الأستاذ يعد نفسه لخوض غمارها . فأظهرت الفتاة من المشاعر ما رسخ فى ذهنه انها سوف تكون حقا الزوجة المسعدة ، والشريكة التى يضمن بمعاونتها صفاء الحياة ...

ولأمر ما انقطعت المخابرات التليفونية وانقطع الاتصال فظن أنها لابد وأن تكون بارحت القاهرة الى مزارع الأسرة فى اقليم ناء بعيد ...

وكان قد نصح لها أن لاتكاتبه . وذلك كان مبدؤه الذى أذاعه . فان أمقت ما كان يمقت أن تسرف الفتاة فى الخطابات التى قد تكون يوما ما سببا فى اشكالات وأحزان ...

ولكن الزمن طال .. وأصبح من غير الطبيعى أن يكون الانقطاع طبيعيا ومن السهولة أن يتحرى عما اذا كانت بالقاهرة أو لا ...

وقد تحرى فعلم أنها لم تغادر القاهرة !

ماذا ؟ !

لابد من أن ينكشف السر !

وجاءته بوستة الصباح بعد أسبوع فميز من بين الخطابات خطابا فخما مزخرفا تبدو عليه الوجاهة ففضه بشغف على اعتقاد أنه منها ...

كان منها حقيقة ولم يكن منها . كان من ناحيتها . كان من حولها . لأنه كان عنها وعن مصيرها ...

كان بطاقة دعوة لحضور حفلة زفافها من فلان ابن فلان ! ! !

وسقطت دمعة هى دمعة « الكبرياء » ولكن سرعان ما مسحها بأنامله الفيلسوفة . ولكنه لم يستطع أن يطارد الألم النفسانى الذى انتابه فهو قد جرح فى عزته بغير مبرر وبغير سبب ... وتساءل : هل من الانصاف — على كل حال — أن يفاجأ هذه المفاجأة القاسية ؟ !

وهل كان من الضرورى أن يدعى لحفلة الزفاف ؟ !

اذن لابأس !

بالرفاء والبنين أنت أيضا ...

الخطيبات نمرة « ٤ ، ٥ ، ٦ »

لقد عتب عليه أقاربه أنه لم يوجه رغبته الى أسرته .. فوقع من نفسه الاحتجاج موقع القبول . ولكن الأسرة القديمة لها تقاليد أمنع من أن تنال . ولها أسوار من فولاذ لا تقوى على مهاجمتها الأفكار العصرية : السفور فى هذه الأسرة جريمة ، والحب كفر ، والاختلاط بين الفتى والفتاة عار !..

وبالرغم من ذلك اختار الخطيبة الرابعة . وجرت محادثات هامسة مكتومة قدسية لاهوتية جديرة بالهياكل والأديرة . لم ؟ ! لأن الفتاة يوم أن ولدت كان قد تكلم عنها أهل الفتى الفلانى يوم أن ولد ، وصدر العرض من هناك والقبول من هنا . وكلام الأشراف شرف ولو كان عن طفل وطفلة فى سنى الرضاع . اذن ليظل كل شىء فى « السر » خافتا ،

ميتا ، طويل الأمد ، خوفا على عواطف الأسرة الموعودة ، وحرصا على كرامة الأسرة الواعدة ؟ !..

وأين الفتى ! ؟

هو لايزال يتعلم . فيجب الانتظار حتى يتمم دراسته . ثم يجب الانتظار حتى يكون مستقبله . ثم يجب الانتظار حتى يتكرم فيقول : لا !..

وحينئذ تتحلل الأسرة الواعدة من وعدها . وتصون كلمتها . فتصح اذاعة الخطبة ويجوز الاعلان ؟ !

ويرفض صاحبنا كل الرفض هذه « الرهنية » ويبحث عن الخطيبـة الخامسة ...

وهى فتاة استأثرت بالجمال والكمال دفعة واحدة . وكانت غير مرتبطة بوعود أو بعهود . وقطعت الاجراءات شوطا بعيدا وسريعا . وأوشـك كل شيء أن ينتهى وأن يتحدد . ولكن !..

لكن فى آخر لحظة اصطدم حظ أستاذنا العاثر بمشكلة « الرضاع » ... وجاء دور الخطيبة الأخيرة ولها حكاية طويلة تتلخص فى جملتين :

« ان الزواج قسمة .. وربنا ماقسمش » ! !

***

رسخ فى ذهن « الضاحك الباكى » بعد هذا التاريخ الزواجى الطويل أن الحكاية « مقصودة » من القدر ، وأن القضاء والقدر لايريدان أن يتزوج . واحترام القضاء والقدر فرض وأمر واجب الطاعة !..

دستور وبرلمان ؟ !

ان صيف سنة ١٩٢٣ كان شيئا جديدا فى حياة مصر ... تمخض تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ عن شيء ظريف اسمه « دستور وبرلمان » ...

رقصت بعض الأحزاب وطربت وأطلقت الزغاريد وأقامت الزينـات

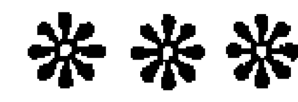
ورقمت الأعياد فى رسمياتها . وكشرت بعض الأحزاب عن أنيابها ولبست السواد ونادت بالويل والثبور وعظائم الأمور واعتبرت تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ نكبة ! !

ونشبت المعارك ودار الطعن والطحن والضرب والنزال والنضال حتى نادى المنادى فى البوق أن هناك « انتخابات » فاذا بالأحزاب الضاحكة والأحزاب الباكية تقبل على الانتخابات ..

والنيابة عن الأمة شرف أى شرف . ثم فيها أيضا « مرتب » ...

وفيها أيضا « أبونيه » ... وفيها أيضا « حصانة » ...

وفيها أيضا نفوذ وجاه ... وفيها مطامع وآمال ...



كانت « النيـــابة » المودة الجديدة للفخفخة والنفخة وحب الظهور . كانت رتبة الباشوية والبيكوية هى مطمح الأنظار فيما مضى . أما فى تلك السنة فقد بطلت المودة القديمة وحلت محلها المودة الجديدة : النيابة عن الأمة !..

وانكمش الانجليز « الغـلابة » فى معسكراتهم ومنازلهم و « قصر نيلهم » و « قلعتهم » و « عباسـيتهم » و « أبو صــويرهم » خائفين يرتعدون ويرتعشون خوفا من الوحش الفاغر فاه والقــادم عليهم بعد حين : البرلمان ! ! !

ذلك ما تراءى لكل مصرى فى اليقظة لا فى المنـــام . فى العلم لا فى الحلم . فى الحقيقة لا فى الخيال ...

وكانت المناصب الوزارية محتكرة فى وسط معين . وفى شخصــيات معينة . أما اليوم فالمودة جديدة أيضا . والنيابة عن الأمة ستكون مزلقا أو مرقى الى العلا والى السماء ...

اذن هيــا ياجيوش المؤملين الطــامعين الطــامحين فازحفى ... ازحفى واســتميتى وابذلى وحاربى وكافحى وضحى وابذلى المستحيــل وغير المستحيل حتى تفوزى بالكنز الثمين . والمجد المتين . والنصر المبين ...

وافتتح ابليس اللعين معركة الانتخابات فضاعت أسر . وضاعت روابط . وضاعت تقاليد . وضاعت ثروات !..



اقتحم الأستاذ دائرة من الدوائر الانتخابية له فيها عصبية وقرابة وجوار . ولكنها لم تكن من دوائر أسرته المضمونة . تلك احتلها أقرباؤه المقربون . وكانت سنه دون السن القانونية بسنتين . غير انه كان من ساقطى القيد فى اقليمه فانتهز الفرصة وجال جولته الأولى وحيدا ليجس النبض فاستقبل بالترحاب فى كل دار وفى كل مكان . الوجوه كلها باسمة . والعواطف كلها فياضة بالاعجاب والتقدير . ولكنه لم يكن من حزب « سعد زغلول » العظيم . وكان الرجل الفذ قد غمر القطر كله بسحره وسلطانه . وكان مرشحه فى الدائرة رجلا معروفا . له ثروة طائلة وضياع كثيرة . وله مقر وله روابط . ولكن الشاب لا يجفل ولا يتردد ، ولم يكن هناك متسع للاختيار فأقدم !..

وكان المحامى الناشىء قد جمع ثروة صغيرة من ربحه الخاص . لاتزيد على خمسمائة من الجنيهات . ودخل المعركة متسلحا بعلمه ـ وشهادته ـ وحظه الصحفى السعيد ـ والخمسمائة من الجنيهات !..

أما « منافسه » فلم يكن الا من أرباب الضياع ...

كانت وسائله الخطب والبيانات ...

وكانت وسائل خصمه الخراف ، والعجول والديكة والفراخ والحمام ، والطعام والشراب ...

وكان اعتماده على كرامة العلم وحرمة المبدأ ...

وكان اعتماد خصمه على « سعد زغلول » ...

وزحف موكبه الصغير الى القرى والكفور والعزب فكان يشرب فى اليوم أكثر من سبعين فنجانا من القهوة . وكان يأكل أكثر من عشرة أرطال من العجوة . وكان لا يملك أن يرفض هذا الضرب من ضروب

الاكرام ، والا عدوه متعجرفا عديم الأصل جاهلا بالأصول ! !

وهزم المحامى الناشىء هزيمة « مبلوعة » بعد أن جيش عليه منافسه جيشا عرمرما من أقطاب الوفد وخطبائه . فأضاع وقته وأضاع الخمسمائة من الجنيهات ? !..

***

وعاد الأستاذ الى مكتبه الريفى يحاول اصلاح ما أفسده الدهر وأفسده الانتخاب . وراجع حسابه فى البنك فوجد الرصيد صفرا ! ! !

وفى ليلة من الليالى السوداء الممطرة انتابته السويداء . وهو قد اعتاد فى الليل أن يعاشر جدران الغرف والكتب وملفات القضايا ...

ولكنه فى تلك الليلة شعر بألم الوحدة وشعر بأنه ثائر على كل شىء : على نفسه — وعلى واجبه — وعلى مهنته — وعلى حاضره ومستقبله

وكان عائدا من القاهرة . وتذكر وقد انتصف الليل انه لم يقرأ بوستة الأيام الماضية . فلجأ اليها عله يجد بينها ما يخفف من لوعته وأشجانه ...

وفض الخطاب الأول فاذا به من متعهد حفلاته الانتخابية فى الدائرة يطالبه ببقية حساب قدره عشرون جنيها ! ! ...

وفض الخطاب الثانى فاذا به من شاب سعدى يهنئه فيه بالسقوط ? !

وفض الخطاب الثالث فاذا به من مخلص آسف يكشف له عن عيوب قانونية فى اجراءات الانتخاب ! ! ...

وفض الخطاب الرابع فاذا به من موكل يخطره بأنه تصالح مع خصمه ويطلب اليه رد ثلاثين جنيها قيمة مقدم الأتعاب !..

أما الخطاب الخامس فكان من عائلة منحوسة تدعو له بطول العمر وتطلب اليه أن يمدها بالاحسان !..

ورفع الخطاب السادس فاصطدم بخط دقيق أنيق اضطربت له حواسه وتفتحت له عيناه ... ان الخط يعرفه ... ولكن لمن ?

انه خط ... ولكن ليس من خطوط الرجال ...

انه من سيدة ! فمن تكون ?

والله انها لحكمة !.. كان من الضرورى جدا أن يخلق الله صنف النساء ..
لهن فى الأزمات دور لايلعبه غيرهن ولا يجيده غيرهن ...
انه لم يعرف بعد ممن الخطاب ولا ما هو مضمونه ان كان خيرا أو شرا
ولكنه حن للخط وحن للنساء ...
وفى الشدة التى هو فيها . وفى الوجيعة التى يقاسيها . شعر كأن عاملا من عوامل الانشراح قد طرأ والسلام ...
وأخذ يفض الخطاب برفق ولين ووداعة ثم قرأ مايأتى :
« صديقى شكرى :
ان كنت لم تعرف الخط بعد فلا تتعجل ولا تسرع الى الامضاء ...
أنا صديقة قديمة . بل كنت أكثر من صديقة . وقد سمعت بنبأ سقوطك فى الانتخابات . وفهمت بالبداهة أنك ستكون معتم الخاطر مظلم النفس . فرأيت من واجبى أن أفعل شيئا رغم ظروفى ورغم بعدى عنك وبعدك عنى . وماذا أملك أن أفعل ؟ لا شىء الا أن أكتب اليك هذه الكلمات ...

« ولست أدرى ما الذى حملنى على الاعتقاد بأن كلماتى هذه ستكون لها مكانتها فى نفسك وفى قلبك كما كانت منذ سنين !..

« ألا يدهشك أننى أخاطبك كأنى — لا أزال — من ذوات الحقوق عليك ؟ اغتفر لى جرأتى فمن يدرى ؟ لعلك نسيتنى ولعلنى أكون مبالغة فى اعتدادى بدالتى عليك . سواء أكان قدرى عندك غاليا أم رخيصا فأظنك لا ترفض كلمة مواساة وتشجيع من صديقة لا تزال تشعر بأن عليها واجبا نحوك فى اويقات وجيعتك وألمك . وكم كنت أحب أن أعلم مبلغ وقع هذا الخطاب فى نفسك . ولكننى أعلم أنك لا تملك أن ترد ...

« اننى أتتبع أخبارك بقدر ما تسمح به الأخبار العامة . وثق — ياشكرى — واسمح لى أن أخاطبك بغير رسميات ... اننى لن أنسى وفاءك ولا عفتك ما حييت . بل لقد بلغ من جرأتى اننى رويت لزوجى

كل حكايتى معك . وبهذه المناسبة أخبرك أننى سعيدة وأنك كنت نبيا صغيرا حين تنبأت لى بأننى سأنسى فجيعتى ... ولنا ابنة صغيرة جميلة تحدق فى بعينيها الجميلتين وأنا أكتب لك هذا الخطاب . وهى هادئة هدوءا ملائكيا على خلاف العادة . كأنها تعلم من طريق الالهام اننى أؤدى واجبا مقدسا نحو عزيز علىّ لا أنساه ولا أنسى ذكرياته ونبله ...

« اذا كانت مكانتى لا تزال كما أعهد فى نفسك فانى واثقة انك ستنسى مرارة التجربة الانتخابية الأولى ...

« عدنى اذا طافت بك ذكرى هذا الفشل أن تذكرنى . وأن تنسى . وأن تهش . وأن تبتسم ...

« ثم عدنى أن تذكرنى دائما الى أن نلتقى على وفاء كما افترقنا عن وفاء ... ولك تحياتى »

من المخلصة

٣٠ يناير سنة ١٩٢٤ — « مريم »

(١) برلمان سنة ١٩٢٤ ــ ١٩٢٥

فى يناير سنة ١٩٢٤ ــ أو حوالى هذا الشهر ان لم تخنى الذاكرة ــ شكل زعيم الأمة وقائد جيش الكفاح ضد الانجليز الوزارة ...

وكانت وزارة أثارت العجب وأحدثت فى تقاليد البلد الوزارية حدثا جديدا . انبعثت منها رائحة الديمقراطية واحتوت بعض « الأفندية » ...

محاولة جريئة تعمد فيها « سعد زغلول » أن يهشم التقاليد القديمة فنجح !.. وأن يذيق « الشعب » طعم الحكم فنجح !.. وأن يبرهن على أن الأمة « مصدر السلطات » فنجح !..

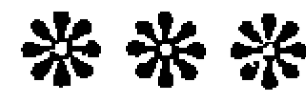
وتوارى « الانجليز » فهلل الشعب وكبّر . وطار الناس فى جو الأمانى والخيال فصعدوا للسماء ، وطاولوا الجوزاء ...

لم لا ؟ ! .. بلد مستقل ! .. وزارة شعبية ! .. دستور وبرلمـان ! .. سفارات وقنصليات !..

وفى منتصف مارس وقف « شكرى » الراسب فى الانتخابات فى ميدان قصر النيل يتفرج على موكب النواب والشيوخ ورجال الدولة الذاهبين لافتتاح « البرلمان » فصفق مع المصفقين ، وهتف مع الهاتفين . وتشنج حماسة مع المتشنجين ، ولكن قلبه رغم كل هـذه المراسم والمظاهر كان يقول له : لا !..

« انها نفخة كذابة ... انه طبل أجوف .. ان البرلمان خدعة انجليزية ...

« ان النظام البرلمـانى ، والحكم الشعبى ، مع الاحتـلال ، حقنة من حقن « المورفين » ...



وكان من الطبيعى أن تقصى الوزارة الشعبية الموظفين فى العاصمة وفى الأرياف ممن لم يكونوا من لونهـا ... والا فكيف تطمئن لهم وكيف تعمل ؟ وهكذا عزل البعض ، وحوكم البعض ، وأحيـل البعض على المعاش ... فتولدت حزازات وضغائن وثارات ...

وكان من الطبيعى أن يندفع النواب فى سبيل التظاهر بالسلطة . وهم معذورون فالتجربة جديدة وهم لايزالون « تحت التمرين » ... وهكذا طغت السلطة التشريعية على السلطة الادارية فكان النواب مديرى أقاليم ، ورؤساء مصالح ، ومديرى ادارات . فارتفعوا بأنصارهم وعيلاتهم وكتموا أنفاس منافسيهم وخصومهم ...

وتولدت حزازات وضغائن وثارات ...

وتوارى « الانجليز » وراء كل هذه المظاهر يشربون « الويسكى » على صحة نجاح التجربة ! ! !

وانشغل البلد الثائر لقضيته ضد الانجليز ، « بالبرلمان » ، عن القضية وعن الانجليز !..

فكانت اللعبة الجديدة أبدع ابتكار جادت به قرائح دهاة بريطانيا فى القرن العشرين !..

***

أما « اللعبة » الأخرى فكانت هى أيضا ظريفة : المفاوضة !

جربها « سعد » مرة فانتهت بالفشل !

وجربها « عدلى » مرة فانتهت بالفشل !

وها هو « سعد » فى سنة ١٩٢٤ يجربها مرة أخرى ...

وسافر الزعيم يحمل آمال أمة : فيه وفى « مكدونالد » العادل المنصف ! ! ..

كانت مفاوضة ما أقصرها وما أوجعها ...

جرحت فيها كبرياء الزعيم . وكبرياء الأمة . وانتهت فى لمح البصر بالفشل ! ! !

وبدأ رد الفعل القاسى يحدث أثره فى نفوس الجماهير الساذجة : ماذا فعل البرلمان ؟ ولِم لم ينسحب الاحتلال ؟ وأين أين السودان ؟

وأخذت الأحلام تتلاشى وتبددها اليقظة ويطردها نور الصباح !..

(٢) برلمان سنة ١٩٢٥

حدثت حادثة السردار المشئومة فقامت القيامة واقتحم اللورد اللنبى بجنوده دار الحكومة « المصرية » وقرأ الانذار التاريخى الرهيب على رأس « سعد زغلول » ثم توالت الحوادث بسرعة البرق . فهوت وزارة الشعب وهو برلمانها ودستورها . وتألفت وزارة مختلطة من حزب الأحرار بناة الدستور وحزب الاتحاد الذى ترعرع فى هذا العام واشتد وصال وجال . ثم جرت الانتخابات على يد « صدقى » فحاصر الزعيم وحبسه فى داره وخفت صوت الشعب . وحدث ائتلاف بين الأحزاب الكارهة لسعد زغلول ، ووفد سعد زغلول

وجرت الانتخابات على هوى الوزارة القائمة وتكون « برلمان سنة ١٩٢٥ » ولكن !..

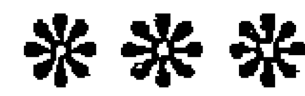
ولكن كانت أيضا الأغلبية للوفد ! !..

واكتسحت الأمواج موظفى الوزارة الشعبية وأنصار الوزارة الشعبية فأصبح كل مدير بلونين ، وكل عمدة بثلاثة ألوان ، وكل وجيه بأربعة أو خمسة ألوان ...

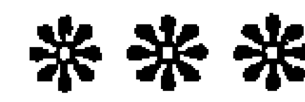
وانعقد مجلس النواب ومجلس الشيوخ ثم جرت انتخابات الرياسة فكان « سعد » رغم كل ذلك الاعداد هو المتغلب ! !..

وفى ساعتين اثنتين حل مجلس نواب سنة ١٩٢٥ فكانت مهزلة تاريخية وسخرية دستورية عديمة المثيل ؟ !

وتجلت اللعبة الانجليزية الدستورية البرلمانية مرة أخرى بشكلها المضحك المخجل الظريف ، والناس ـ بعد ـ لايفهمون ولا يعقلون !..



وجاء دور « الأحرار الدستوريين » .. ولم يدم ائتلافهم مع حزب الاتحاد طويلا فقد حدثت حادثة كتاب « الشيخ على عبد الرازق » فقذفت بهم وبحزبهم من حالق « وأخلى طرفهم » فى الحال وأسدل الستار على برلمان سنة ١٩٢٥ ، بعد أن ابتلع أموال المرشحين ، وبعد أن نكبت الأمة نكبة جديدة فى أخلاقها وروابطها وهنائها ...



ونسى الناس الانجليز ، والاحتلال ، والحرية ، والاستقلال ، وتضاربوا حول كراسى الحكم وحول مقاعد البرلمان ! ! ..

وتمخضت مصر عن ائتلاف عظيم خطير بين الوفد ـ والأحرار ـ والحزب الوطنى

... وتجلت اللعبة الانجليزية مرة أخرى فأرخت الحبل « للائتلاف العتيد » فدحر خصومه وقسمت الدوائر الانتخابية على أحزابه الثلاثة

وجرت الانتخابات فى سنة ١٩٢٦ ففاز « الأستاذ شكرى » بالتزكية وأصبح عضوا فى مجلس النواب ! ! !

(٣) برلمان سنة ١٩٢٦ ـ ١٩٢٨ ! !

برلمان حافل بالشخصيات الضخمة من جميع الأحزاب . أما « سعد » فقد تجهم له الانجليز واشترطوا أن لايكون رئيسا للحكومة !..

وأقام له النواب المنتخبون حفلة شاى فى فندق الكنتننتال لتكريمه. ولكن ظهر أنه كان هناك غرض خفى ، فقد قام بعض أنصاره ينصح له بعدم قبول رياسة الوزراء ، فنهض الأستاذ « شكرى » يعارض الفكرة ويقول انها تقهقر ورضوخ من زعيم الأغلبية لارادة الانجليز ، وقام طبيبه الخاص فأيد النصح بالتخلى عن الحكم ، ثم قام « سعد العظيم » وقال ان صحته لا تساعده على العمل فى رياسة الحكومة ..

وانكشف الستار وضرب الانجليز الائتلاف أول ضربة ففرضوا ارادتهم وأقصوا زعيم الأغلبية عن الوزارة فتولاها « عدلى يكن » ...

وكان برلمانا حافلا بالعظماء ، غنيا بخطبائه وحملاته وزحفه . ولكن لا على الانجليز ... وانما على الحكم السابق ، وعلى الأحزاب السابقة ..

أما قانون العمد ـ وقانون السلاح ـ وغيرهما وغيرهما فقد لعبت بشأنها السياسة الخفية ونفذت مشيئة الانجليز ...

ومات سعد وبدأ عقد الائتلاف فى الانفراط وانسحب عدلى وثروت وجاء « مصطفى النحاس » فضربه الانجليز الضربة القاضية بحكاية « قانون المظاهرات » فاشتد البرلمان واحتد وتجهم وكشر عن أنيابه ... ثم .. ثم .. ثم تقهقر بغير انتظام وانكمش أمام البوارج والمدمرات والطرادات ...

ولعبت الدسائس وانسحب محمد محمود وأقيلت الوزارة الشعبية وحل مجلس النواب وأوقف الدستور ...

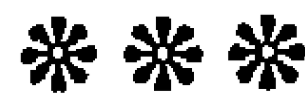
ولعبت اليـد الحـديدية المحمدية المحمودية دورها فبطشت وأقصت وقربت . وفاوضت المفاوضة الخامسة بعد مفاوضة ثروت الرابعة ثم فشلت وانهارت وتوارت عن الأنظار ...

(٤) برلمان سنة ١٩٣٠

وانتصر الشعب مرة أخرى وتولت الوزارة النحاسية الحكم وفاوضت وفشلت للمرة السادسة . ثم ارتطمت بقانون محاكمة الوزراء . واستقال النحاس استقالة لا تخلو من المؤاخذة السياسية . وتجلى « صدقى » فى الميدان

(٥) برلمان سنة ١٩٣٠

وعدل الدستور وقانون الانتخابات وكون مجلس النواب الخامس والقراء يعلمون جميع التفاصيل فلا داعى للاشارة اليها . ولا يعلم الا الله مصيره



هذا هو المرور السريع على نظامنا النيابى ، والدستورى ، والحكمى رأيت من واجبى أن أدونه فى هذه الصفحات ليكون القراء على ثقة من أن « الدستور والبرلمان » لعبة انجليزية مكشوفة شغلت زعماءنا عن القضية العامة ، الى قضيتهم الخاصة .. وحولت جهودهم من أن تتجه ضد الانجليز الى أن تتجه ضد بعضهم بعضا

وكانت هذه اللعبة نعمة وبركة على انجلترا ووبالا على مصر وعلى مرافقها الحيوية ، ومصالحها الاقتصادية وأحوالها الاجتماعية ، فتدهورت جميعا وهبطت للحضيض !..

ولا تزال الأحزاب تتناحر حول الحكم ولمن يكون ؟ وحول الكراسى

النيابية ولمن تكون ؟ ولا يزال المصرى هو عون الانجليزى ضد المصرى ، ولا تزال الفوضى ضاربة الأطناب

اما الاستقلال ... واما الاحتلال ... واما القضية المصرية ...

فسلوا عنها ضحايا سنة ١٩١٩ ، وسلوا عنها الخيال ! !

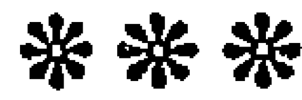


حياة « الجارسو نييرة » !

ان النائب المحترم قد ارتدى فى صباح يوم من أيام سنة ١٩٢٦ بذلته الرسمية الأنيقة هو وأحد زملائه النواب ليحضروا جلسة افتتاح البرلمان العظيم ...

وأقلتهما سيارة فخمة سارت تتهادى بين الجماهير الحاشدة ، وبين رجال البوليس والمدافع الداوية وبين الهتاف الحماسى المرتفع للسماء . فكانت الساعة ساعة من ساعات العمر النادرة فيها كل عناصر الزهو والغرور ، والاعتداد بالنفس ، والطموح الى العلى ...

وفى دار البرلمان وجد النائب المحترم نفسه بين عظماء البلد وكبرائها وأقطابها والقابضين على زمام الحكم . ثم شعر لأول مرة أن هؤلاء جميعا سيكونون تحت رقابته وتحت هيمنته وسيطرته . ثم رفع بصره فوجد شرفات البرلمان حاشدة بسفراء الدول والصحفيين الأجانب وعقيلاتهم ثم بالأمراء والعظماء وكبار ذوى الحيثية من النساء والرجال



وزاده غرورا وسعادة أنه كان أصغر أعضاء البرلمان سنا فجلس بجوار سعد زغلول واستقبل فى السراى الملكية عملا بالدستور وضخم أمره وكبر . وكانت له فى البرلمان ــ بعد ذلك ــ جولات وصولات ليس هذا مكانها وانما نحن نسرد قصة اجتماعية أكثر منها سياسية . فلنهمل السياسة من الآن فقد أضحكت وأبكت « الضاحك الباكى » وهو اذ يذكر اليوم تاريخه السياسى يخلص الى نتيجة محققة أدركها قبله شاعر مصر القومى رحمه الله اذ قال :

واذا سئلت عن الكنانة قل لهم   هى أمة تلهو وشعب يلعب !..

كان لابد للنائب المحترم من أن يسكن فى القاهرة حيث مجلس النواب . ولما كانت عائلته مكونة منه ، ومنه ، ومنه ، فقط ... فقد اتفق مع أحد

أقاربه الأعزاء الذين مزجوا بين عاطفتى القرابة والصـــداقة فاشتركا فى استئجار « شقة » فى مركز يقولون عنه أنه « سنترال » وعاشا معا من سنة ١٩٢٦ حتى السنة التى تنتهى ــ أو التى شئت أن تنتهى فيها ــ هذه القصة !..

وكانت « الشقة » مكونة من صالة رحبة ، وغرفة استقبال ، وغرفتى نوم ، وغرفة للمـــائدة ، الى غيرها من الملحقات التى توجد فى مثيلاتها من المساكن العادية ...

وزين الشريكان « الشقة » بالورق الجميل ، ووضعا فيها تليفونا ، وأثثاها « بموبيليا » لابأس بها . حتى اذا فتحت أبوابها وافتتحت رسميا أطلق عليها الاخوان والخلان اسم « الجارسونييرة » ...

لا أدرى لم يصدم هذا اللفظ النفوس وهو تعبير صحيح بلفظه ومعناه ينطبق تمام الانطباق على مساكن الاعزاب ؟ !

ولا أدرى لم كانت تكال التهم جزافا الى هـــذه « الجارســـونييرة » ويعلم الله انها مظلومة ؟ ! يعلم الله انها كانت جامعة أخلاقية سالت فيها دموع . وتهذبت فيها أخلاق . وصلحت نفوس . واستقامت شخصيات . وتطهرت سير . وتجلت علوم وفنون . وفاضت عظات وعبر ... ثم يعلم الله انها كانت دار مواساة وسلوى وانصاف للمظلومين والمظلومات من الظالمين ... ثم يعلم الله أن هذه « الجارسونييرة » كافحت فى سبيل الحق حكومات وسلطات وحيثيات حتى انتصرت أخيرا بفلسفتها ونبلها وحماسها للحق على المال والجاه والسؤدد والنفوذ ... بغير مقابل ! !

بل يعلم الله أن « المقابل » كان جحودا كافرا ، وانكارا فذا للجميل !

نعم ...

كان يستقبل الصديقان القريبان الشريكان فى هذه « الجارسونييرة » طوائف من أجمل وأزهى وأزهر زهرات الجنس اللطيف من كل لون ومن كل جنس ، ومن كل بيئة ، ويعلم الله ما كان تاريخ هذه « المؤسسة » تاريخ مجون أو لذة ، أو سكرة أو هوى فاسد ، وانما كان تاريخ آلام .

وفواجع . وأوجاع . ودموع . وشجون !..

كشفت حياة « الجارسونبيرة » للصديقين القريبين الشريكين سرالحياة الاجتماعية فى هذا القطر البائس ، وبالأخص فى عاصمته الخلابة الساحرة الفاجرة ، كشفت لهما القنـاع عن أسرار البيوت . وأسرار السياسـة . فهالهما أن بناء الأخلاق فى هذا البلد قائم على أسـاس متداع ضعيف وأن النكبة أقسى وأمر مما يخال الخيال . وآلم وأوجع مما تصور المبالغة ومما يصور الابتكار !..

وها هى « الجارسونبيرة » ساعة كتابة هـذه السطور ، قد هجرها الصديق القريب الشريك بعد أن أتم الله عليه نعمتـه بالزواج ، فغدت وأمست مسجدا صـغيرا قام فيه منبر الأخـلاق ، واحتشـدت فيـه « الذكريات » النقية ، وشملت الوحدة الأستاذ « شكرى » فأخذ يدون مذكراته ثم دفعها لصديقه مدون هذه القصة ليصوغها للقراء فى قالب العظة والدرس لعل فيها بعض العلاج !..

١ ـ ريتا . . . « RITA »

فى « برمنجهام » بانجلترا هبط الطالب المصرى « سعيد » ليلتحق بجامعة من جامعاتها ، لايعنيكم ولا يعنينى أن تعلموا أن « سعيدا » هذا ولد فى قرية صغيرة ، وفى دار صغيرة من قرى ودور اقليم القليوبية . أما أبوه « الشيخ مصيلحى » فكان رجلا لا من الوجهاء ، ولا من انصاف الوجهـاء وانما من « أرباع » الوجهاء . من الذين يملكون عشرين فدانا لا أكثر ولا أقل ... ووالدة « سعيد » كانت ــ وأظنها لا تزال ــ من الطراز القديم . الذى لم ير العاصمة فى حياته الا مرتين اثنتين ، لزيارة « السيدة زينب » ليس الا ... وفاء « لنذر » . وانجازا لوعد وعهد !

نزل الفتى « سعيد » فى « بنسيون » لعائلة انجليزية مكونة من أب « حداد » وأم عجوز . وفتاة تسمى « ريتا .. »

وكان الشاب فى أيامه الأولى وديعا ، مؤدبا ، خجولا ، مرتبكا ، ولكن بارك الله فى اخوانه ومواطنيه هنــاك : علموه ولقنوه الدروس ولمح أن كلا منهم يصطحب فتاة فى محال الشاى ، ودور السينما ، ورحلات آخر الأسبوع ... شاغل الفتاة « ريتا » بظرف المصرى الجذاب فانقادت الى ظرفه ودعته . وأبت كبرياؤه القومية فى مهجر العلم الا أن يتظاهر . وداء المصرى ــ كبر أو صغر ــ هو التظاهر . والتظاهر أرفع مرتبــة من المورد فاندفع وتلقى « الشيخ مصيلحى » الطلبــات بالبريد وبالتلغراف مصحوبة بمعاذير المصروفات المدرسية ، ورحلات الاجازة ، والمرض القاسى ، والكتب ، وأيدت دموع الأم طلبات الابن الوحيد فرصد الأب المسكين ايراده كله ، وربحه كله ، على فلذة الكبد فى « بلاد الغربة » ! !

ثم استدان ... ثم باع ...

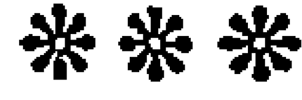
والابن فى فترات الاستدانة ، وفترات البيع الودى والجبرى ، يتمادى فى عواطفه وفى طلباته .. والشهور تمر والأعوام تمر ، والابن لايرحم والأب يقول : لاحول ولا قوة الا بالله ...

عرفتم « سعيدا » فى مصر وفى مسقط رأسه . وعرفتم فى مصر من هو أبوه ومن هى أمه ، وما هى داره ، وما هى ثروته المنتظرة . فهل عرفتم فى « برمنجهام » من هو ؟ !

تقول « ريتا » لأمها العجوز : ان أباه من كبار « الباشوات » حكام المقاطعات ، وملاك المزارع ... ان عندهم ثلاثة اسطبلات لخيول السباق . ان الجواد « سرحان » ، و « تت بت » و « ســلطان » تربح آلاف الجنيهات فى كل موسم ... ان عندهم غابة عظيمة للصيد والقنص ... ان فى قصرهم الريفى تكعيبة عنب تمتد الى مسافة كيلومترين داخل الأسوار آه يا أمى : اننى لسعيدة ... وقد أحببت مصر الغنية بلد المدهشــات والثروات !..

وتقول العجوز باسمة : صدقت يا « ريتا » . أبناء الأرستقراطية هم الذين يحضرون لانجلترا للعلم . حظ سعيد يا ولدى !

ويحضر الأب « الحداد » فى المساء « فتدردش » له العجوز وتروى الأعاجيب . فيبتسم الأب الطيب ويقبل امرأته فى سكون الليل فرحا بسعادة الابنة المحبوبة ...



وتمر أعوام الدراسة العادية و « سعيد » لايزال يدرس ...

والأب لايزال يرهن ويبيع ... والأم لا تزال تبكى ...

وفى ليلة سوداء يرد خطاب من انجلترا . فيفضه الأب بلهفة فيجد فيه الصاعقة : صورة فوتوغرافية لسعيد ، ولزوجته ، « ريتا » ولابنهما الصغير « كمال » ! ! !

ويمر عام .. ثم عام ...

ويحصل « سعيد » على شهادته العليا من جامعته الانجليزية ...

ويعود مع زوجته وابنه ...

ها هى الباخرة تصل الى بورسعيد ... الى الوطن المصرى ...

وتركب « ريتا » القطار فى يونية ... والخيال لايزال يرتفع بها الى السماء ...

ولكن القطار قذر . والحر شديد . والغبار يكتم الأنفاس ...

أين الجبال ، والهضاب ، والخضرة الفرعونية ، والمناظر الطبيعية ؟

لاشىء ...

وهذه الجلاليب . وهذه الزعابيط . وهذه الأزياء المتنافرة . انها أشياء تتنافر والذوق السليم ...

ويصل القطار الى القاهرة حوالى الرابعة والنصف مساء ...

وتذهب الأسرة « المختلطة » الى فندق ... وتمضى فيه أياما ...

ان حر القاهرة لايطاق . وقد بدأت الانجليزية الصغيرة تتضايق ...

أين الباشا الوالد . وأين « الليدى » الوالدة . انهما لم يحضرا ولم يذهب اليهما الابن العزيز . انها جد تواقة الى «الريف» البديع الخلاب ! !

وأنبأها « سعيد » فى صباح أحد الأيام بالسفر لزيارة الوالد . وركبا القطار ومعهما الطفل العزيز . ووقف القطار على محطة صغيرة . ان « الرولز رويس » لم يكن فى الانتظار ؟ ! وكذلك الخدم والحشم بالملابس القصبية ؟ ! كان فى الانتظار « حماران » عاديان . ركب « سعيد » أحدهما وأمامه ابنه . وركبت «ريتا» الثانى بصعوبة وخوف. أما الوالد فقيل انه مريض فى الفراش . وبجوار الحمارين وقف بعض أقارب « سعيد » بملابسهم القروية المزهرة . كانوا بعض «نبلاء» الأسرة الكريمة ؟ ! وسار الحماران الهزيلان بالأسرة المصرية « البرمنجهامية » سيرا بطيئا متعثرا حتى وصلا بالركب الميمون الى القرية . فاستقبلتهم التلال ، والمستنقعات ، وطائفة من الديكة والفراخ ، والأوز ، والجديان ، والكلاب ...

وأمام دار أكل عليها الدهر وشرب . ولعب بها البلى والزمن . وقف الركب !..

هذا هو القصر المنيف !..

أين تكعيبة العنب التى طولها كيلومتران ؟ !

أين اسطبلات الخيول ؟ !..

أين أين غابة الصيد والقنص ؟ !

أين يا « سعيد » ما أنبأت به « ريتا » وما أنبأت به أمها العجوز وأباها « الحداد » ؟ ! .. خيال ... وأكاذيب ...

***

وحاول الوالد المريض أن يرحب بقلبه ولسانه . ألم يكن بطبعه مصريا وديعا مضيافا ؟ وألم يكن بطبعه أبا حنونا رغم كل الظروف ؟ !

والأم : وارحمتاه لها ...

وانتهت الزيارة و « ريتا » ببرودها الانجليزى ، وجمودها البريطانى ، تحاول أن تخفى وجيعتها .. ولكن هيهات ...

وعادت الأسرة الى مصر . فسكنت شقة متواضعة . ومد الوالد

ابنه بكل ما استطاع . فكانت المعيشة أضيق وأحقر من معيشة « الحداد » الانجليزى وزوجه العجوز ، ومضت أيام بؤس وشقاء . وعاودت « ريتا » كبرياؤها الانجليزية فلم تطق الصبر . فلجأت الى الوكالة البريطانية وأنَّت واشتكت . وتحت عوامل التأثر والتوسل ألحق « سـعيد » بوظيفة فى « بنى سويف » فانتقل مع زوجته وابنه . ومرت شهور فولدت زوجتـه بنتا أسماها « فردوس » ...

***

من « برمنجهام » الى « بنى سويف » ...

ان « ريتا » حانقة . ولكنها أم !..

وماذا يتلقى الطفـلان المصريان من الأم الانجليزية ومن حنـق الأم الانجليزية ؟ !

كره مصر ! وكره الأب المصرى ! وكره كل ما هو مصرى ... وبدأ « الزواج المختلط » يثمر ثمره المر . وينتج محصولا من الصبر والحنظل ...

***

وفى « بنى سويف » فتاة مصرية ناظرة لاحدى مدارس البنات ...

أخذت تشاغل سعيدا . ويشاغلها سعيد !

والدم المصرى يحن للدم المصرى ...

واستفحلت العلاقة فأصبحت غراما ...

ثم تمخضت فولدت « زواجا » ...

وكشفت الزوجة الانجليزية « الجريمة » فى نظرها فسافرت الى القاهرة وسعت سعيها الخطير ... وانتهى الأمر بالطلاق !..

وحيل بين الأم وولديها فهددت بالمقاضاة . وهددت بالنفوذ المقيم فى قصر الدوبارة . وهددت بالمسدس !..

***

ووظفت « ريتا » سكرتيرة فى مكتب أحد المحامين الانجليز . ونزلت

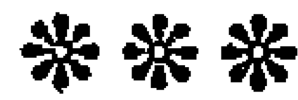
فى « كنوت هاوس » فتعرف اليها الأستاذ « شكرى » وتعرفت اليه ...

غير أنها لم تطق البقاء فى مصر وحنت الى وطنها العزيز . ووسطت « الأستاذ شكرى » فى نهو المشكلة القائمة بينها وبين زوجها بشأن ولديها. فهاله الأمر وأفهمها بروح المصرى ان الولدين مصريان مسلمان . فمن المستحيل أن تمكن منهما فى غير جو مصر . وغير الاسلام !..

وفى « الجارسونييرة » عقدت جلسات آثار الزواج المختلط . ونكبات الزواج المختلط . فلم تسفر عن نجاح !

ولكن « ريتا » انجليزية . ووراءها قشلاق قصر النيل ، والقلعة . وفى بحارها طرادات وبوارج ومدمرات . وجن جنونها اذ بلغها ان الطفلين يعانيان من عنت الست الناظرة . ومن الاهمال فى التربية . فحسمت الأمر. واستأجرت سيارة من القاهرة وأسرعت بها الى «بنى سويف» واختطفت الطفلين من على باب المدرسة !

وعلم الوالد بالاختطاف فطاردها فى الاياب بسيارة حتى التقى الخصمان فى غرفة مأمور قسم عابدين !



ودق جرس التليفون فى «الجارسونييرة» واستدعى «الأستاذ شكرى» فبادر الى غرفة المأمور ... وسمع الحكاية ...

وطلب اليه « سعيد » أن يكتب بالطريقة القانونية تنازلا عن حضانة الطفلين المصريين المسلمين للأم الانجليزية . مقابل عدم مطالبتها له بأجر الحضانة ولا بأية مصاريف أو تكاليف ؟ !

فأسر اليه على انفراد أن الأم مزمعة السفر الى انجلترا ! !

قال الأب العظيم : ليكن !

قال الأستاذ : والولدان ؟..

قال : ليذهبا حيث يشاء القدر !

قذفه الأستاذ بنظرة ازدراء رهيبة . ثم قبض على يديه بيدين مرتعشتين وصاح فى وجهه : انك لنذل ! ! !

« اننى كمحام من واجبى أن أحرر ماتريد. ولكنى كمصرى وكمواطن، ألعنك وأحتقرك ...

قال سعيد : انها امرأة شريرة . وهى تهددنى بالقتل . ولا يبعد أن تفعل . بل انى لمتأكد . فاكتب لقد صممت !..

وقالت « ريتا » : هيا .. هيا .. اننىسأسافر الى انجلترا بعد باكر وأريد أن أعد حوائجى وليس عندى وقت ...

قال الأستاذ : لن أفعل ... اننى بذلك أقضى على قومية الطفلين. وعلى دين الطفلين . وأرتكب جرما قوميا خطيرا . احذر يا سعيد وفكر وراجع نفسك !..

يجرى كل هذا فى غرفة المأمور . والطفــلان يحدقان بعيونهما المصرية الحلوة وبسذاجة الأبرياء ولا يفهمان شيئا ...

وتحرج الموقف وتعقد . ولكن « سعيد » لم يجد فى الأمر حاجة لمحام . فكتب ورقة واشترط فيها شروطه الخاصة بالمصاريف . ووقعت « ريتا » فى الحال ...

ثم نادت : كمال ! فردوس !.. فرد الطفلان : ماما !..

قالت : قبّلا « بابا » ...

فقبّلاه .. ودموع « الأستاذ شكرى » تسيل أسى وغيظا ...

واحتضنت « ريتا » الطفلين وحيت الموجودين واقتادتهما الى السيارة التى انطلقت بسرعة البرق الى المستقبل المجهول فى انجلترا ...

وانسحب « سعيد » و « المحامى » المفجوع بذل العار والشنار بعد أن خسرا المعركة . وخسرا المصريين المسلمين الصغيرين : الى ما شاء الله !..

٣ ـ سعاد . . .

كانت فى السابعة عشرة من عمرها لما زوجوها لرجل كبير من رجال البوليس . يبلغ من العمر الخامسة والأربعين ...

وكانت تحب ابن عمها . وابن عمها يحبها . ولكن أسرة الفتاة وأسرة الفتى كانتا متحدتين فى الحيلولة ضد الزواج ...

وعاشت الصغيرة مع رجل البوليس الكبير عيشة تعسة . وعجيب هذا النوع من الزواج . وعجيب هـذا الاتحاد الاكراهى بين السن الصغيرة والسن الكبيرة . وأعجب منه عندما تصل الزوجة لسن السابعة والعشرين وعندما يصل الزوج لسن اليأس أسوة بالنساء ...

كانت الزوجة الصغيرة لا تزال تحن حنين القلب وحنين الدم لابن العم حبيب القلب وحبيب الدم . وكان فتى وسيما جميلا يناسبها فى السن وفى الجمال ...

ومرت سنة ثم سنة . والفتاة لا تنسى عهدها والفتى لا ينسى عهده . وأخيرا لم تطق هى ولم يطق هو ، فدبرا معا . وتآمرا معا . وانتهى الأمر بطلاق الزوجة الصغيرة من الزوج غير الصغير ...



وتزوج الفتى من الفتاة ...

واستقر الزوجان الصغيران المحبان الجميلان فى مدينة هى عاصمة اقليم من أقاليم الدرجة الأولى ...

وكان بيت الزوجة الصغيرة أرشق بيت فى المدينة . وأنظف بيت فى المدينـة . فان الفتـاة من أصل تركى .. وكانت ربة منزل تملأه بهجة ، ونورا وهاجا ...

ولغطت سيدات المدينة بجمال الفتاة . فكانت ريحانة المجالس . ووردة أيام الاستقبال ...

ومدير الاقليم كان رجلا كبيرا . ولكن قلبه كان لايزال كقلوب الصغار

وترددت الفتاة على والدته العجوز بأمر زوجها الضابط المرءوس قياما بواجب المجاملة . وقياما بواجب الملق والدهان ...

والتقى المدير بالفتاة . فراعه أنها جميـلة جمـالا يلفت النظر ويستحق الانتباه ...

ولاحظت الفتاة فى يوم من الأيام عطفا خاصا من سعادة المدير فأجفلت وجزعت ...

وبادرت الطيبة الساذجة الى زوجها الشاب تفضى اليه بالملاحظة الخطيرة فابتسم وقال : العبى دورك ؟

قالت بهلع : ماذا ؟ !

قال : سايريه وجامليه ولكن حذار ...

قالت : يا رجل !

قال : ألا تثقين من نفسك ؟

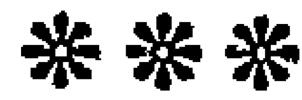
قالت : كل الثقة ...

قال : علام الخوف اذن ؟.. نستطيع أن نستفيد ...

« نستفيد »

لفظ ومعنى عثرت بهما كثيرا فى قواميس الزواج !..

لا أريد أن أحمل الطبيعة البشرية حملا ثقيلا ينفر منه الاحساس . وتمجه الأخلاق . ويأباه الدم . فأتهم بعض الأزواج الرجال بأنهم يستغلون الزوجات لأقصى حدود الاستغلال . ولكنى أقرر معتدلا أنهم يلعبون بالنار عن جهل ، وعن فرط ثقة ، وعن طيبة ، وعن قلة اختبار ، وعن ضعف مادى ، فيتسامحون ، ويتغاضون ، ويمهدون ، ويفتحون الطريق ، ويطلقون أول خرطوشة ، ولا يقدرون النتائج بعد ذلك لأنها كانت فى نظرهم بعيدة عن الخاطر البليد الغبى غير اللماح



انتاب الفتاة الذهول من هذا التصريح الخطير . ومن هذا « الاذن » المخنث ، فرشقت الزوج بنظرة ازدراء ولأول مرة تنهدت ذاكرة الزوج العجوز الرجل !..

ومهما قيل عن غريزة المرأة . ومهما قيل عن عناصر اغرائها واستمالتها

فانى أظن أنه لا المال ، ولا الجمال ، ولا خفة الظل ، بمرتفعة من ناحية التقدير الى درجة « الرجولة » !..

الرجولة هى ميزة الرجل . وهى المشتقة منه لفظا ، ولغة ، ومعنى . ولئن خدشت هذه « الرجولة » فى الزوج مرة فقل على الهناء العائلى السلام !

***

ان الضابط الصغير كان طموحا تواقا الى الرقى . وكم دفعت شهوة الرقى الى أعماق أخلاقية سحيقة . دع هذه الوسيلة الضعيفة من وسائل تحقيق المآرب والمطامع . وانظر فى الأزمات السياسية المصرية كم لعبت « شهوة الترقى » دورها اللعين العفن القذر فكانت الأخلاق هى المنكوبة. وكانت الأخلاق هى المدحورة المقهورة . وكانت الأخلاق هى الضحية وهى الفريسة ...

وسرت العدوى سريان النار فى الهشيم . فانتقلت الى العمد وشيوخ البلد ووجهاء القرى والى العمال وغير العمال فاصطبغوا بكل لون. وقبلوا كل يد . وآزروا كل حكم . ونافقوا لكل ذى سلطان ...

وشهوة الترقى ، وخشية الضرر ، ورغبة الانتقام ، كلها نزوات تستوى وتتسابق وهى وثيقة الاتصال بعضها بالبعض الآخر ، وهى اليوم المظهر النشط العامل فى حياتنا السياسية والاجتماعية ...

***

الفتاة لم تجرب الذلة بعد ...

هى الثائرة على الزوج وعلى سعادة المدير ...

ولكن المرأة الضعيفة فى كفاحها القوى تحتاج سندا يسندها ، وعضدا يعضدها ، وعاملا يقويها ويشد أزرها ...

أين هو ؟.. أهو الزوج الذى يريد أن « يستفيد » ؟..

أم سعادة المدير المحب الولهان ؟..

وتشجع سعادته فعطف على المرأة وعلى الرجل :

أما تلك فقد أغرقها بالهـدايا الذهبيـة ، والماسيـة ، والحريرية ... وبالحلوى !

وأما هذا فقد أضاف الى نجمته ، نجمة ...

وتوثقت العلاقة . وتعددت الزيارات . والفتاة تتدرج من العبوس الى الابتسام . ومن النفور الى الاستسلام . ومن القلق الى التسليم بارادة الزوج وارادة القدر ...

ولكنها لم تسقط بعد فى عرف الحقيقة وفى عرف الحق وفى عرف علام الغيوب ... هى لا تزال عفة الثوب ، نقية الازار ...

ولكنها سقطت وانتهت فى عرف الناس !

والناس فى عواصم الأقاليم لماحون ، فضوليون ، يدركون بسرعة البرق حتى لأكاد أتخيل أنهم يدركون بطريق الالهام ...

وانطلقت اشاعة فى البلد بأن سعادة المدير و « سـعاد » قد أصبحا عشيقين جسما وروحا ، ودما ... والفتاة مظلومة ...

وعواصم الأقاليم بلاد محدودة الدائرة ، ضـيقة المساحة ، محصـورة الوسط . والاشاعة قد دوت دويها ، وأنذر بها الطبل والمزمار ...

وحمل البريد الى الضابط ذى النجمتين خطابات بدون توقيع فهم منها انه أصبح محط الأنظار المزدرية ، وهدف الألسنة الشريرة فجن جنونه ، وتحركت ـ بعد طول الرقاد ـ رجولته ؟ !..



وفى يوم من الأيام دعا سعادة الحكمدار سعادة المدير الى الغداء ... ومثل هذه الولائم تجمع على موائدها كبار الموظفين وكبار الأعيان . وكان الحكمدار يسكن شقة فى الدور الثانى من عمارة . والضابط يسكن الشقة التى فوقها . وتناول المدير الغداء وشرب القهوة . ثم نهض للانصراف ...

ويشاء سـوء الحظ أنه فى لحظة نزوله على السلم هو والجيش الجرار الذى يتبعه ... ووراءهم الضابط . كانت « سعاد » تلقى بعض الزهور الذابلة المختلفة الأنواع والألوان على السلم . فسقطت على رأس المدير .

وتطلع الجميع الى فوق فوجدوا الفاتنة تلقى الزهور وتنثرها على سعادة المدير ؟ !.. أليس كذلك ؟

هو كذلك واحسرتاه . وتنتشر الحكاية بسرعة البرق فى البلدة فكانت هى تسليـــة المجالس وحديث السهرات . وانتقلت الى النســـاء فطرزتها بالمبالغات وبالمضاعفات والفتاة البريئة مظلومة !..

وكاد الفتى يصعق من هول الموقف . حتى اذا ودع سعادة المدير الى المكان المناسب عاد أدراجه وقد ثارت « رجولته » فصفع الزوجة البريئة صفعة قاسية ثم أردفها بيمين « الطلاق » !

وجمعت البريئة المظلومة العفيفة حاجاتها مطرودة شر طردة من عاصمة الاقليم . مثلومة الشرف ، ساقطة فى نظر الناس جميعا لا فى نظر الله ...

عادت الى القاهرة فارتمت فى أحضان أمها العجوز الفانية تبكى وتلطم وليس لها فى دنياها الا الأم والا ايراد ثلاثة جنيهات فى الشهر الواحد استحقاقها فى وقف يصرف شهرا ويتأخر شهورا ...



قاومت الفتاة أمواج الخضم الدنيوى المتلاطم الأمواج وكادت تظفر بخطيب . غير انه ما لبث أن اتصل بتاريخها الكاذب مع سعادة المدير حتى أفلت وفر هاربا ... وظفرت بثان وثالث فكانت العاقبة واحدة

وامتنع صرف الاستحقاق اليها بسبب نزاع جَدّ فى الوقف ، فأغلقت أبواب الحياة فى وجهها ثم جرفها التيار زهرة ندية يانعة الى حيث غيب مثيلاتها فى قاعه حتى أصبحت فى سنة ١٩٢٦ من زائرات الجارسونييرات !

٣ ـ لولو

« لولو » فى سن الخامسة عشرة . جمالها جمال صحى منتعش . هل تفهمون ماذا أعنى بالجمال الصحى المنتعش ؟

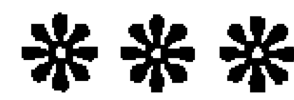
هو الجمال المدملج الرياضى المتناسب الأجزاء والتقاطيع . الجمال الذى

يثور على حياة المخادع والبيوت والذى يقفز الى شاطىء النهر ، وأشجار الحدائق ، والهواء الطلق ، والخلاء ، والذى يمشى على القدم كيلومترات والذى يجرى . وينط . ويحرك العضلات . ويملأ الصدر هواء . ويتمتع بنعمة « الشمس » عدوة الأمراض والميكروبات ...

كانت تسكن مع أسرتها فى « النيل » بجوار الجزيرة . والجزيرة فيها أرستقراطية . وجمال . وسيارات . وأمانى وأحلام ...

وهى قد اعتادت أن تتريض فى عصر كل يوم . اما على القدم أو فوق « البسكليت » ... وشاءت الصدف أن تلتقى كل يوم بسيارة فخمة فاخرة يقودها شاب فخم فاخر ...

وأدت هذه الزمالة فى اللقاء وفى النزهة الى النظر ، فالى الابتسام ، فالى الكلام ... ولكنه كان نظرا عاديا . وابتساما بريئا . وكلاما تابعا ــ فقط ــ للسان ...



فى الجزيرة أو فيما يلى الجزيرة سـيدة كان يجب أن يجللها جلال السن ووقار الأرستوقراطية وقناعة الحيـاة المسلحة باليسر وبالعمار . ولكنها نشأت ــ أصلا ــ فى بيت من البيوت الخاملة ، ثم شاء لها الحظ الطيب أن تصبح زوجة لأحد السراة الوجهاء . وأن تتربع على عرش قصر عظيم وعلى قلب زوج مستسلم . السلطة فى يمينها والمال فى يسارها والأهواء تسمم دمها وميولها ...

اذن ليصبح القصر ندوة لا للعلماء والأقطاب والساسـة والأدباء . وانما للمتعة والهوى واللذة والتسلية . وداء السيدة العضال لا يشفيه الا أن تجمع الدار الفاخرة من حين لحين بين العشـاق وجنود العواطف فى سهرات ... وحذار حذار أن تسىء الظن بوسـط الآكلين والشـاربين والراقصين والضاحكين والمتهامسين من رجال ونساء ! فكلهم من طبقات المتحررين من الدرجة الأولى والثانية ... فهناك الوزراء والكبراء وكبار الموظفين والشبان الوارثون ... وهنـاك « المقـابل » من السـيدات

الكريمات الموسرات ... ثم هناك « كمالة الطقم » من مطربين ومطربات وموسيقيين وموسيقيات ...



الشاب الفخم الفاخر ذو السيارة الفخمة الفاخرة وزميل الصغيرة ذات الجمال الصحى المنتعش فى اللقاء وفى النزهة من رواد هذا المعهد الجليل...

همس فى أذن السيدة الوقورة الغاوية الهاوية أن تدعو الفتاة وأهل الفتاة الى سهرة . وأن تدعوه وأسرته الى نفس السهرة . ليتم التعارف وليبدأ العمل !..

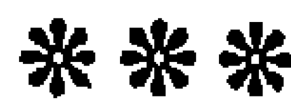
وكانت السيدة الوقورة عند ظن صديقها الشاب بمهارتها وبراعتها وكفاءتها فكانت السهرة . وكان التعارف !..

وبدأت الصغيرة تميل . وبدأت تحن الى حياة الأرستوقراطية . وحياة البذخ . وحياة اللهو الرفيع الشأن ...

ولكن يا لخيبة الأمل ! ان الفتاة قد جاءها خطيب . ولكن ليس من ذلك النوع الراقى . ولا تلك « الماركة » الـ « لوكس » ...

وأسرة الفتاة متوسطة الحال . والفتى كذلك متوسط الحال . الفتى الخطيب لا الفتى الخلاب . وتقبل الأسرة الخطبة وتسير اجراءاتها بسرعة البرق . وتحاول الفتاة أن تتمنع وأن تثور على الزواج ولكن ماذا تستطيع أن تفعل . وكيف تملك أن تقاوم والشاب الفخم الفاخر متزوج ! ولم يعرض عليها الزواج ؟ !

اذن لتخضع لحكم الواقع وحكم العقل ، ولتتمرن على أن لا تفكر الا فى خطيبها والا فى سعادتها الزوجية المقبلة . ويساعد الفتاة على النسيان أن الشاب الفخم الفاخر قد اختفى من الميدان وسافر الى « أوربا » مع زوجته لتمضية فصل الصيف . وهكذا تتوارى الآمال والأحلام ...



ويتم الزواج وتمر على عهده أربعة شهور سعيدة . هادئة . فيها حب وافر من الزوج المتواضع . وحب « ميولوجى » من الزوجة الطموحة ...

ثم يعود الشاب ذو السيارة الفخمة الفاخرة من رحلته ، ويعود وسم العمل فى قصر السيدة الوقورة ...

ويستدرج الزوج المتواضع وزوجته الصغيرة الى القصر العظيم . والى السهرات المتلألئة . والى الوسط الخلاب . فينتهز الشاب الثرى الفرصة . ويختلس اللحظات ويغازل الفتاة فى غفلة من زوجها ... وفى غفلة من زوجته ؟ !.. وتمتزج الأسرتان وتتصادقان ...

وتتكرر دعوة الشاب الثرى « للولو » فى السينما والمسارح مع أسرته فتذهب وحدها . حتى اذا ما انتهت الرواية وصلت السيارة الى منزله لتوصيل عائلته . وعادت تحمل الشاب الثرى والزوجة الصغيرة الى منزلها ...

وفى الطريق تنجلى عواطف . وتصدر زفرات وتأوهات . وتسيل دموع . والفتاة مبهورة بمظاهر اليسر . مأخوذة بسيطرتها على قلب الشاب الأرستقراطى النبيل الجميل الموسر .. فتندفع !

ويتمكن الحب من قلبها . ومعذورة هى !..

أيها الأزواج المتواضعون :

أخطر عنصر على سعادتكم الزوجية المتواضعة أن توجدوا زوجاتكم فى جو الأمانى والآلام والأحلام . وفى الوسط الراقى الباهر الساحر الخاطف للأبصار . حتى اذا عدتم الى بيوتكم الرقيقة الحال . والى « شققكم » الضيقة المجال . أخذت الزوجات المحرومات المتطلعات المتمنيات تتحسر وتتمنى وتريد ؟ !..

مظاهر العز فتنة . وأجواء اليسر مزلقة . فاحصروا زوجاتكم فى جوكم. واحبسوهن فى وسطكم . وحذار أن ترقوا بهن للسماء لحظات .. ثم تهبطوا بهن للأرض سنوات ؟ !..

***

وهكذا لعبت الفتنة بلب الفتاة . فتغيرت على زوجها وتنكرت لجوها ووسطها . وأوعز اليها الشيطان الأرستقراطى أن تبذل كل وسائلها

للطـلاق من زوجها واعدا اياها وعد النبيل الحر ، والكريم الأصيل ، أن يتزوج منها فى الحال ...

لم تكن العصمة فى يدها . ولم يكن حق الطلاق حقها . لئن كان هـذا صحيحا فى عرف الشرع وفى عرف العرف فانه لم يكن كذلك فى عرف « العمل » ...

المرأة التى تريد الطلاق . ولا تملك الطلاق . تستطيع الطلاق !..

« لولو » الصغيرة الساذجة خلق منها الحب شخصية أخرى . فهى قد أصبحت فى البيت الشر ، والثورة ، والكدر ، والتعاسة ...

ولمح الزوج المتواضـع المسكين هـذا التطور فعالجه بالرقة تارة ، وبالنصح تارة أخرى ... وبالتهـديد حينـا وبالوعيد أحيـانا ... حتى اذا ما كشف السر وكانت لديه مقدماته يئس من الاصلاح ففوض أمره للقدر ...

وكان المسكين يحبها حب العبادة . ولكن كانت له بقية من كرامة وعزة نفس . وصارحته وصارحها بالطلاق فأصبح أمره محتوما ...

وفى يوم من الأيام حضر المأذون الذى حرر عقد الزواج ليحرر صيغة الطلاق ، فى جمع من أهل الزوج وأهل الزوجة . وقد بذلت النصائح والفتى يتوجع .. والفتاة تصمم ...

ولم يملك الفتى المسكين الا أن يبكى . والمأذون يدون ويسطر . حتى اذا تمت الاجراءات سلمها ورقة الطلاق وهمس بهذه الكلمات :

« عندما تحتاجين الىّ . وأعتقد أنك ستحتاجين . تجديننى فى خدمتك »



فى الزيتون « فيللا » صغيرة جميلة مضت فيها « لولو » شهور العسل فى الحرام لا فى الحلال ...

باعت جسمها وروحها لعشيقها ... وخطيبها ... بيع السماح ...

أما المقابل فكان مجرد الوعد ... وبعض المصروف الضرورى للحياة ...

وكانت له مخلصة الاخلاص كله . وكيف لا ! ألم تكن تمهد للزواج ؟..

أما مظاهر الاخـلاص العجيب فأهمها وأخطرها أنها قطعت صـلتها بالعالم : لا بالصديقات فقط . بل بأمها وأخواتها وأفراد أسرتها . وكانت الكبرياء تحول بين هؤلاء وبين الاتصال بها فى بداية الأمر ولكن يا للقلوب الرحيمة الحنونة !..

مهما سـقطت الفتـاة فان سـقوطها لايحول بينها وبين قلوب الأم والشقيقات ...

وبذلت الشقيقات محاولات جريئة للاتصال بها فرفضت رفضا باتا : ان خطيبها أراد ! ! !

وسمعت الأم الرؤوم أن ابنتها مريضة فزحفت وزحفت حتى وقفت أمام الباب وطرقت ...

فتح الباب وعرفت الفاتح بشخصيتها فعاد يعتذر اليها : «البيك» لايريد!

وعادت الأم مدحورة مهزومة تبكى جحود البنات ...

وطال الأمر على الزواج ومشروع الزواج . وفى أثناء المطل والتسويف سقطت الفتاة مريضـة بسبب أعف عن ذكره . أما المجرم المتسبب فكان الشاب الأرستقراطى . ونقلت الفتاة للمستشفى فمضت فيه شهورا ... وولدت فتاة ! ! !

فى الشهر الثانى من شـهور المرض زارها المغرم الولهان ، والخطيب النبيل . وقد ارتسمت على وجهه علامات الألم والكدر :

قالت له : ما بك يا « حسين » ؟..

قال : مصيبة ...

قالت جزعة : ماذا ؟ !

قال : زوجتى مريضة بالكلى . وقد نصح لها الأطباء بالسفر فى الحال الى فرنسا للاسـتشفاء تمهيدا لاجراء عمليـة عند الدكتور « ماريون » الطبيب العالمى الشهير ...

قالت النبيلة الفقيرة : من واجبك اذن أن تسافر ؟

قال : نعم ...

قالت : الأمر هين . سأصبر على فراقك . وصحتى تتحسن . فان كنت تحسب حسابى فانى أقدر حرج مركزك . فلا تتردد !..

قال : شكرا ...

وتنهدت الفتاة

قال : لم تتنهدين ؟.. انى لا أزال على وعدى . وبمجرد عودتى سنعقد العقد !

قالت : انى لا أسيء الظن بشرفك . متى تسافر ؟

قال : فى أقرب فرصة . لقد أعددنا كل شيء وربما رحلنا باكر .. فاذا حالت الظروف بينى وبين زيارتك مرة أخرى فانى أودعك الآن

ارتاعت الفتاة . ولكنها كظمت الغيظ وكتمت الألم . وتظاهرت بالثبات

وتبرع النبيل الأصيل بقبلة ... ثم نهض مستأذنا ...

ولكنه ظل واقفا مرتبكا ...

قالت : صارحنى . أنت تخفى شيئا ؟.. قال : نعم ...

وانتظرت الفتاة التفسير ... ومرت دقيقة ...

قالت : تكلم ... قال : انى خجل ...

قالت : وهل بيننا تكليف ؟.. قال : لولو !.. هل عندك نقود ؟.. انى مأزوم . وعبثا حاولت الحصول على مال ...

انتصبت الفتاة الشريفة رغم مرضها وهزالها وقالت :

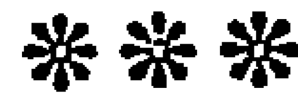
ــ نعم .. عندى ياحسين .. عندى أربعمائة جنيه فى البنــك .. مبلغ وفرته منك .. فهو مالك .. فى الشنطة دفتر الشيكات فهاته ..

وانثنى النبيل الأصيل عليها يقبلها ثم أحضر لها الدفتر ووقعت بالصرف لحامله ...

قال وهو يطويه : ثقى يا لولو أننى لن أنسى معروفك أبدا . وسأعرف كيف أرد قرضك وكيف أؤدى واجبى نحوك يا أنبل مخلوق ...

قالت وهى تقبله : أطلب لزوجتك الشفاء .. وأدعو لك بالسلامة ...

واتنهت اجراءات الوداع على أرق وأحسن ما يكون . وغاب النبيل الأصيل عن النظر ...



ان « الفيللا » لم تعش طويلا بعد خروج الفتاة من المستشفى ...

السبب واضح : ان النبيل الأصيل الذى غاب عن النظر . ظل غائبا عن النظر بشخصه وبرسائله وبصوره . وان الأربعمائة من الجنيهات كذلك غابت عن النظر وكانت كل ما تملك ...

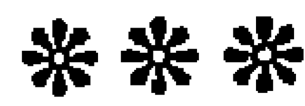
وسكنت الفتاة فى الحال شقة صغيرة وهى تصبر صبر الكرام معللة النفس بعودة النبيل الأصيل . وبتحقيق الوعد النبيل الأصيل !..

وكانت تعرف عنوانه فى « كوك » فأخطرته بحالتها وبعنوانها :

وفى يوم من الأيام دق جرس الباب . ففتحته بنفسها واذا بها أمام ساعى التلغراف ... كادت تقفز من الفرح وخصوصا عندما علمت أنه من الخارج وفضت التلغراف بنشوة السكران من البشرى وقلبها يكاد يقفز من مخدعه واذا بها تقرأ :

« أبلغك آسفا أنك حرة . انى تحت ضغط الظروف القاهرة أقطع علاقتى . أكرر أسفى » « صديقك »

صعقت الفتاة وأغمى عليها بعد صرخة تذيب الحجر . لم يكن هناك الا « ساعى التلغراف » الذى ظل واقفا ينتظر البقشيش . وكان شابا فيه مروءة فأجرى الاسعافات اللازمة حتى استعادت قواها ...



وبذلت الفتاة جهود الجبابرة لتثبت حق البنت المجحودة وليدة العلاقة غير الشرعية . فذهبت مساعيها هباء ...

وتعرفت الى الأستاذ « شكرى » فكانت من الضحايا التى قذف بها خضم الحياة المضطرب الى « الجارسونييرة » . ولمح فيها سرا . ولمحت فيه شمما . فعف وعفت . حتى كشف يوما من الأيام فى زيارة لها أن على « الشيزلونج » صوتا بريئا ينبعث من تحت الغطاء :

قال : ما هذا ؟.. قالت : دموعى وآلامى وتعاستى ...
قال : افصحى !.. قالت : بنتى ...
قال : وبنت من ؟.. قالت : بنت الشارع . بنت الزقاق . بنت القدر !..



أيهـا الشاب النبيل الأصـيل : اذا سألتمونى ماذا تشتغل « لولو » اليوم ؟ أجبتكم :
ـ ابحثوا عنها فى شارع عماد الدين ... انها تشتغل « راقصة » ! !

٤ ـ الشقيقتان

عودوا بنا قليلا الى سنة ١٩١٢

ان الذاهب الى « مصر القديمة » يرى فى المدخل قبل مستشفى «هرمل» منزلا كبيرا فى الفضاء أو فى المزارع لا أذكر جيدا ... ثم لا أريد أن أعين جيدا ... ودعونى أغالط فى الجغرافية ما دمنا نسجل الحقائق ! ! !

فى ذلك المنزل كانت تقيم عيلة كبيرة

رب العيلة موظف كبير كان يتقاضى من الحكومة مرتبا كبيرا

وكان مغرما بالزواج . وكان رجلا من « الدقة القديمة » خشنا فى مزاجه وفى طباعه . وأبى خياله السمج الا أن يجمع زوجاته الثلاث فى ذلك المنزل الكبير . وكان له من الزوجة الأولى أولاد كبـار .. هم اليوم من كبار موظفى المصالح والدواوين . وله من الزوجة الثانية أولاد كبار .. أغلبيتهم آنسات أو سيدات وابن واحد أظنه قد مات . وله من الزوجة الثالثة بنتان

الأولى كانت تبلغ السادسة عشرة واسمها « سميحة »

والثانية كانت تبلغ من العمر الحادية عشرة واسمها « احسان »

ويقطن بجوار المنزل طالب يبلغ من العمر ـ هو أيضا ـ ستة عشر عاما ، وكان اذ ذاك بالمدرسة السعيدية

وتزاورت أسرة الطالب مع « أسرات » الموظف الـكبير ذى الثلاث زوجات وامتزجت العيلتان

كانت الفتاة الكبرى فى المدرسة « السنية » وكانت معروفة بجمالها الفتان : اللون الأسمر الخمرى . والشعر الطويل مودة ذلك الوقت

وبهذه المناسبة أود فى مؤلفى هذا أن أسجل أننى من ألد أعداء الشعر غير الطويل ... أنا من خصوم الشعر المقصوص على طريقة أولاد البلد وطلبة المدارس وغواة « القصة » الأمامية من أبناء الفلاحين ... الشعر الطويل النامى جمال مستقل بذاته ، يوحى بالخشوع والاجلال ويلفت النظر وحده كنعمة ثرية من نعم الله ... له كبرياء وله عظمة وله مغناطيس ... ثم له دلال حين يختفى فيه الوجه الجميل ... ثم سحر حين يتناثر باهمال مقصود فبعضه يتدلى على الصدر . وبعضه يجثم على الكتف . وبعضه ينسحب على الظهر ... ثم له روعة حين يلعب به النسيم. ثم يأكل القلب حين يغمر العاشق وجهه بين ثناياه وحين يمسح به دموع الحب والغرام ؟ !

من عهد أن قضى الجهل وسوء الحظ على هذه الثروة قلت فى نفسى وداعا يا رمز الجمال . حين تجلى « القفا » وبرز ثقيل الظل ، ثقيل الدم ، ثقيل الوطأة على النظر ، أجرد أمرد أخضر قلت وداعا ياجاذبية !

أقول لكن الحق يا بنات اليوم : لقد انتحرتن شعرا ... وأتعس منكن حظا السيدات كبيرات السن نوعا . كان الشعر الطويل النامى يهوش نوعا ما على أنقاض جمالهن المتخلفة . فلما أجهزن عليه أجهزن — حتى — على الأنقاض ؟ !



كان طالب مدرسة السعيدية حريصا على الوجود بمنزل أسرته حين تحضر سميحة . وكانت هذه حريصة على أن تذهب حين يكون الطالب موجودا

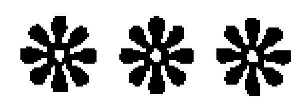
وكانت حجة « سميحة » فى الزيارات المتكررة الصداقة التى توثقت

عراها بينها وبين أخت الطالب وان كانت أصغر منها سنا بكثير . ثم كانت دائما أبدا يصحبها حارس : أختها احسان

وكم كانت « الأخت » ولا تزال ليومنا هذا « الحجة » وكم كانت ولا تزال واسطة التعارف . وصاحبة الفضل فى تكرار المقابلات ووضع الحجر الأساسى فى العواطف ... خذوا كلامى ببساطة ولا تغضبوا أيها الاخوة أشقاء كنتم أو غير أشقاء

طالما استخدمتم الأخوات فى انشـاء العلاقات . وفى تنميتها وتغذيتها وفى نقل الرسائل وفى اصلاح ذات البين . وقد يكون هذا وذاك يتجه اتجاها صالحا ولكنه قد يتجه فى بعض الأحيان اتجاها فاسدا . فى سبيل الأهواء أيها الأخوة لا تعفون ولا تذكرون أنكم تلقون أخطر الدروس على الأخوات وأنكم ترسمون لهن خطط الحب والهوى. وأنكم تكشفون لهن أسرار وسائل العشق . وأنكم تحرضونهن تحريضا حماسيا على أن يفعلن مثلمـا تفعلون وعلى أن لايرين فى الغرام شيئا يخدش السـمعة ويؤذى الكرامة ...

هذه ملاحظة عرضية لا تمت فى أصلها أو فى نتائجها بنسب الى وقائع حكايتنا ، ولكنى لم أستطع أن أغفلها وأنا أمر مرا على علاقة « الحب الأبجدى » الذى نشأ بين الطالب ــ وبين « سميحة » ...



وكان لابد من مراسلات وخطابات . أما أخت الطالب فرفضت ــ على سذاجتها ــ بتاتا أن تكون ساعية البريد . وأما أخت « سميحة » فقد التحقت بالخدمة ...

وانى أسائل نفسى مندهشا : لم يشغف العشاق من هذه السن ومن هذا الصنف شغفا عظيما بالمراسلات ؟ !.

فى درج كل طالبة وفى درج كل طالب رزم مكدسة من رسائل الحب باللغات الثلاث : العربية ، والانجليزية ، والفرنسية ... ثم بجانب هذه الخطابات صور فوتوغرافية فردية وزوجية تجمع بين العاشقين فى مختلف

الأوضاع . وقد قرأت كثيرا من هـذه الرسائل الحنونة فوجدت فيها غلوا واطنابا وتسامحا وجنونا ونزقا . ووجدت أساليبها من نوع أساليب القصص فضلا عن أنها امتازت بخيال لا يخلو من سخافات ومضحكات ... فهذه فتاة تهدد بالانتحار ــ وهذا فتى يهدد بالقتل ــ وهذه أخرى تهب نفسها هبة شرعية لصديقها ــ وهذا آخر يقترح الفرار ــ وهذه تصف حالتها النفسية وتعرض تفصيلا دقيقا لهواجس الأرق ــ وهـذا يرفق بخطابه منديلا مبللا بالدموع ! ! ..

ثم تنقطع العلاقة الغرامية بحكم الظروف أو بحكم الضرورة أو بحكم الفشل ، فتبقى خطابات الفتاة ومخلفاتها عند الفتى ، وتبقى خطابات الفتى وملحقاتها عند الفتاة . ثم يلعب الزمن الطويل دوره وتمر الأعوام والأعوام وقد تكون الفتاة قد ارتفعت الى الجوزاء . وقد يكون الفتى قد هبط الى الحضيض . وقد يكون العكس . ويظل السلاح القاسى الحاد فى يد كل طرف ، ومن يدرى كيف يستعمله ؟ !

والمحب بحسب اختباراتى العديدة فياض ثرثار . يحكى ويروى لكل صديق ولكل صديقة . وبرهانه الدليل الكتابى الذى فى يده . وكم عانت الأسر المصرية مصائب بسبب هذه المراسلات ...

هل تطمع هذه « القصة » فى أن تسدى الى المحبين الناشئين نصيحة : أن يحبوا ما شاء لهم الحب ولكن لايكتبون ! ! !



ترعرع الحب بين الطـالب وبين « سـميحة » ... وكانت الشقيقة الصغرى هى ساعية البريد . وفى يوم من الأيام حملت لأختها خطابا من نوع ما وصفت ، فضبطه الوالد الخشن وفضه وقرأه . وكانت ثورة : أما العقاب البدنى فنتوقع على الفتـاتين . وكانت الصغرى هى صـاحبة النصيب الأوفر . وصدرت الأوامر بالمقاطعة . وبمنع الزيارة . وبالاكتفاء بما تعلمته الفتاة من المدرسة ! ! ..

وعانت « احسان » الصغرى من الضرب الشديد ما عانت . وسجل

عام ١٩١٣ وراء أذنها اليمنى جرحا مزمنا لعبت فيه أيدى الأطبـاء ومن ضمنهم « نصف طبيب » فى مدرسة الطب . طالب فى السنة الثانية قدمه « طالب السعيدية » وسبب المصيبة هدية ليقوم بالعلاج . واندمل الجرح البدنى بعد زمن طويل ولكنه خلف شيئا ... علامة مادية بقيت للذكريات

تزوجت « سميحة » بعـد ذلك فانقطعت العلاقة بينها وبين طالب السعيدية . ثم فرق الزمن بين الاثنين وانسدل الستار على الذكريات ...



فى سنة ١٩٢٧ أى بعد مرور خمسة عشر عاما يدق جرس البـاب فى « الجارسونيرة » دقا رقيقا . يفتح « المتر شـكرى » الباب ويستقبل زائرتين .. احداهما كبيرة فى سن الخامسة والأربعين ، لا تستحق الوصف لأنها ليست بالجميلة . والثانية فى سن السادسة والعشرين ، جميلة من كل ناحية . صاحب «الجارسونيرة» يعرف الكبرى ولكنه لايعرف الصغرى. وجرى التعارف والصغرى تحدق فى وجه الأستاذ بشغف وفضول ...

ودار الحديث والصغرى واجمة . تسمع ولا تنبس ببنت شفة . لفت هذا الجمود نظره فوجه اليها حديثه وأخذ يحييها وهى ذاهلة . ثم كأن اغماءة نصف يقظة قد غشيتها فهى تغيب عن المجلس وعما يدور فيه . ثم تتنبه وتتأوه !..

قال الأستاذ لنفسه : ان فى الأمر شيئا

ثم قال لها : هل السيدة تشعر بتعب ؟ !

قالت بخفوت : لا ... ثم قالت : نعم

قال : بماذا تشعرين ؟ ... قالت بظرف : لا تنشغل ، الأمر هين

ثم نهضت فجأة بشكل عصبى وأشارت اليه أن يتبعها الى الصالة ...

قام وراءها وقد شغلته هذه الحركات العجيبة . وفى ركن من أركان الصالة همست فى أذنه قائلة :

هل كنت تسكن « مصر القديمة » منذ خمسة عشر عاما ؟

قال مضطربا : نعم ! .. قالت : وكنت طالبا بمدرسة السعيدية ؟

قال مضطربا : نعم !

صمتت ، ثم حدقت ، ثم هطلت دموع ثم ارتمت على الكرسى ... تناول يديها وأخـذ يهدىء روعهـا وهو لايذكر شـيئا . وهو اذ يحاول أن يستدعى صديقتها الكبرى تقبض على أنامله ثم تشدها شدا الى ما وراء أذنها اليمنى وتهمس : المس .. وتذكر !

جرح ؟ ! ... بل أثر جرح ! !

ويفيق الأستاذ من نوبة المفاجآت ويصرخ بجزع : أنت ؟ ! أنت ...

فتقول : نعم أنا ! أنا « احسان » ...

***

احسان ! .. احسان الصغرى أخت سميحة ...

وبعد خمسة عشر عاما ...

قال وقد تحركت عواطفه من قبرها الذى دفنت فيه فى سنة ١٩١٢ :

ــ وسميحة يا احسان كيف حالها ؟

قالت : مثلى ! .. قال : ماذا تعنين ؟

قالت : هكذا ... نزورك ونزور أمثالك من سكان الجارسونييرات !

وأخذت تبكى بكاء مرا وقد وقف بجوارها مذهولا متحسرا متألما وهو يقول : ما أقساك أيها القدر !..

***

وفى اليوم التالى حضرت الشقيقتان وكانت مناحة ...

لقـد مات زوج الـكبرى وخلف أولادا وخلف فقـرا ... ومات أبو الشقيقتين وخلف هو الآخر فقرا ... بقى الأخوة الرجال الـكبار الذين يحتلون اليوم مناصب الدولة الكبيرة فى بعض المصالح بالقاهرة . منهم الذى يشرف على معاهد الأخلاق ، ومنهم الذى يدير ملاجىء البؤسـاء التعساء ، ومنهم الذى يجرى الرزق على معشـوقاته ببذخ واسراف ، ومنهم الذى برز فى الهيئة بروزا ساطعا ...

يكفى أن تقول احدى هاتين لأحدهم : أنا أختك ! لتحطمه تحطيما أدبيا أبديا . ولكن يا لعواطف المرأة حين تقبر سرها من أجل الآخرين ؟ !

هؤلاء الأنذال تركوا الأختين غير الشقيقتين للقضاء وللقدر وللدنيا . ضنوا عليهما بالقوت فدفع « العرض » الثمن فلم يبالوا ! !

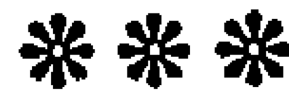
أيها الناس : لا تحتقروا بالله عليكم هذا الصنف من «ضحايا القدر» وأصلحوهن ان وجدتم مجالا للاصلاح . فان يئستم فلا أقل من العطف ولا أقل من احترام الدموع والأشجان ! ! !



ان « قصص الجارسونيرة » عديدة وكلها من لون هذا الألم النفسانى ومن نوعه . ولو احتمل المجال لقصصت عليكم مائة مأساة ومأساة ...

يعيب المتطرفون فى عالم الأخلاق الفاضلة على الشباب مثل هذا المسلك الذى يعدونه فى نظرهم معوجا ...

ولست أحاول الدفاع .. فانى ، من ذلك الرأى . ولكن لابد للكاتب الاجتماعى أن يتصل بالمجربين ليدرس وليتعلم ان لم يغمر نفسه متعمدا فى خضم ذلك البحر الرهيب . والا فمن أين يغترف النصائح وهى بنت التجربة ووليدة الاختبار ؟ !



قلت لصديقى « شكرى » بعد أن وصلت فى كتابى الى هذا الحد : هل عندك من مزيد ؟

قال : عندى الأدهى والأمر . عندى تاريخ أربعة أعوام رهيبة . ولكنى سوف أخفيه عنك الى أجل ...

قلت : ولم ؟

قال : لأنه متصل بالدولة ، وبسياسة الحكم وبالأقطاب !..

قلت : وهؤلاء ؟ !

قال : مثلى ومثلك تماما . غير أنى ، أنا وأنت ، من « الأحرار » الذين لا تقيدهم زوجة ولا عيلة ولا أولاد — من الذين لا يحملون على جباههم عنوان الوظيفة ، ولا علم الدولة ، ولا واجب الحكم — من الذين لا تتأثر بسلوكهم المعوج مصالح العباد ...

قلت : وهل من علاقة بين المرأة ، والدولة ؟ !

قال : هذا هو موضوع مذكرات أخرى فانتظر ...

فراق وخاتمة

فى صيف سنة ١٩٣٢ ظفرت « بالضاحك الباكى » فى بلاج من بلاجات الاسكندرية الثائرة فقرأت عليه قصته الاستعراضية . ووجدته قد تغيرت أخلاقه ، وقد اتزن ...

قال : أقترح عليك أن نفترق ...

قلت : لا مانع عندى . ولكن ألا ترى أن تكتب بيدك خاتمة قصتك؟

قال : حسنا ، اليك كلمتى الأخيرة :

« مواطنى الشبان :

« شاء صديقى أن يقدمنى اليكم شابا مستهترا لتنتفعوا بمآسيه ومباذله

« انى أقبل هذه التضحية فى سبيلكم عن طيب خاطر ...

« لكن تحت شرط :

« أن تقبلوا منى نصيحتين اثنتين :

الأولى : أن تتزوجوا قبل الخامسة والعشرين ...

الثانية : أن لا تشتغلوا بالسياسة قبل الخامسة والثلاثين ...

والى اللقاء ... »

« شكرى »

المرحلة الثانية من

الضاحك الباكى

لقاء

قابلته ... قابلته وأنا أحمل محفظة ضخمة ...

قال : « ما هذه ؟ » ، قلت : « مسودات ... »

قال : « مسودات ماذا ؟ »

قلت : «كتابك الثانى : الضاحك الباكى قصة حياتك «الوسطى»...»

قال وقد ارتسمت عليه كآبة لم أعهدها فيه : « ومن يا ترى يكتب الخاتمة ؟ »

قلت : « ان عِشْتَ أنا ... فأنا ... أنا الذى أدونها ... »

قال : « وان ..؟ » قلت : « تكتبها أنت ! » قال : « فان متنا معا ! »

قلت : « اذن وا أسفاه . سوف يحرم القراء المصريون ، والجيل المصرى الحاضر ، والقادم ، من شىء مثير ... »

قال : « أجاد أنت ؟ هل دونت « قصتى الثانية » بعد « قصتى الأولى » ؟ »

قلت : « نعم . وها هى ذى ! »

قال : « وهل كنت أمينا ؟ أو هل استطعت أن تكون أمينا ؟ ان أبطال قصتى أحياء . ومنهم زعماء ، وأقيال ، وأقطاب ، وأحزاب ، وبرلمانات ، ومنهن .. نعم منهن ... فكيف تجرؤ ؟ ! وكيف تغامر ؟ »

قلت : « نحن فى عهد الجمهورية ... »

قال : « وهل استطاعت الجمهورية أن تخلق خلقا جديدا فى عامين أو أكثر قليلا من عامين ؟ »

قلت : « دعك من هذا . فهل توافق على النشر ؟ »

قال : « اقرأ أولا ... »

عرفتموه ... أليس كذلك ؟..

هو أستاذنا « شكرى » بطل قصة « الضاحك الباكى » الذى ظفر برواج عجيب . فطبع أربع طبعات . ونفدت نسخ الطبعات الأربع من السوق

ولقد قابلت « الأستاذ شكرى » فى ناديه الذى يعشقه ويتدله فيه . وسألته فى هذا الوله فقال :

ـ ألا تدرى أن عشق الجماد ـ أو عشق ما يشبه الجماد ـ من حقول أو بيوت أو أحياء أو نواد لايقل عن عشق الآدميين والآدميات!

قلت : « كيف ؟ »

قال : « ان الحب هو الذكريات . وفى هذا النادى ذكرياتى كلها ، ومسراتى كلها ، وأحزانى كلها ، وماضىّ كله ، وحاضرى كله ، وربما مستقبلى ... فكيف لا أعشق نادى الذكريات ؟ ! »

قلت : « وهل عشق الجماد كعشق الانسان ؟ »

قال : « بالضبط ! نفس الدلال ، ونفس الصد ، ونفس الوصل ، ونفس الخصام ، ونفس التجنى ، ونفس الهوان ، ونفس العذاب !

***

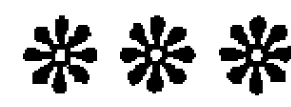
« لقد أوشك الرئيس السابق مصطفى النحاس فى أحد عهود حكوماته أن يقفل هذا النادى وأن يبدد شمل أعضائه لأنه كان ـ يوما ما ـ مصدر عناء للوفد فلما ذكروه بسنة ١٩١٤ ... ولما أعادوا شيخوخته الى فتوته وصباه ... ولما تخيل نفسه وهو يحمل مضرب التنس ويجول حول الشبكة ويصول ... »

قلت : « ماذا ؟ »

قال : « حن حنينه ، وخفق قلبه ، واستعاد الذكريات فلم تقفل الأبواب ، ولم يتبدد الشمل ، وعاش النادى الأهلى وعشنا . وما الحب ؟ ما الغرام ؟ انه يبدأ لذة ... ثم عاطفة ... ثم عادة ... ثم عشرة ... ثم ينتهى الى ذكريات

« وسواء أكان المحبوب أو المعشوق جمادا ، أو انسانا : فالوضعان سيان ...

« والخلاصة أن الآدمية ليست هى ـ وحدها ـ التى تحتكر تلك العاطفة العجيبة وهى عاطفة الحب ، وانما يشترك فيها الجماد والحيوان ولا أريد أن أفيض فى حب الناس للكلاب ، والقطط ، والطيور ، والخيول ، وحتى الثعابين ... »



أذهلنى هذا البحث العجيب الذى أفاض فيه « الضاحك الباكى » ـ الأستاذ شكرى ـ فأخذت أفحصه فحصا دقيقا وكنت قد غبت عنه فترة طويلة ...

ان الكهولة لم تغير معالمه كثيرا . بل ربما بدا عليه شىء أكثر من الاشراق ، والتجمل أو الجمال ، وافاقة من افاقات الصحة ، ولمعة من لمعات التجلى والمرح ؟ !

غير أن أحد أصدقائى وأصدقائه « الدكتور نبيه كامل ـ من هواة التصوير الزيتى ـ قد عرض علىّ صورة زيتية كبيرة للضاحك الباكى أخرجتها ريشته ، فلما رأيتها وجمت ! انها صورة رهيبة ليست فيها ابتسامة ولا « شبه ابتسامة » !

فقلت للفنان محتجا : « ان « الأستاذ شكرى » أعذب من هذا وأحن ؟ ! »

قال الفنان : « ويحكم ! انكم لا تعرفونه ! ان مرحه مظهر! ولكننى أبرز الباطن على الوجه ولا أحفل بالظاهر ! ان صاحبكم يحمل فى قلبه ـ لا على وجهه ـ آلام الدنيا ومتاعب الحياة ولكنه ممثل ، يلعب على خشبة المسرح ، أو على الشاشة البيضاء فيخدعكم ولا يخدع نفسه ! »

كنت أعلم هذا كله . بل كنت أعلم أكثر من ذلك أن من علامات متاعبه وآلامه انه يبالغ فيما تعارف الناس على تسميته بالمجون مبالغة

فى تضليلهم ! أو مبالغة فى ابراز « شخصية مزدوجة » نصفها للناس ، ونصفها له

هذا هو « الضاحك الباكى » الذى أنشر تاريخه « الوسط » ، بعد أن نشرت تاريخه فى الجزء الأول حتى سنة ١٩٢٤

دفعت له « بالمسودات » ليراجعها ، وليسمح لى بنشرها ولكنه بعد أن أخذ يتلو الحلقة الأولى وقف عند « سعد زغلول » وقفة طويلة ، مترددة ، حيرى ، ثم قال :

ــ عند هذا أقف ! سأفكر فيما كتبت ثم أبدى لك رأيى ...

قلت : « لماذا ؟ »

قال : « انى أتهيب التاريخ . انه وديعة الحق لدى الذمة والضمير . وأنت فيما تكتب تحمل رأيى فى الناس الى الناس . وأى ناس ؟ كبار ضخام مثل سعد ، وعدلى ، ورشدى ، وثروت ، وصدقى ، فهل أنت واثق من نفسك وقلمك ؟ »

قلت : « لم أفهم ! »

قال : « هل أنت واثق من « أمانة المؤرخ » ؟ أو هل اذا وثقت من أمانة قلمك ، فهل أنت واثق من أن هذه الأمانة تستطيع أن ترصد الصحيح ، النزيه ، العادل ؟ »

قلت : « ولم لا ؟ »

قال : « الجو ... جو النفاق والخوف ، جو السير على « قشر البيض » ... »

قلت : « وما علاقتنا بهذه الأجواء ؟ »

قال : « تغير الرأى . وتغيرت الأوضاع . ونشرت سيئات ولم تنشر حسنات . وليس الذنب ذنب الحكام . وانما الذنب ذنب المنافقين ، الذين يتعرضون لسرد تاريخ الناس، وبيعه ، حسب هوى «السوق»...»

قلت : « وهل كلانا ــ أنا وأنت ــ منهم ؟ » قال : «من يدرى ؟»

رغم هذا اللجاج أثقلت على بطل قصتى أن ينشر ! أن يملى علىّ وأن

يفضي . ولقد نجحت ... فقبل ! وربما على مضض . ولكنه تورط ، ومن أخلاقه أن يتورط ، ولكنه سألني : « من أى تاريخ تريد أن تبدأ ؟ »

قلت : « اننا على أبواب « انتخابات » . ألا يحسن أن تبدأ من حيث بدأت معركة الانتخابات الأولى فى سنة ١٩٢٤؟ ان ذلك كان تطورا مصريا ، وانتقالا من حكم الفرد الى حكم المجموع ... » ، قال : « ليكن ... »

١ ـ هدية من مواطنة

نحن الآن فى سنة ١٩٢٣ . أى نحن الآن منذ نحو خمسة وثلاثين عاما . وقد لمع اسم « الأستاذ شكرى » بطل القصة لمعانا سريعا فى عالم الصحافة ... لا الصحافة المحترفة وانما الصحافة الهاوية , وقد وصفوا أسلوبه بأنه الأسلوب « السهل الممتنع » كما قال الكاتب الكبير داود بركات فى مقدمة مجموعة مقالاته الأولى . أو كما قال الأستاذ الكاتب الأديب الكبير الشيخ عبد العزيز البشرى انه ككاتب لازم لزوم «الكافيه ريش » للمقيمين فى القاهرة . ولازم لزوم « سان ستفانو » للمصيفين بالاسكندرية . أو كما قال الشاعر العبقرى معجزة العصر الحديث أمير الشعراء شوقى :

تلك الرسائل لو شكوت بها الهوى عطفت على أهل الهوى الأحبابا !

ما سر نجاح « الأستاذ شكرى » الفتى المتطلع للحاضر الزاهر ، والمستقبل الباهر ؟

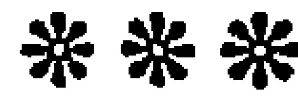
لا شىء ...

كان اذ يكتب يكتب بروح طبيعية لا تكلف فيها ولا تصنع ! وكان قدريا يسخر من الآلام والأحزان ، فبدأ أسلوبه قويا ساخرا تتقبله النفوس لأن أغلبها متوجع مكلوم حزين ... وصقله المران ، وشجعه التشجيع كلما سمع باعة الصحف يشقون حناجرهم باسمه فى الشوارع والميادين !

وكلما هطل عليه مطر غزير من برقيات التهنئة ورسائلها ! وكلما ترجمت له الجرائد العالمية الخارجية والأجنبية المحلية بعض مقالاته !

ضخم أمره فى هذه الناحية ضخامة أضخم من سنّه ومن كفايته . ولكن غروره العادل لم يطغ على قدريته وسخريته بنفسه قبل سخريته بالناس فكان التواضع فيه سليقة ، وطبعا .. أو قل انه مثل التواضع تمثيلا فأجاده وأتقنه كما لو كان جورج أبيض فى دور « لويس الحادى عشر » أو كما لو كان يوسف وهبى فى دور « راسبوتين » ولا يزال الفتى الناشىء يذكر كلمة أستاذه الكبير « محمد زكى على » اذ قال : « لا تتعجل المجد يابنى » !

وخير نصيحة تسدى للموهوبين قبل الأوان هى هذه النصيحة : لا تتعجلوا المجد ! لا ترتقوا السلم قفزة واحدة وانما درجة ، درجة ، درجة ... حتى تصلوا



فى ذلك التاريخ ، سنة ١٩٢٣ ، ضج القراء ضجيج الاستحسان لمقال نشر بتاريخ ١٣ مارس سنة ١٩٢٣ عنوانه : « عيد الاستقلال » قال فى مقدمته :

« يا ذوى المروءة والنجدة ! يا أهل الكرم والاحسان ! أغيثونى .. أدركونى ! أخوكم ... محسوبكم ... عبدكم ... كاتب هذه السطور فى حاجة الى « فص » من الحشيش الهندى الأصيل ، والى كمية من المنزول « الغزالى الجميل » والى كافة أنواع المكيفات المخدرات « المنومات » فمن أراد التفضل بمد يد المساعدة فليقدم الهدية فى صباح ١٥ مارس ... لأتعاطى أولا ... ثم لأحتفل ثانيا بعيد الاستقلال !

« ليحيى ١٥ مارس ، وليحيى شقيقه ٢٨ فبراير ، وليحيى أبوهم أول « ابريل .. » !

نشرت هذه المقالة فى ١٣ مارس ثم عقبتها مقالة أخرى فى ٢٥ مارس موجهة الى « اللورد اللنبى » فكانت النيابة وكان التحقيق ... كانت

الانتخابات العامة على الأبواب لأول مرة فى التاريخ المصرى . بعد ذلك « الاستقلال المزيف » الذى كان موضــوع المقال الأول والثانى ولم يكن بطل هذه القصة من المؤمنين بالنظام البرلمانى وما يتبعه من انتخابات ، ولا يدعى « الأستاذ شكرى » انه صاحب الفكرة . وانما تأثر بها من حديث له مع أحد عمد البلاد فى اقليمه وكان رجلا مرهف الحس برفع النظر عن الثقافة والتعليم ... اسمه « البخشونجى » ... قال له :

ـ أسمعت يابنى عن « القنبلة ؟ »

قال له شكرى : « أية قنبلة ياعم بخشونجى ؟ »

قال : « القنبــلة التى يريد أن يفجرها الانجليز فى بلادنا التعســة المنكوبة ! »

قال له : « زدنى شرحا ياعم بخشونجى »

قال : « الانتخابات ! »

دهش الشاب وانطلق البخشونجى يقول :

« سأتنبأ لك كما يتنبأ المنجمون ، وضاربو الرمل وقراء طوالع الملوك : ستمزق الانتخابات القرابة ، والنسب ، والجوار ، وستفرق بين الأسر ، وستخلق الحزازات وتخلف الثــارات ! وستفسد القلوب والجيــوب ! وستلوى العنان فلا نكافح الاحتلال وانما يكافح بعضنا البعض الآخر فى سبيل الحكم ! كيف يعيش برلمان مع احتلال ؟ ! »

قال له الشاب : « فال الله ولا فالك ... »

قال : « فالى من فال الله وسوف ترى ... »

وصدقت نبوءة العمدة ، ورأى « الضاحك الباكى » فى مدى ثلاثين عاما كيف دمرت « القنبلة الانجليزية » وحطمت وبددت وخربت وشردت الى أن كان ما كان وما سيكون ...

وما سوف يكون ...

ومع ذلك . .

لعب الغرور برأس الفتى الناشىء فقرر أن يقتحم المعركة الانتخابية الأولى فى التاريخ المصرى ... وأذاع منشوره الأول فى ٩ مايو سنة ١٩٢٣ فى مقال تحت عنوان : « خطبة مرشح » جاء فيه :

« تالله لو شرفتمونى بانتخابى عضوا فى البرلمان لأخرجت الانجليز قبل الأوان ولنظفت منهم كل مكان لنعيش بعدهم فى «أمان» و «اطمئنان»

«تالله لوشرفتمونى بانتخابىعضوا فى البرلمان : لفرضت للعمد مرتبات، كرؤساء النيابات ومديرى الادارات . ولأعفيتهم من المحاكمات والجزاءات ، ولجعلت كلا منهم « ملكا » لا يخضع لقرارات أو تعليمات !

« سعر القطن أيها المزارعون ، ذلك السعر الهابط الى أسفل سافلين ، سأعلو به الى أعلى عليين .. ولن تمضى بعد انتخابى عدة أيام وليال ، حتى تبيعوه بمائتى ريال !

« نعم ... نعم أيها الملاك المحملة أطيانكم بالرهون والديون : سأقف وقفة الليث الغضنفر للبنك العقارى والزراعى فألزمهما الزاما بالتنازل عن الأقساط هذه الأيام حتى تتحسن أحوالكم ... تمام » الى أن قال :

« انتخبونى .. انتخبونى .. ولكم عند الله الثواب وحسن المآب »

من هذا الأسلوب ومن هذه الروح كان ايمانه بالحياة النيابية فى ظل الاحتلال كفرا ! وكان أمله فيها خوفا وذعرا ! وليس الفضل فضله وانما فضل « البخشونجى » ... ومع ذلك ، ورغم ذلك ، صمم على اقتحام المعركة ليتفرج

ولـكن

كانت سنه دون الثلاثين بكثير ، وقانون الانتخاب يشترط الثلاثين ! كيف يضيف الى عمره بضعة أعوام ؟ مسألة بسيطة لفتوا نظره الى أنه من « سواقط القيد » ! وان قريبه « عم الشيخ عطية أبو عوضى » أسقط القيد متعمدا حين ولد لكى يفر من « عشرين جنيها » هى البدلية ليزوغ من « الجهادية » ... ثم لفتوا نظره الى قانون عجيب . واجراء أعجب . فبادر الى قسم الأزبكية وقدم شكوى ضد والده بأنه قصر فى قيد اسمه فى دفتر المواليد . وحرر « الباشجاويش أعجمى » محضر مخالفة وذكر فيه أن سن الشاكى ثلاثون عاما تماما ! وانه ولد فى سنة كذا ، وقدم محضر المخالفة الى محكمة المخالفات فحكمت على والده « بعشرة قروش صاغ » ! واثبات اسمه فى دفتر المواليد بالعمر الذى اخترعه ! والسنة التى اختارها ! والحكم لا معارضة فيه ولا استئناف وبهذا توافرت له السن القانونية للترشيح ! !

تلك كانت مهزلة من مهازل التشريعات والاجراءات تنبهوا اليها وصححوها وعدلوها

الفلوس ..!

بقيت مشكلة أخرى وهى مشكلة الفلوس : التأمين ! النفقات ! الرشاوى ! الى آخره ...

هنا كان بطل القصة محاميا ناشئا لم يكد يستقل بمكتبه فى اقليمه منذ سنتين ، وكان فى ثورة شبابه متلافا فلم يكن يملك « رصيدا » أو « احتياطيا » يقتحم به المعركة العاتية ! وضد من ؟ ضد سعد زغلول !

كان لابد له ــ على الأقل ــ من خمسمائة جنيه تحت العجز والزيادة ! أين هى ؟ أين هى ؟ أيقترض ؟ من يقرض ؟ أيأخذ من خزينة

« حزبه الوطنى » ؟ ما أكرمها ! انها كانت خزانة « خاوية الوفاض »!
والده ؟ انه كان برا بابنه لايريد له هـذه الجولة فى مستهل حيـاته !
أصدقاؤه ؟ كانوا مثله وهو لا يحب أن يستدين !..

هنا يبرز الوفى الأمين ذو المروءة والنجدة ! المضحى ! الكريم المغدق!
من هو ياترى ؟

فكروا ... « خمنوا » .. جربوا فراستكم .. أجيبوا .. من هو ؟

لقد عجزتم !

انه :

الحب !!

يستخف الـكثيرون بالحب ! لأنهم لم يجربوا الحب الوفى ... الحب الكريم ... الحب الشهم ... الحب المضحى ... الحب المنجد عند المأزق أو عند الحاجة ...

فى ليلة من ليالى القـاهرة ، دق جرس الباب فى شـقة متواضعة كان الأستاذ شكرى يقطنها فى « غمرة »

فتح الباب واذا به يرى أمامه صديقته ، أو بعبارة أصح خطيبته ــ « ع » ... وجلست وجلس ...

ثم أخرجت منديلا ملفوفا ودفعت به الى المائدة .

قالت له : « افتح ... »

فتح ... ولدهشته وجد :

١ ــ سوارا من الماس ...

٢ ــ حلقا ...

٣ ــ خاتما ...

قال لها : « ما هذا ؟ »

قالت : « هدية من مواطنة الى « وطنى » يجب أن يخدم أمتـه داخل البرلمان ... وأسرع يقبلها شاكرا ...

كفاح فى سبيل كرسى البرلمان

نظر « شكرى » الى « المصاغ » المطروح على المائدة نظرة حيرى ! ونظر الى صاحبته نظرة حيرى ! هل يجيز الحب ، مهما بلغت حرارته ، أن تكتتب امرأة لرجل ؟

هل يجيز الحب ، مهما بلغت مروءته ، أن يشيد الرجل مجده على مال امرأة ؟

أتستحق « ع ... » الشكر أم التأنيب ؟

وأسرعت الآنسة « ع ... » فقطعت عليه حيرته وقالت : « ماذا » ؟

قال : « عجب ! » قالت : « وأى عجب ؟ »

قال : « أن أبيع « اسورتك » و « حلقك » و « خاتمك » لكى أصبح نائبا ! ولكى أمثل أمة ! »

قالت : « أتفضّل أن تقترض من « مراب » بالفائظ ... على أن تقترض من حبيبتك ، أو خطيبتك ؟ »

قال : « ولكننا هنا يا آنسة لا نقترض ، وانما نبيع مصاغا أو نرهن مصاغا . وهذا استهلال نبيل وجليل وجميل لشاب ربما أصبح واحدا من مائتين يمثلون ملايين »

قالت : « أهذا هو تفسيرك ؟ »

قال : « نعم ! انك تريدين أن تصنعينى ... »

قالت : « ليكن ! كم صنعت النساء فى التاريخ رجالا ! كم صنعت آدم ومن تبعه من أبنائه ، رسلا ، وأنبياء ، وملوكا ، وفلاسفة ، وأدباء ، وشعراء ، وسياسيين ، وزعماء ، وقادة ، ودولا ، وأمما ... أليس الحب هو « رأس المال » تارة — و « الوحى » تارة أخرى — و « الشركة » حينا — و « التعاون » أحيانا ؟ »

قال : « ولكن هنا ... هنا بيع مصاغ أو رهن أساور ، وحلقان ، وخواتم ... اننى أرفض ! »

وأرادت أن تستأنف ، ولكنه عودها باشارة حازمة ، وايماءة حاسمة ، أن تقفل باب أى موضوع يحدث فيه بينهما نقاش ولجاج ...

وعاد الى مكتبه المتواضع فاستدعى وكيله وقال له :

ــ توكلنا على الله وقررنا أن ندخل الانتخاب . ولقد جرت تقاليدنا فى قبول القضايا على أن تقبل السمين ونرفض الغث . ولكنا نحتاج الى نفقات انتخابية ، فلنحطم مبدأنا وتقاليدنا ولنقبل التوافه مهما تراكمت .. والنوافل مهما تكدست ، والله هو المعين !

وقد كان ...

واستطاع « شكرى » ــ بالقطاعى ــ أن يزود نفسه بالمال اللازم للمعركة الانتخابية ...



جدت مشكلة ثالثة غير مشكلتى السن والمال : أين يرشح نفسه ؟ انه ــ حقيقة ــ من أسرة كبيرة لها عصبية ، وأنصار ، ومحبون ، ونفوذ... ولكنها أسرة مكونة من « بيوتات » كل بيت منهـا حريص على أن لايسمح لغير أولاده بالتسلل الى منطقة نفوذه ، هو أولى وأجدر ! ثم هو يؤثر مصالحه المختلفة المنوعة على أن يتركها فى يد غيره ولو كان من لحمه ودمه ! هذا منطق ! وهذا عدل ...

أما « النموذجية » فتقول : « اختاروا الأصلح » ! ولكن ما أغبى النموذجية وأجهلها : من الحكم فى هذه الصلاحية ؟ وما العمل اذا كان الكل أو البعض صالحا ؟

اذن : فدوائر الأسرة الكبيرة ، ذات اللحم والدم والعظم والعصب ، لا تكفى كل بيوتاتها ومرشحيها . فكان على « شكرى » أن يبحث عن دائرة تكون أبعـد عن اللحم والدم والعظم والعصب . وأبعـد عن الاحتكاك والارتطام . وهل يسع الاقليم كل الفرسان ؟

لجأ الى الصحافة فنشر فى ٢٣ مايو سنة ١٩١٣ هذه الكلمة :

اعلان مهم

ـ هل عندكم دائرة ؟

« شاب فى مقتبل العمر ، فى سن الثلاثين ، متين العضلات ، معتدل القوام ، من أسرة طيبة ، حسن السير والسلوك ، حامل لشهادة الليسانس ، يشتغل بالمحاماة ... يرغب فى ترشيح نفسه للبرلمان ولكنه لايجد دائرة . فهل عندكم دائرة ؟

« جهورى الصوت ، موزون عند اللزوم ، و « حمقى » عند اللزوم ، عضو بالحزب الوطنى ، من تلاميذ مصطفى وفريد ، من طلاب الحقوق الكاملة : مصر والسودان والملحقات ! متيم بمبدئه ، متعصب لعقيدته ، ولكنه لايجد دائرة ، فهل عندكم دائرة ؟

« قاوم مشروع ملنر يوم كان الناس يعبدون مشروع ملنر . انتقد ـ على ضعفه ـ « سعد زغلول » على قوته ـ و « عدلى » على عزته ـ و « ثروت » على سلطته ـ وكان أجرأ مصرى على «اللنبى» الجبار ، صاحب الحديد والنار ، ومدوخ سوريا وفلسطين ، والحاكم بأمره فى المعتقلين والمنفيين والمسجونين ، ولكنه لايجد دائرة ... فهل عندكم دائرة ؟

« متواضع ، منكسر ، لايتدلل ، فلو اخترتم له المحاريق لرشح نفسه فى المحاريق ، ولو اخترتم له سينا وأقسام الحدود لقبل سينا وأقسام الحدود ، ولو اخترتم له طره لزج بنفسه فى طره ! فهل عندكم دائرة ؟

« رشح الجميع أنفسهم فخلت غرف المحامين من المحامين ، وأقفرت الوظائف من الموظفين ، وهجر العيادات الأطباء من جراحين وباطنيين ، وجلا المزارعون عن الطين والفدادين ، حتى المساجد نبذتها طائفة المأذونين والمؤذنين ... فهل عندكم دائرة ؟

« أنتظر الجواب . ولكم عندى الأجر وعند الله الثواب ! »

نشرت هذه الكلمة ولم تمض أيام حتى هطل عليه مطر من الولائم والعزائم . من أفراد خالوا أو تخيلوا أن الدوائر ملكهم فعرضوا على الراغبين . وشكرا للمحسنين !

انما راقت فى عينيه « عزومة » من هذه العزائم : وصل اليه خطاب من بعض أهالى « دائرة ب ... » يقولون فيها : « هذه أصلح دائرة لك : فيها قبور أجدادك — ورفات أسلافك — وفيها عصبية قديمة عربية من قبيلتك يوم وفد الوافدون من أصلك الى مصر من الحجاز . فأنت أولى بها وأحق ... »

كلام جميل ، وكلام معقول .. على رأى « ليلى مراد » فى أنشودتها السينمائية المشهورة يوم تكاثر عليها الخطّاب ...

وهرول المرشح الصغير الى « الكتبخانة » فراجع « المقريزى » — والعقد الفريد — والجبرتى — وراجع حجج الأوقاف — والجرور «جمع جرو» وحقق التاريخ القديم والحديث ، حتى تحقق أن هذه الدائرة بالذات فيها — حقيقة — قبور أجداده ، ورفات أسلافه ، وعصبيته فقرر أن يعلن ترشيحه فيها ...

منافسوه

كان منافسوه ثلاثة : أولهم رجل ثرى يملك هو وعيلته المحدودة المعدودة أربعة عشر ألفا من الفدادين . ثم هو فوق ذلك مرشح «الوفد» الرسمى أو بعبارة أصح مرشح سعد زغلول — وثانيهم تاجر كبير ، ووفدى كبير ، يقبض على ناصية « البندر » وعدد ناخبيه يكاد يكون نصف الدائرة — وثالثهم هو الصلب والعصب ! هو عميد العشيرة والعصبية التى اعتمد عليها مرشحنا الصغير وحسب حسابها فى عملية التصويت !

كيف يكافح الشاب الناشىء كل هذه الأطيان ، والثروات ، والعصبيات ؟ وماذا تجديه قبور أجداده ، ورفات أسلافه ؟ وكيف يكافح « الوفد » و « سعد » ؟

قال له القائلون : « بالمبدأ ! »

نعم : المبدأ ! مبدأ الحزب الوطنى ، مبدأ لا مفاوضة الا بعد الجلاء ، مبدأ وادى النيل لا يتجزأ ، مبدأ لا وصاية ولا حماية ولا معاهدة ! وتسلل الى الذهن الناشىء أن الكلام كلام جميل ، ومعقول . وأن كفاح المبادىء لابد أن ينتهى بنصر للمبادىء !

كانت التجربة الانتخابية هى التجربة الأولى بمصر ، وكيف يجوز لرجال المبادىء أن يجزعوا ، أو يرتاعوا ، أو يتقهقروا ! وكان المرشح الصغير كاتبا ذائع الصيت ، وخطيبا مهمته الكلام بخلاف منافسيه .. فله من بنانه ، ولسانه وايمانه ما يغنى عن المال والثروة والعصبية ...

فى السرادق الأول !

وكان لابد له أن يضرب ضربته الأولى بجرأة وشجاعة ، فأعد سرادقا فسيحا دعا اليه الألوف ، وتسلح بخلاصة من أبرع الخطباء والشعراء من أصدقائه . وافتتحت الحفلة الأولى بتلاوة لم تستغرق خمس دقائق من القرآن الكريم — ولكن المقرىء حفظه الله قبض ثمن هذه الدقائق الخمس ستين جنيها لأن أسرته فيها ستة مندوبين ناخبين !

وبدأ الخطباء والشعراء يلقون خطبهم وأشعارهم محللين « المرشح الصغير » ، ومحللين مبدأه وخطته !

ثم جاء دوره فما كاد يلقى أول عبارة حتى استمع الألوف الى صوت مظاهرة من الحديد والنار ! أى والله من الحديد والنار !

أحاط خصومه السرادق بطائفة من الحدادين أخذوا يدقون ، ويطرقون ، ليعوقوه عن الاستمرار فى خطابته ! ولكنه استطاع أن يجتاز هذا

الاستقبال الكريم بدعابة أسكتت الطارقين وغيرهم من بين أفراد « الأسرة الكريمة » وانتهت خطابته وسط تهليل وتكبير

ولكن ...

ظهر تمرد فى الصفوف الأخيرة ، وصاح الصائحون ، وتشنج المتشنجون ، وتهيج المتهيجون وبيد عشرة منهم أسئلة واستجوابات محرجة يوجهونها للمرشح وكلها غمزات ولمزات ...

وهمس أقرب المقربين الى المرشح فى أذنه قائلين :

ـ أتدرى من « موضب » مظاهرة الحدادين ومن الموعز بالأسئلة والاستجوابات ؟

قال الأستاذ شكرى : « من ؟ »

قالوا : « هو صديقك وزميلك وعزيزك : « على أيوب » .. ! »

فرح فى قصر الدوبارة

جاء بعض أقاربه الشبان يضحكون ذات يوم ويقهقهون ، كان قد أوفدهم الى بعض القرى ليحصلوا له على توقيعات « التزكية » اذ كان الانتخاب الأول انتخاب « مندوبين ناخبين » . وكانت « التزكية » ضرورية ...

سألهم : « علام الضحك » ؟

قالوا : « صديقك ... حبيبك ... محسوبك ... « عم الشيخ خليل » عمدة القرية ... »

قال : « ماذا ؟ »

قالوا : « عمك الشيخ خليل » الذى تترافع فى قضاياه مجانا ... والذى تمده بين حين وآخر بالمساعدات والمعاونات ... والذى أنقذته أكثر من مرة من لجان الشياخات ... والذى لا يقسم الا بك ... »

قال : « ماذا ؟ »

قالوا : « توجهنـــا اليه أولا وقبل غيره لنفتتح قائمة « التزكيات » بامضائه . وليتشجع الآخرون ... »

قال : « ثم ... » قالوا : « لا شيء . قال لنـــا بصـــوت أجش : عنى ! (بتشديد النون) ... » ثم ضحكوا وقهقهوا ...

قال لهم : « وما معنى (عنى ، هـــذه !) » قالوا : « يعنى ... ابعدوا عنى » قال : « مستحيل ... »

قالوا : « بل اسمع ما هو أدهى وأمر ... قلنا له : « شكرى » ياعم الشيخ خليل . « شكرى » حبيبك ... صديقك ... محاميك ... »

فقال : « بلا « شكرى » بلا زفت ! ورفض أن « يزكى » . ولم يعزم علينا بفنجان قهوة »

قال وهو مبهوت : « حسن . هذا هو الاستفتاح الجميل ... »

وكان قد أودع عدة أوراق تزكية عنـــد أحد العمـــد الكبار ممن نربطهم به صلات وثيقة ، ليملأها بتوقيعات المزكين من المندوبين الناخبين. ومر عليه بعد أسبوع ، فسأله عنها ...

قال العمدة الكبير : « الأمانة موجودة » .. وقدم الأوراق « على بياض » !

قال له : « أين التزكيات ؟ أين التوقيعات ؟ »

قال العمدة الكبير : « والله عندهم طلب بسيط ... »

قال : « ماهو ؟ »

قال : « حاجة بسيطة خالص . بيقولوا : بس يجيب لنـــا كرت من سعد باشا زغلول » !

وأعد مرشحنا حملة كبيرة من قواد وضباط ، وصف ضباط ، وجنود الحملات الانتخابية . وتسلح بكل أسلحته من خطب ومقالات ، وكتب وموسوعات ، وزحف بجيشه الى بلدة كبيرة يتزعمها رجل محترم اسمه « الشيخ فرج ... »

ووقف مرشحنا يخطب فى أهل البلد ساعة ونصف ساعة ، شارحا مبادىء الحزب الوطنى ، وجهاد مصطفى وفريد — ولم يغفل واقعة معروفة من وقائع التاريخ ابتداء من سنة ١٨٨١ حتى وفاها حقها ، ووفّى الحزب الوطنى حقه ، وصفق السامعون طويلا ، وهتفوا بحياته كثيرا ، وفى مقدمتهم زعيمهم « الشيخ فرج »

وجلس وهو يتصبب عرقا من الجهد المضنى ، فلما استراح وشرب القهوة سأله زعيم القرية ... الشيخ فرج :

— والحزب الوطنى ده يبقى ايه ؟ قال : « يبقى الحزب الوطنى ... » قال الشيخ فرج : « أيوه ... لكن يعنى يبقى سعدى والا عدلى ؟ ! »

وجمع المسكين أوراقه وكتبه ومحفظته ، وانسحب بجيشه الجرار متقهقرا بغير انتظام ...

تنازل المرشح « الرابع » اكراما لمرشحنا وبرا بالعصبية . وبقى « مرشح الوفد الأول » ذو الأربعة عشر ألفا من الفدادين — والمرشح الثانى التاجر الكبير الذى يسيطر على البندر . وكلاهما مرشح الوفد أو — بعبارة أصح — سعد زغلول ...

وأجريت الانتخابات ، فسقط التاجر ولم يحز الأصوات الواجبة ، وبقى « المرشح الأول » ومرشحنا صاحب هذه القصة ، فأعيد بينهما الانتخاب ...

كانت نتائج القطر المصرى كلها قد ظهرت ، وكانت النتيجة أغلبية ساحقة للوفد ولسعد زغلول تكاد تتجاوز التسعين فى المائة ... واستنجد « مرشح الوفد الأول » بالوفد لأنه أحس أن الشاب الباقى فى القائمة خطر عليه وعلى الوفد رغم تلك النتيجة الساحقة ...

زحفت المدرعات والمصفحات من القاهرة تحمل أقطاب هيئة الوفد كلهم ما عدا سعد زغلول . وكان يتزعم الجيش الزاحف الى مقرالدائرة المرحوم « فتح الله بركات باشا » . أما الآخرون فكان منهم حمد الباسل ، وعلوى الجزار ، وحسيب ، وعلى الشمسى ، ومكرم عبيد ،

والقمص س ... ، وآخرون ، وأسرع رجال الادارة ورجال البوليس والعمد والمشايخ بعد ظهور النتيجة الحاسمة ، مهرولين الى مقر الدائرة ليكونوا فى استقبال الوافدين ...

***

وأقيم سرادق كبير حشدت فيه الآلاف حشدا ، وبدأت الخطب ...

استمرت ست ساعات متواليات ، وكانت ألذها وأبدعها خطبة « القمص س ... » قال :

« عاوزين تنتخبوا مين ؟ عاوزين تنتخبوا « الولد اللى عمال يضحك الناس فى الجرائد ؟ » عاوزين تنتخبوا « الجرنالجى الخلبوص ؟ ! » عاوزين تنتخبوا « كشكش بيه ؟ ! »

وضجت الألوف بالضحك وفى مقدمتهم الباشوات الزائرون ، ورجال الادارة ورجال البوليس !

أراد الشاب أن يقيم سرادقا ليرد على خطباء الوفد فرفضت «الادارة» رغم ظهور النتيجة التى تؤكد نجاح الوفد بالأغلبية الساحقة ، ولكن الترجمة الصحيحة أن « الادارة » ما كانت تستطيع أن تجيب الطلب وحكومة الوفد قادمة فى الطريق بعد أيام !

ويكر مرشحنا المسكين ويمر مترنحا بين حقل وحقل وعزبة وعزبة وقرية وقرية فيجد الدنيا كلها قد تغيرت وتنكرت ، أو جزعت وفرت من وجهه خائفة من المصير ...

لعلكم قد فهمتم ... أو قد عرفتم النتيجة : سقط الشاب ، ونجح الثرى الأمثل ! أو سقطت « المبادىء » ونجح « المال » ! أو سقط « الحزب الوطنى » ونجح « سعد زغلول »

أعلنت النتيجة فى المساء . وكان المرشح فى مقر الدائرة يسمع بأذنيه مصرعه ! ويواجه الفشل بشجاعة ! ولكن لا بد له من أن يسرع بالرحيل ... أمواج من مخلوقات الله الوفدية السعدية الزغلولية تهتف ضده وتصفق لخصمه ، وترقص فرحا وطربا ، وتهرج ما شاء لها التهريج..

وهو وسط هذا كله لا يجد قطارا ولا سيارة تعود به الى القاهرة ، حيث كانت العودة واجبة ...

ولكن ...

ولكن سيارات الجيش الوفدى الفاخرة كثيرة ، وبها أمكنة خالية ، وهل تحول الخصومة دون أن يمتطى احداها ؟ وهل تحول الهزيمة دون أن يصحب الهازمين ؟ لمح سيارة على الشمسى باشا متأهبة للسير فاعترضها وأوقفها وقال له :

ـ خذنى معك !

***

وصل الى القاهرة ليلا ، وليس يدرى ما الذى دفع به الى ناحية قصر الدوبارة ، حيث مقر « العميد البريطانى » وحيث يربض ممثل الاحتلال ...

وجد القصر ـ أى قصر الدوبارة ـ يشع بالأضواء وبالأنوار . وتخيل كأن الدار الانجليزية قد اكتظت بضيوف وزوار غير عاديين ! لقد كان هناك هرج ومرج ! وهناك ضحكات وقهقهات ! وكان هناك فرح وأنس وحبور !

لقد سمع بأذنيه « طرقعات الشمبانيا » تجود على عشاقها وشاربيها بغير حساب ! بهت ، وظل يترصد خارج الدار ليعرف الخبر حتى خرج أحد المدعوين السكارى من الانجليز وهو يترنح وكان صحفيا يعرفه كل المعرفة ...

قال له : « ماذا فى قصر الدوبارة ؟ »

قال الانجليزى السكير : « فرح ! »

قال : « فرح بماذا أو لماذا ؟ »

قال : « فرح بنجاح سعد زغلول ، ولنجاح سعد زغلول ! » قال له : « وتفسير ذلك ؟ »

قال وهو يضحك : « تفسير ذلك بسيط : عندما ينجح زعيم الجهاد

والكفاح ــ و ... يتألف البرلمان وفيه أغلبيته الساحقة : يحكم » قال : « وماذا فى هذا ؟ »

قال : « عندما يحكم يلتوى زمام الجهاد والكفاح ! ويرتطم الزعيم المجاهد الحر بلاظوغلى ! ويذوق أنصاره طعم الجاه والسلطان والنفوذ ، ثم ما وراء ذلك من مجد شخصى ، واستغلال ذاتى ، فينسى المجاهدون المكافحون ، وقد وقعوا فى « الفخ » ، الجهاد والكفاح والاحتلال والاستقلال التام ، والموت الزؤام ، ويعضون على الحكم بالنواجذ ويستريحون ونستريح ! ولهذا احتفلنا ... »

نعمة الفشل

تركنا الأستاذ شكرى وقد صرع فى ميدان الانتخاب تلك الصرعة . انه يستحقها ! انه كان جديرا بأن يتلقى الدرس القاسي وأن يتلقاه عنه زملاؤه من الشبان !

تلك كانت « رأس الذنب الطائر » فخذوا منها عظة أيها الناشئون !

« لا تتعجل المجد ! لا تتعجل المجد ! لا تتعجل المجد ! »

تلك كانت نصيحة أستاذه الكبير محمد زكى على . وها هى ذى ــ بعد صرعته ــ ترن فى أذنه وتطن !

شاب فى السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين من عمره ، محام ناشىء ، أوشك بالكد أن يظهر ويتجلى ، متواضع الموارد ، يحمل على عاتقه ، وفى ذمته ، مصالح موكليه .. ويعمل فى اقليم لا فى العاصمة ...

ما له والانتخابات ؟ والنيابة ؟ وهو دون السن الدستورية ؟ وهو لم يكتمل بدره بعد ولم يتكون ؟

تلك كانت شراهة .. شهوة ... غرورا .. قصر نظر .. ثم انظر ماذا كانت النتائج :

تبدد بعض زبائنه أثناء انشغاله بجولاته الانتخابية . وزبائن المحامين

كزبائن الأطباء وزبائن الصحف والمجلات ، ان انت غبت عنهم غابوا عنك ... وان أنت لم ترهم بشخصك لم يروك بأشخاصهم ... وان أنت عبثت بمصالحهم فقــدوا ثقتهم فيك ... ومحال ـ بعد ذلك وقــد توزعوا على غيرك ـ أن تستردهم ولو بعد حين !

ولقد أنفق فى المعركة ما يقرب من سبعمائة جنيه ، وهى ضريبة ثقيلة على محام ناشىء . أتدرى ماذا فعل ؟ باع أسهم بنك مصر ، وقد كانت حماسته القومية قد قدمته على كثيرين من المشترين ـ وباع بضـــعة أسهم ادخر ثمنها بكده وجده من أسهم البنك العقارى ، وقد كانت من ذات « اللوتارية » ومن العجيب انه بعد بيعها ربح أحدها بضع مئات من الجنيهات !

ثم هل وقفت الكارثة عند هذا الحد ؟ لا .. انهالت عليه « الفواتير » من متعهد حفلات الانتخاب ، ثم انهالت عليه التهانى الحارة من المازحين والمتهكمين والشامتين !

هل سلم بالهزيمة واستسلم ؟ لا ...

سأل صديقته ، التى أعجب بها طول حياته « أم كلثوم » : ما رأيك فى « الفشل » ؟ فأجابت مفخرة العصر فى دنيا الجوانح والأذهان والنفوس :

ـ « الفشل ؟ .. الفشل ؟.. الفشل ؟.. ـ على وزن القبـــلة ؟ القبلة ؟ .. القبلة ؟.. الفشل نعمة من نعم الله ! »

قلت لها : « كيف كان ذلك ؟ وكيف يكون ؟ »

قالت : « لقد فشلت . ولا أذكر لك فيما فشلت . ولكن ذلك الفشل الذى صادفنى فى مستهل حياتى حركت مرارته فى نفسى قوة ! وخلقت روح تشف وانتقام من الفشل . فقررت أن أنجح ! وأجدت ، وأمعنت فى الاجادة فى مهنتى وفنى اللذين استعضت بهما عن خيبتى فى غيرهما ، فكان ما تصفه أنت بأنه نجاح كامل . وهكذا ولد الفشل النجاح ! »...

كان فشل « الضاحك الباكى » من نوع هذا الفشل . فأراد أن ينتقم منه بالاجادة والمواظبة فى مهنته أو مهنتيه : الصحافة الهاوية والمحاماة ...

أو كأنه قد صمم على أن يعوض خسارتيه : الأدبية المعنوية ، والمالية المادية . وعند بعض ذوى الحزم والعزم يضاعف الفشل الجهد والعمل والانتاج . وقد استطاع فى ظرف عامين اثنين أن يعوض الخسارتين معا ! ثم تلك « التجربة المرة » ما كانت الا عظة ، ودرسا ، ومدرسة تخرج منها يحمل شهادته العملية لا النظرية التى تسلح بها فى معاركه المقبلة وما أكثرها وما أضناها !..

وصله ذات يوم تلغراف من الصحفى المطبوع الذى غزا وافتتح فى دنيا الصحافة ، ونقصد به المرحوم « جبرائيل تقلا » صاحب الأهرام الغراء ... وصله تلغراف يستدعيه فيه الى مقابلته فى مصر ... فذهب وقابله . ودارت بينهما المحاورة الآتية :

ـ نجحت رسائلك نجاحا باهرا . وأصبح لك قراء ، ولأسلوبك معجبون ...

قال الأستاذ شكرى : « الفضل للناشر لا للكاتب »

قال تقلا بك (اذ ذاك) : « ليكن . ولكنك أصبحت صحفيا معروفا . ولقد جرت تقاليد الصحف الكبرى أن تقتنص أمثالك . وأن تعتز بهم . وأن تحتكرهم ... »

قال الأستاذ شكرى : « شكرا ها أنذا لك ولجريدتك الكبرى ... »

قال : « ولكن نحن نربح ! ولك نصيب فى نسبة الربح . ولكى نضمن استمرارك يجب أن نعطيك حقك من المقابل ، ونأخذ منك حقنا من الاستمرار والانتظام ... »

قال الشاب محتدا بأدب ، ومتشنجا بتحفظ :

ـ أتقصد أجرا على ما أكتبه ؟

قال : « لا .. ليس أجرا وانما هو حق ! »

رحمة الله على المبادىء الروحانية القوية المتأججة اذ ذاك ... نعم : اذ ذاك ...

تصور ، عضو الحزب الوطنى الناشىء ، انه يبيع رأيه ! أو يبيع

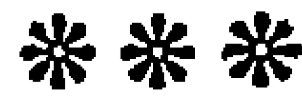
ما يجب عليه أن ينشره خدمة لمبدئه وعقيدته وحزبه ورسالته الوطنيــة فى مستهل حياته !

كانت تلك الغضبة غضبة « عذرية » اذ اعتبر « المقــال المــأجور » انتهاكا لقلمه ! فثار ورفض ، والرجل دهش مذهول ...

لم تكن عهود « التضــخم الخلقى » قــد وفــدت بعدُ ! ولم تكن « الفلوس » قد لذعت يده لذعتها فى عهود الجرى وراء المادة والسعى وراء الكسب ولو عن طريق الحق والحلال ...

ناقشته فى هذا فتأسف وتحسر على الاضمحلال الخلقى الذى انتــاب الناس فى هذه الأيام ! وبالرغم من بلادة منطقه فى رفض التعاقد مع جريدة كبرى ، وغباوة الاعتزاز بالهواية ، وبالرغم من مظاهر أو حقائق تلك « العفة القلمية » السخيفة ... بالرغم من ذلك فقد كانت ظاهرة الرفض المصحوب بالثورة فضيلة من الفضائل الخيالية المعروفة المألوفة فى ذلك الجيل ...

أين هى الآن ؟ وأين نحن منها ؟ أو أين هى فى جيلنا الجديد وأين هو منها : ذلك كان « تاريخا »



كان قد جمع تلك الرسائل الصحفية فى مجموعات ثلاث باعها « برخص الدمس » أو وزع نصف نسخها على بعض زملائه من أقاربه وأصدقائه فأكلوها وأكلوا ثمنها ! وكان لا يعبأ بذلك الالتهام ما دام قراؤه قــد التهموا معناها ومغزاها وفوائدها . فلما طلب اليه اعادة طبعهــا كان الاقبال المعنوى عنــده ثروة أية ثروة لا تزال تدر عليه خيرها وبركتها الروحية حتى اليوم ... حسبه ان الكاتب الصحفى الكبير الأستاذ داود بركات رئيس تحرير الأهرام ، قال فى مقدمة مجموعته الأولى : « تساءلنا كيف منح الله كاتبنا الناشىء هذه الهبة فخرج بالكتابة من التثاقل الى الخفة ، ومن الجمود الى الحركة ، ومن الانقباض الى الانبساط ، والى مزج اللذيذ بالنافع . ليس هذا بعلم يتعلمه الطالب فى المدرســة والكتاب

ولكنه صورة من النفس ، فهذا الأسلوب هو « السهل الممتنع ! » .. الى آخره »

وقال الكاتب الكبير المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى : « ان هذا الفتى قد استحال كاتبا كبيرا حتى لقد برع كثيرا من أعلام البيان . لقد أصبح على شباب السن شيئا مهما فى مصر لايستغنى عنه الأدب . ولا تستغنى عنه اللغة . ولا تستغنى عنه السياسة أيضا ! هو معنى من معانى الحركة . وعنصر من عناصر الحياة فى هذا البلد . هو لازم « كالرمل » للنازحين الى الاسكندرية فى الصيف . و « الكافيه ريش » للثاوين فى القاهرة » !

وقال فيه درة التاج الشعرى فى العصر الحديث ـ أمير الشعراء أحمد شوقى :

لسن اذا صعد المنابر أو نضا
قلما شأى الخطباء والكتابا
وتراه أرفع أن يقول دنية
يوم الخصومة أو يخط سبابا
لا يخدم الأمم الرجال اذا همو
لم يخدموا الأخلاق والآدابا
تلك الرسائل لو شكوت بها الهوى
عطفت على أهل الهوى الأحبابا

هل يا ترى احتفظ بطل القصة بهذه الصفات ؟
سترى بيان ذلك فيما يلى ...

٦٠٠ جنيه ؟... موافقون !

ليس هذا بتاريخ ، انما هو قصة ، قصة نقصد بها ـ بجانب ما نقصد ـ أن نذكر الجيل الجديد بحوادث وأحداث هذا الوطن ، فالمرور كما ترى مرور عابر ...

كانت البرلمانية فى سنة ١٩٢٤ ــ أى منذ أربعة وثلاثين عاما ــ حادثا أو حدثا خطيرا .. فلأول مرة فى التاريخ الحديث يقوم فى مصر بنــاء البرلمان ، وترتفع فيه أصوات النواب والشيوخ ، وتسمع فيه كلمة الأمة

كان المترقب المترصد يود أن يشــهد الصراع بين السلطات الفعليــة الثلاث : الاحتلال ــ والملك ــ والأمة

وأوشك البرلمان أن يعقد جلسته الأولى ، وأن تحتفل الدولة والأمة بميلاده

لم يهجر بطل هذه القصة قلمه ، ولا قضى فشله على نزعته ، فوجه الى نواب البلاد تحية جاء فيها :

« سلام عليكم من مرشح هوى يوم ارتفعتم ، وانزوى يوم ظهرتم وبرزتم ، وذاق مرارة الفشل يوم ذقتم حلاوة الظفر والانتصار !

« أحييكم والله تحية لايشوبها حقد أو حسد ...

« لا أحرضكم على الحــكومة فوالله لا أنا من محبيها المخلصــين ، و « لسعد » فى نفسى منزلة لايعلمها الا الله . ولئن بادرت بالمعارضة فلأن شيطانى يلقى فى روعى أنها فى سبيل الصالح العام ! »

وأخذ الأستاذ شكرى يتعقب البرلمانية الأولى ونشر عدة مقالات ضد « الأغلبية الساحقة » وبالأخص عندما أخذ المجلس ينظر فى تقرير مرتب النائب . حضر الجلسة المشهورة ، وسمع الاقتراحات المقدمة عن تحديد « مرتب النيابة » فوصف رئيس الجلسة وهو يعرض الاقتراحات هكذا :

ــ ٣٠٠ جنيه اقتراح الشريعى . موافقون ؟

النواب ــ لا . لا . لا . رفض !

ــ ٥٠٠ جنيه اقتراح اللجنة المالية . موافقون ؟

لا . لا . رفض

ــ ٤٠٠ جنيه اقتراح سليمان بك زكى العبد . موافقون ؟

لا . لا . رفض

ــ ٦٠٠ جنيه اقتراح النائب « م . خ » موافقون ؟

ـ ايوه أيوه ...

تصفيق حاد ، هتافات ، تهنئات ، معانقات

« هنيئا لكم عرق الفلاح يستحيل ذهبا من الجبين الى الجيوب ، ومن ثوبه الأزرق المرقع البالى الى أثوابكم الرشـيقة ، ومن يديه المقرحتين المشوهتين الىأياديكم البيضاء الناعمة ، هنيئا لكم الجاه العريض والمرتب الضخم ، وللأمة فى أبنائها الأوفياء ألف عزاء وعزاء ! »

واستمر الحال على هذا المنوال كما يقول مؤلف سيرة «عنترة بنشداد» وشيوخ الأمة ونوابها يغشونالدواوين ويسلطونعليها نفوذهم ويطلقون أوامرهم ويعينون ، ويفصلون ، ويرقون ، وينقلون ويتوجون رؤوسهم بتاج الملوك فى الأقاليم فتضيع هيبة الحكام ، وتطل الفوضى من شقوقها ومغاورها بالتدريج حتى جاء يوم ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ !

***

فى الساعة الثانية بعد الظهر من ذلك اليوم أطلق خمسة أشخاص النار على السردار الانجليزى فى شارع الطرقة الغربى ، شارع اسماعيل أباظة الآن ، فأصيب السردار وياوره البكباشى كامبل ، وتوفى السردار فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ... شيعت الجنازة وبعد تشييعها اقتحم اللورد اللنبى ، المندوب البريطانى فى مصر بموكبه الرهيب رياسة مجلس الوزراء وتلا على سـعد زغلول الانذار البريطانى الفذ الى الحكومة المصرية وفيه المطالب الآتية :

أولا ـ اعتذار الحكومة المصرية

ثانيا ـ البحث عن الجناة وعقابهم أشد العقاب

ثالثا ـ منع المظاهرات وقمعها بالقوة

رابعا ـ دفع غرامة قدرها نصف مليون جنيه للحكومة البريطانية

خامسا ـ سحب الجيش المصرى من السودان

سادسا ـ اطلاق يد حكومة السودان فى زيادة مساحة أطيان الجزيرة من ثلاثمائة ألف فدان الى مدى غير محدود

سابعا ــ أن لا تعارض الحكومة المصرية فى حماية مصالح الأجانب فى مصر

الى غير ذلك من الطلبات التفصيلية ...

وقد قبلت الحكومة المصرية بعض هذه الطلبات فوافقت على الاعتذار، وعلى القبض على الجناة وعقابهم أشد العقاب ، وعلى دفع نصف مليون جنيه ، واعتذرت عن تلبية باقى المطالب ...

فكان رد اللورد اللنبى أن احتل جمرك الاسكندرية ! واضطر سعد زغلول الى الاستقالة فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤ !

كان هذا هو الصراع الأول بين السلطة الانجليزية وبين البرلمانية المصرية . ثم كان أخطر ما منيت به مصر وهو طرد الجيش المصرى من السودان . ثم كانت الضربة الأولى بحل البرلمان المصرى الأول !

***

نسوق هذه الطليعة ليعلم القراء من الجيل الحديث كيف كانت البرلمانية التى تعيش مع الاحتلال صورة خيالية حتى فى مبدئها ومستهلها. وكيف عرف الانجليز أن يلطموا وجه الأمة المصرية هذه اللطمة ليشعروا الأهلين بأن النيابة عن الأمة فى ظل الاحتلال كانت مهزلة ومسخرة . وان الجهاد فى سبيل الحرية والاستقلال كان يجب أن يتفرغ له المتفرغون . وأن ينقطع له المجاهدون المكافحون فلا يلهيهم الحكم عن هذا الهدف المقدس . ولا يطويهم فى مطامعه وأهوائه طيا . وياحسرتاه !

كم ضيعت هذه الأمة فى سبيل الشهوة البرلمانية النيابية ماضيعت . ولو أنها شغلت بعض « الثلاثين عاما » بالكفاح وبالجهاد الحر الأصيل غير الممزوج بشهوة الحكم لحققت استقلالها وحريتها من زمن بعيد !..

***

من ذلك اليوم التعس بدأ الانجليز ينفذون سياستهم الثابتة وهى فصل السودان عن مصر ! أى فصل الجنوب عن الشمال . فلم يكن العقاب

الوارد فى « الانذار البريطانى » ، مقصورا على ما تضمنه من بنود العقوبات الفادحة . وانما كانت هناك عقوبات خفية معنوية فاستغل مقتل السردار لتنفيذ السياسة الانجليزية التى كانت تسير على نظرية « اكتساب الحقوق بالممارسة » ... أو نظرية « الايجابية » و « الأمر الواقع » !

وسيرى القراء فى فصول هذه القصة كيف انتقل الانجليز فى السودان من مرحلة ايجابية الى مرحلة ايجابية وأولو الأمر فى مصر ــ بعد الحكم النيابى ــ يتجاهلون ويتغافلون ويقفون موقفهم السلبى خوفا من أن يفلت زمام الحكم من أيديهم ولو أنهم كانوا غير متيمين بالحكم عن طريق البرلمانية ، وعن طريق الأغلبية الصحيحة أو المزيفة لاستمروا يناضلون ويكافحون كما يجب أن يكون النضال والكفاح !

وفرضت الرقابة الصحفية على الأقلام ! فكانت هذه المرحلة هى المرحلة الثانية التى عانت فيها حرية الصحافة ما عانت !

أما المرحلة الأولى فكانت تلك المرحلة الطويلة الأمد التى كانت كارثة على حرية الرأى ، وحرية القلم ، وحرية الصحافة من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٢٠ ...

كل هذا قد رجع بمنتجات الأقلام والأفكار الى الوراء أعواما وأعواما. وخير أن نترك هذا البحث لغيرنا من رجال الأدب وأهل الفكر فهم أقدر على ابراز كوارث اللغة العربية ، وكوارث الوعى الذهنى فى ذلك المدى الطويل

دولة الأقاليم

وصفنا فيما تقدم حالة الوجوم التى شملت مصر كلها بعد مقتل السردار . كانت الحياة فى عاصمة الدولة حياة كئيبة ، فالتزم أبناء الأقاليم أقاليمهم . وما دمنا بصدد الدولة الكبرى وهى دولة الأقاليم التى اقتطعت من حياة « الضاحك الباكى » جزءا كبيرا ، فقد رأينا أن نذكر عنها لمحة

قال لى بطل هذه القصة ، وقد وصلت معه الى هذا الحد : « أرجوك

وأنت تسرد تاريخ حيــاتى المضــطرب المترنح بين المحاماة والصــحافة والسياسة والحب ، أن تسدى الى النشء الحديث باسمى نصيحة أرجو آن يذكروها ويطبقوها : الكثيرون من شبابنا يأنفون من عيشة الأقاليم وعواصمه وبنادره ، ويتدفقون على القاهرة ، مع أنهم لو كانوا أمنــاء لحاضرهم ومستقبلهم لفضلوا أن يبدأوا نشأتهم فى الأقاليم حيث الميــدان أوسع ، والرزق أيسر ، وفرصة النجاح أسهل »

قال هــذا وأخذ يسرد لى الأسبــاب وقد اقتنعت بها وهأنذا أمزجها بقصته فأقول :

كانت الأقاليم فى ذلك الوقت تضم خلاصة من أبرع المحامين ، وأبرع الأطباء ، وكان الأعيان لم يألفوا الاقامة فى القاهرة بعد . وكانت بجانبهم جاليات أجنبية من كل جنسية ، فكان « المجتمع الاقليمى » مجتمعا زاهرا ناضرا مكتظا بكل ميزاته ومسلياته : كانت حفلات الرقص أشهى وأمتع من مثيلاتها فى القاهرة والاسكندرية ، وكانت النوادى الرياضية حاشدة بأعضائها من جميع الأجناس فكانت ملجأ حقــا للعقــل السليم والجسم السليم ، وكان « الضاحك الباكى » وأمثــاله من المحامين الناشــئين يستقبلون عاما بعد عام فى مساكنهم المتواضعة وفودا من كبار المستشارين، والمديرين وكبار الموظفين ، وكبار الزوار ، فاستطاعوا أن يحصلوا ثروة كبرى من المعارف والأصــدقاء الذين كانوا ذخيرة ثمينة فى حاضر الأيام ومستقبل الأيام ..حتى ان الناشئين المســتهلين من هؤلاء الموظفين كانوا يترعرعون ويكبرون مع الزمن حتى يصــلوا الى المنــاصب الكبرى فلا ينسون ذكريات الأقاليم وأصدقاء الأقاليم

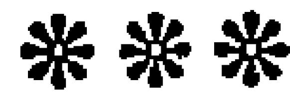


مثل هذا لايتأتى فى القاهرة للناشئين من ذوى الحرف والمهن الحرة . والعجيب أن فطاحل الأطباء والمحامين البارزين تدرجوا هــذا التدرج ، وأهلتهم اقامتهم وأعمالهم فى الأقاليم الى أن يصلوا لما وصلوا اليه من نبوغ وعبقرية ورواج عن طريق المران والتــدريب وعن طريق هؤلاء

المعارف والأصدقاء الذين مروا عليهم تباعا فى بلاد ضيقة أتاحت لهم — بحكم الضرورة — الامتزاج والاختلاط ...

والكاتب الذى يدون مثل هـذه القصص ، تمر عليه هـذه النواحى فيأسف أشد الأسف للنزعة الخطيرة المهددة لعمار الأقاليم وهى نزعة الهجرة الى « القاهرة » التى تضاعف عدد سكانها بسرعة مخيفة فعجزت مرافقها عن أن تواجه هذا التدفق الخطير

وليس الخطر يحدق بالعاصمة وحدها ، وانما هو يولد وراءه خطرا أخطر على عمار الريف وازدهار الأقاليم فى تجارتها وصناعتها ومجتمعها وتقدمها المنشود ، باعتبارها الدولة الكبرى التى نعتمد عليها فى كل شىء



عندما تسأل المخضرمين يضربون كفا على كف ويتحسرون عند المقارنة بين ماضى الأقاليم وحاضرها ويذكرون لك والأسى يملأ نفوسهم كيف كانت أسيوط والمنصورة ، وطنطا ، والزقازيق، والمنيا وغيرها وغيرها من عواصم الأقاليم ... كيف كانت غاصة برجالها وأقيالها ونوابغها ومجتمعاتها ومسارحها وملاهيها ! وكيف كانت مشتى ومصيف العلماء والأدباء والكبراء من المجهدين بضجيج القاهرة وعجيجها ! كانت قصور الأعيان والوجهاء شركات تعاون تستقبل الفقراء وتمدهم بكل ما أفاء الله عليهم من نعمه !.. كانت تلك البيوت التى لم تخلف وراءها الا الأنقاض بمثابة مصحات ، وملاجىء ، ومطاعم للشعب . وقد ولى كل هذا وراح.. والرجاء كل الرجاء أن تسد الجمعيات التعاونية ، والمجموعات الاقليمية تلك الثغرة فتعيد للأقاليم بهجتها وازدهارها وهناءها

عرف « الضاحك الباكى » كل رجال اليوم والأمس من الزعماء والأقطاب ، وكانوا يفدون تباعا وهم فى مثل استهلاله ونشأته ، وعرف كبار المطربين ، وكبار الممثلين ، وكبار الموسيقيين ، وكبار الفنانين ، حين كانوا فى مثل استهلاله ونشأته يرتاحون الى ضيافته ويرسمون برنامج الغد فى مسكنه المتواضع ...

وعرف كبار الأجانب من انجليز وفرنسيين وألمان وايطاليين ويونانيين وغيرهم حتى دار الزمن دورته فأصبحوا فى بلادهم زعماء وأقطابا وأقيالا، وانّى كان يتوافر له كل هذا لولا أن مجال الأقاليم كان محدودا يحصر كل هذه الزبدة من الرجال !

***

لذلك ألح علىّ « الضاحك الباكى » أن أكرر وأؤكد نصحه للناشئين فى أن يؤسسوا حاضرهم ومستقبلهم فى الأقاليم ، برا بأنفسهم ... وبرا بوطنهم ...

كانت « دولة الأقاليم » فى مستهل حياة الأستاذ شكرى العملية يحكمها « حاكم بأمره » هو : « سعادة الفن النفاقى » ...

و « سعادة المدير » كان أخطر حاكم فى دولة الأقاليم . كان الأعيان والوجهاء ، والشعب ، لايعرفون الوزير ولا يكترثون به ، لأنه كان بعيدا عن شئونهم ومصالحهم ومصائرهم . وكانت كل هذه فى يد « سعادة المدير » . بل كان استقلال المدير استقلالا ذاتيا فى ذلك الوقت

وتلقى الأستاذ شكرى فى مستهل حياته العملية الفن العالمى أول ماتلقى فى اقليمه . ونقصد بذلك الفن النفاقى !

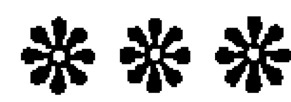
وصور النفاق متعددة ، مختلفة ، كثيرة الألوان والأصباغ ، ولكنه روى لى منها هذه الرواية : لما نقل أحد المديرين الى مديرية أخرى قيل أن « سعادة المدير الجديد » هو ق . باشا ، وأجريت الأبحاث والتحريات « النفاقية » فعلم الأعيان والوجهاء أنه أصلع ، فحلقوا شعر رؤوسهم حلاقة « نمرة ١ » أى « حليطة » لتكون رؤوسهم مثل رأس « سعادة المدير » ! وكانوا يشربون الكونياك، فبلغتهم شائعة أنه يشرب الويسكى، ولم يكونوا يعرفونه أو يعاملونه فحشدوا مخازن النادى بصناديق « الجون هيج » و « الانتيكوارى » و « البلاك اند هوايت » — كل ذلك ليشملهم مجلس « سعادة المدير » !

فلما انتهت خدمته فى الاقليم ونقل ، وفد بعده غيره . ومنهم « سعادة علام باشا » الذى قيل انه يهوى لعبة « البردج » ... وكان الوجهاء والأعيان لا يعرفون الا « البصرة » و « البشكة » و « العادة» فاستأجروا أستاذا من القاهرة بثلاثين جنيها فى الشهر ليعلمهم لعبة « البردج » من باب التسلية لسعادة المدير . ولم تحل الجبب والقفاطين دون أن يحذقوا اللعبة العالمية ويجيدوها !

ونقل علام باشا ، وجاء « سعادة صادق يونس باشا » فعلموا أنه يهوى لعبة التنس . وياعجبا ! فى ظرف شهر واحد امتلأ النادى الرياضى بالشيوخ والكهول ، وبالمعممين والمطربشين ، وبالمضارب والبنطلونات الفانلا الرشيقة ، وتعلموا التنس ليلعبوا مع سعادة المدير !

وشهد « الضاحك الباكى » دولة المديرين هذه بمجدها ، وعظمتها ، ودكتاتوريتها ... ثم شهد الزوال والغروب ! شهد « دولة المدير » التى دالت عندما وفد البرلمان وقامت على أنقاض دولة المديرين دولة أخرى هى دولة الشيوخ والنواب !

وحذار حذار أن تصدق أنها « دولة الشعب » ... لا لا لا ! مسكين الشعب.كان ينتخب ــ فقط ــ كما ينتخب قطيع الغنم ! ثم ... ثم يعتلى الشيوخ والنواب العروش . ويقبضون على الصولجان ، ويركبون المدير، والوكيل ، والحكمدار ، ومأمور المركز ، ويبددون هيبة الحكم وهيبة الحكام ، وينهون ويأمرون .. وما خفى كان أعظم



وجاءت « الثورة الحالية » وهى المرحلة الثالثة من مراحل حكم الأقاليم فلم يطل المديرون من جحورهم ولم يستردوا اعتبارهم ولا شخصياتهم . وقل ما شئت عن الضرورة وعن المبررات ، ولكنى ــ هنا ــ أؤرخ ! وحين يبعث المديرون من مغاورهم وكهوفهم وأقبيتهم ويوضع نظام محكم لحكم الأقاليم ، ويسترد حكامه سلطاتهم ... حينذاك أقول ان الاصلاح قد امتد الى الدولة الكبرى ...

لما فتح « الضاحك الباكى » مكتب المحاماة فى عاصمة اقليمه ، كانت شهرته الصحفية قد سبقته الى أعيانه ووجهائه ، وزاره يوما ما ــ المرحوم اسماعيل بك الديب ، عضو البلدية ــ والضمادات تعلو رأسه ووجهه وعنقه . فسأله عن سبب هذه الجروح والرضوض فقال له :

ــ المسيو برايس ...

ــ ومن هو « المسيو برايس » ؟

قال : هو باشمهندس المجلس البلدى . رجل فرنسى وظفوه بمرتب ضخم ليباشر كل شؤون المدينة الهندسية ، وفى يوم من الأيام أراد أعضاء البلدية أن تؤخذ لهم صورة فتوغرافية مع « سعادة المدير » . فأنشأ مدرجا خشبيا ذا مقاعد وصفوف بعضها فوق بعض . وجلس الأعيان والوجهاء ، ولم يكد « الفوتوغرافجى » يصوب عدسته حتى انهار المدرج فوقع أعيان الصف الأول على أعيان الصف الثانى على أعيان الصف التالى وأصيب الكثيرون منهم بالجروح والرضوض ونقلوا الى المستشفى الأميرى !

وأسرع المحامى الناشىء الذى يرنو الى الشهرة والى الزبائن . فحرر مقالا نشرته « الأهرام » تحت عنوان « باشمهندس خطر ! » ــ ونشر ما فى دوسيه المهندس الفرنسى وهو انه بلا شهادة ! أى والله بلاشهادة ! ولم يدخل فى حياته مدرسة هندسة ! وكل ما لديه من وثائق ، شهادة من والده ــ برايس الكبير ــ بأنه تمرن عنده واستفاد وأصبح مهندسا بقدرة قادر ...

نشر المقال وأحدث ضجة !

***

وفى يوم من الأيام أعلن الأستاذ شكرى بعريضة دعوى أمام محكمة المنصورة المختلطة يطالبه فيها « الباشمهندس الخطر » بستة آلاف من الجنيهات على سبيل التعويض !

لم يكن المحامى الناشىء المسكين يملك جنيها واحدا من الستة آلاف .

كان أثاث مكتبه ومسكنه بالتقسيط ، ولم تطـل قضية واحدة عليه حتى ذلك الوقت ، فجزع وارتاع ...

وتضاعف جزعه وارتياعه أن القضية لم ترفع عليه وحده . وانما على المرحوم جبرائيل تقلا بك ــ بك اذ ذاك ــ بصفته صـاحب الأهرام والمسئول عن النشر

تضاعف جزعه وارتياعه لأنه أدرك مدى المسئولية الأدبية التى لحقت بالأهرام وصاحب الأهرام . وقد اطمأنت الصحيفة الكبرى الى أمانتـه وصدقه ، ونشرت وقائعه كما هى

وهرول الى « الأهرام » خجـلا محرجا ليواجـه المسـئولية . وقابل الصحفى الكبير ، صاحب الأهرام وجرى بينهما الحديث الآتى :

صاحب الأهرام : « اعرف لماذا أتيت . لقد أعلنت بعريضة الدعوى . وقد حولتها الى « مقصود باشا المحامى » ليباشرها ... »

قال : « انى فى غاية الأسف والخجل . ولكن أرجو أن تطمئن الى صحة وقائعى التى تضمنها المقال ، وأنا المسئول عن نتيجة الدعوى...»

قال صاحب الأهرام : « لاشك عنـدى فى ذلك ، وبرفع النظـر عن النتيجة فان « الأهرام » تقبل المسئولية وحدها »

قال : « لعلك تعلم أنه لو حكم بالمبلغ الذى يطالب به المدعى فانه لن ينفذ علىّ بل ينفذ الحكم عليك ... »

قال : « أعلم أو لا أعلم فقد قبلت الأهرام هـذه المسئولية وغيرها من المسئوليات المدنية والجنائية ، وهذا هو عرف الصحافة التى تثق عن يزودها برسائله ... »

وكأن صاحب الأهرام كان يقرأ علم الغيب فقد حدث بعد ذلك أن ودع أستاذنا شكرى « اللورد اللنبى » وداعا حارا يوم نقل من مصر فحققت معه النيابة وحققت مع رئيس تحرير الأهرام بالنيابة ــ اذ ذاك ــ وهو الأستاذ توفيق اليازجى ، وكان محكوما عليه بالاعدام فى دمشق ، فكانت النكبة التى سببها الأسـتاذ شكرى للأهرام هـذه المرة نكبة جنائية

خطيرة ، وغير ذلك من القضايا المدنية والجنائية التى تفد فى مراحل هـذه القصة ...



كنا نسمع عن الذين لاينامون الليل من كثرة الهم والغم والتفكير . وقد كان صاحبنا لا ينام الليل ، لا من ناحية مسئوليته هو . وانما من ناحية مسئولية « الأهرام » التى كان السبب فيها . والضمير الحى الذى يحمله صاحبه كان ضميرا معذبا مؤرقا ولذلك سعى سعيه لدى كبار الأعيان والمحامين فى المنصورة وفى مقدمتهم المرحوم الأستاذ الكبير كامل بطرس ، حتى وفق الى اجراء الصلح مع الباشمهندس الفرنسى فاستراح ضميره ، وكانت التجربة القضائية الأولى تجربة مريرة على نفسه . ومن يومها عرف كيف يقدر مسئولية الصحفى أو الكاتب أو المراسل نحو جريدته ، فلعل اخواننا وزملاءنا من الصحفيين الناشئين يقدرون حق التقدير هذه المسئولية الصحفية الخطيرة ، ولعلهم يقدرون أن الأمانة فى الوقائع والأخبار والاستنتاجات هى رأس مال المشتغل بهذه المهنة الكريمة . وأن أفدح ما يترتب على التقصير فى التحقيق والتدقيق هو أن يذهب أصحاب الجريدة ضحية وفريسة أدبية ومادية لمحرريهم أو مخبريهم النزقين

لا تقبلني !

العجيب ...

العجيب اننى ـ أنا مؤلف أو مدون هذه القصة ـ كنت ألاحظ عندما أراجع وقائعها على الأستاذ شكرى ، ما أعرفه وما لا أعرفه ، نحس نحن الاثنين ـ المؤلف وبطل القصة ـ كأننا فى ساعاتها ، وأيامها ، ولياليها ! كأن الحوادث هى حوادث الأمس ، وأمس الأول ، والأسبوع الماضى ! كأنه لم تمر على هذه الحوادث ثلاثون عاما طوالا أى والله ثلاثون عاما !

وأسأله فى هذا ويسألنى فيكون الجواب :

ــ لا تزال روحانا ... ولا يزال قلبانا ... هما هما ... أثرت السنون الطوال على الوجه ، والشعر ، والساقين ، والقدمين ، والأضراس ، والأسنان . ولكنها لم تؤثر على الروح والقلب ؟ !

عجبا ! ثلاثون عاما .. ومع ذلك يشفق هو ، واشـفق أنا ، أن نذكر الذين يرد ذكرهم فى هذه القصة فنتردد ! ونسقط بعض الوقائع والحقائق، ومع ذلك يتهم الناس القصصيين والروائيين بأنهم يستعينون بالخيـال . والله يعلم أن الحقيقة أدهش من الخيال وأفدح !

***

فى أواخر سنة ١٩٢٤ ــ ولأول مرة ــ يأتى رسول من قبل فتاته « عايدة » يبلغه أنها تريد أن تراه ــ حالا ــ فى منزلها ...

منزلها ؟ ! .. لم يحدث مرة انه قابلها فى منزلها !

لم يحدث ! .. فماذا حدث ؟ ! ..

هرول مسرعا وكأن من بالمنزل كانوا على علم بهـذا الاسـتدعاء ، فاستقبلوه بشيء كثير من الحرج . ثم تقدموه الى حجرتها الخاصة ... وأغلق الباب ...

وتقدم بلهفة الى فراشها وانحنى ... انحنى فاذا بيد تدفعه بقوة وجزع ورعدة ، واذا بها تقول : « لاتقبّلنى ! »

قال : « مريضة ؟ » .. قالت : « نعم ... »

قال : « ولماذا لا أقبّل المريضة ؟ »

قالت ... وعبرة من عبرات الأسى العميق تترقرق فى عينيها : « وهل يقبّل الأصحاء المرضى ؟ » .. قال : « ولم لا ؟ »

ان حركة عنيفة متخاذلة فى الوقت نفسه أجابت عن هـذا السؤال . أحس الفتى ان شيئا خطيرا قد طرأ ! ما هو هذا الشيء الخطير يا ترى ؟ مرض ؟ وأى شيء غريب فى المرض ؟ لا ! قطع عليها دموعها وسكونها وقال : « ارحمينى ... وضّحى ... ماذا ؟ »

قالت : « النهاية المحتومة ! فاجعة ! »

قال : « كل مريض يشفى ... »

قالت : « الا أنا ... »

هنا جد الجد ، وأمسك بيديها فاذا بهما حارتان ، مبللتان ، صفراوان! واذا بسعلة بعد سعلة ! واذا بسحابة تمر على خاطره ، ولكنه يصيح فزعا : « لا لا .. تكلمى ماذا بك ؟ »

فتجيب بصوت خافت : « سل ! »

ويضحك صاحبنا ضحكة لاتوصف ، هىمزيج منالاستنكار والانكار والهلع والأسى معا . ولكنه يتمالك نفسه ويصيح فيها : « أنت مجنونة ! أنت كاذبة ! أنت واهمة ! لا لا . من أنبأك بهذا ؟ »

قالت : « طبيبى الذى تعرفه ، والذى لايكذب ! »

ولا أحب أن أدون هنا المناقشة الأليمة التى دارت بين حبيبين تدخل المرض الأليم التعس بينهما ! كما لا أحاول أن أدون المعركة المحتدمة بين فتى يرفض أن يصدق ، أو اذا هو صدق ، فرجولته تأبى أن ينهزم أمام المرض الخطير ، وتأبى أن يتردد فى التضحية مهما أصابته ... وبين فتاة تعلم تمام العلم ما هى فيه ، فتأبى أمانتها أو يأبى حبها أن تقضى على حبيبها معها ...

قال الشاب ، وقد أشعر بأن الزيارة يجب أن تنتهى : « حذار أن تكفرى . رحمة الله فوق كل داء ، واليأس لايعرفه المؤمنون ! »

قالت : « أردت شيئين : الشىء الأول أن أحلك من حبى ، وأن أحررك ، بل أنقذك ! والشىء الثانى : وصية ! هى أن لاتدخل الانتخابات »

رد عليها بما يقتضيه الموقف من تعنيف — وسخرية مفتعلة بما تعتقده — وتشجيع على كل احتمال — وتأكيد لوفائه وحبه الى الأبد ...

وانصرف وهو يترنح من وقع الخبر ، وقد بدأ يتشاءم من نفسه أو يعتقد أنه شؤم على محبيه !

ومرت أيام وليال كانت عليه أتعس الأيام والليالى ، واذا بالطبول تدق منذرة لاجراء انتخابات سنة ١٩٢٥ وقد أراد فى بداية الأمر أن يقتحم المعركة الثانية مرة أخرى ، ولكنها أخذت تكرر عليه الرجاء تلو الرجاء أن يتفاداها ، فأجابها الى طلبها وقد اشتد المرض عليها ، وأخطر أنصاره بأنه لن يدخل تلك الانتخابات

المهازل !

وتكررت المهازل على نحو ما جرى فى الانتخابات الأولى . لقد أنفق أحدهم فى مديرية المنيا سبعين ألفا من الجنيهات فى شهر واحد ! .

ودارت المعارك الانتخابية حامية الوطيس فى بعض بلاد الوجهين القبلى والبحرى ، فسقط القتلى والجرحى ، وانغمرت محاكم الجنايات فى قضايا كثيرة ، واشتعلت نار الحزازات الاقليمية فالتهمت اليابس والأخضر فى البيوت والأسر والجيران ...

واجتمع « مجلس النواب » بقاعة جلساته فى يوم الاثنين ٢٣ مارس سنة ١٩٢٥ . وكان من بين الوزراء المعروفين عبد العزيز فهمى ، ومحمد على ، وتوفيق دوس ، وعلى ماهر ، واسماعيل صدقى وزير الداخلية الذى أشرف على عملية الانتخابات ... وأعضاء يقسمون اليمين . ثم دارت مناقشة لم تستغرق عدة دقائق عن اجراء انتخابات رياسة المجلس الى أن أجريت فاذا بسعد زغلول ينال ١٢٣ صوتا ، وعبد الخالق ثروت ٨٥ صوتا ، فيظفر سعد زغلول بالرياسة ويلقى كلمة الشكر قائلا :

« ان هذه الثقة التى طوقتم جيدى بنعمتها مظهر ثقة الأمة جميعها ، وأرجو أن تشعروا بأنى لن أكون فى هذا الكرسى ممثلا لحزب من الأحزاب ، وانما سأكون ممثلا للدستور ولوائح المجلس ... »

وانتهت الجلسة الصاخبة فى ساعتين اثنتين ، ثم أعيدت فى الساعة الخامسة بعد الظهر فقطعت ساعتين اثنتين أيضا أجريت فيها عملية انتخاب وظائف مكتب المجلس. وأخذ النواب ومن ورائهم ملايين المصريين يدعون الله أن يوفق هذا المجلس وأن يمد فى عمره وأن يعينه على أداء واجباته القدسية ...

وبعد خمس دقائق من هذه الساعات الاربع ، فوجىء المجلس بدخول رئيس الوزراء اذ ذاك ، أحمد زيور باشا ...

رسمنا بما هو آت :

واذا برئيس الحكومة يلقى ما يأتى بنصه وفصه :

ـ نحن فؤاد الأول ملك مصر

« بعد الاطلاع على المادتين ٣٨ و ٣٩ من الدستور

« وبناء على ما عرضه علينا رئيس مجلس الوزراء وموافقة رأى هذا المجلس »

رسمنا بما هو آت :

المادة الأولى ـ يحل مجلس النواب

المادة الثانية ـ المندوبون مدعوون لاجراء الانتخابات الجديدة فى ٢٣ مايو سنة ١٩٢٥

المادة الثالثة ـ مجلس النواب الجديد مدعو للاجتماع فى أول يونيو سنة ١٩٢٥

المادة الرابعة ـ على وزير الداخلية تنفيذ مرسومنا هذا ...

ان محضر هذه الجلسة فى يدى وأنا أحرر هذه السطور وهو عبارة عن ورقتين اثنتين !

ويسجل التاريخ الدستورى والبرلمانى فى العالم كله منذ ألف عام هذه السابقة الفذة فى مصر لأول مرة فى تاريخ الحياة الدستورية والبرلمانية فى العالم طرا

ـــ مجلس يعيش أربع ساعات فقط !

ـــ مجلس يحل لأن الرئيس الذى انتخب ليس هو الرئيس الذىأرادته الحكومة

ـــ الأعجب من هــذا وذاك أن المضــبطة أثبتت أن بعض حضرات الأعضاء صفقوا طويلا وهتفوا بحياة جلالة الملك !

وهرول الأعضاء الوفديون الى دار رئيسهم وكان هناك على درجات السلم النائب الذى خسر سبعين ألفا من الجنيهات فى شهر واحد ولم يكن قد بقى حتى نهاية الجلسة ، فلم يكد يسمع خبر الحل حتىسقط حيث هو وقضى نحبه بعد ذلك !

خبران . . .

فى الساعة التاسعة من ليل الاثنين٢٣ مارس سنة ١٩٢٥ كان «الضاحك اباكى» فى قهوة متواضعة بعاصمة اقليم مع بعض الأصــدقاء واذا به يتلقى هذين الخبرين بالترتيب :

الأول : ان مجلس النواب الجديد قد قضى نحبه فى الحال ...

الثانى : انها قد قضت نحبها فى الحال ...

وكانت وديعة الله .. وديعة الشباب .. ووديعة الأمل هى : «عايدة» !

الـكونتنتال

فى يوم من أيام سنة ١٩٢٦ استدعى الزعيم سعد زغلول ، الأستــاذ شكرى وقال له :

ـــ ياحضرة السواق ...

قال شكرى : « أى سواق يا باشا ؟ »

قال سعد زغلول وهو يضحك ضحكته الخلابة التى تبرز ملامح وجهه بشكل يسترعى النظر والفكر :

« سواق ! ألست سواق الزعماء ؟ ! »

اندهش الشاب ، وقال له فى أسلوب احتجاج مكبوت : « أنا يا باشا ؟ أنا أسوق الزعماء ؟ كيف ولماذا ؟ »

قال سعد : « نعم ، أنت سواق الزعماء . أنت تلهبنا بسوطك ، وقلمك ، ولسانك ، مشنعا وكاتبا وخطيبا ، كل أسبوع ، ولا يعجبك العجب ولا الصيام فى رجب ! ولو كانت يدك فى النار مثل أيدينا ... أو كنت فى البحر حيث نحن لا على البر ، لما سقت الزعماء ، ولما ألهبتهم بسوطك وقلمك ولسانك ... »

قال الشاب : « أنا يا باشا لا أسوق الزعماء ، وانما ألفت النظر .. ومهمة الذين ليست يدهم فى النار ... والذين على البر ، أن يبلغوا الرسالة فى اطارها المؤدب المهذب ، وتلك هى حرية الرأى التى جاهدت فى سبيلها ودعوتنا اليها ... »

قال : « نهايته ... انت غلباوى كبير ، اذهب الى أمير الشعراء شوقى ، وخذ منه القصيدة التى أعدها ، واقرأها جيدا ، واضبط نحوها وصرفها عليه ، وتدرب على القائها مثنى وثلاث ورباع ، ثم احضر الىّ لعمل البروفة ... »

وخرج شكرى لتنفيذ هذه التعليمات ...

كان « المؤتمر الائتلافى الأكبر » قد أعدت عدته بعد حل مجلس النواب سنة ١٩٢٥ ، وبعد تعثرالحياة البرلمانية فىمستهلها ومطلعها ، وكان لابد من أن تتجمع الأحزاب — وتأتلف — وتطالب بتصحيح الأوضاع — وتلجىء الملك فؤاد بقوتها الشعبية على أن يرضخ للأصول المرعية أو التى يجب أن ترعى ! والملك فؤاد كان ملكا قوى الشكيمة ، عنيدا ، كفؤا للنضال وللنزال ... ولكنه فى الوقت نفسه كان جم التجارب ، بعيد النظر ، يعرف كيف يقدم وكيف يحجم ، وكيف يهجم وكيف يتراجع ، وكيف يطأطىء الرأس عند اللزوم !

وللتاريخ نذكر أن صاحب الفضل الأول فى فكرة « ائتلاف الأحزاب »

وفى فكرة عقد المؤتمر الخطير ، كان المرحوم محمد حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى اذ ذاك ، وبعد ذاك ...

***

وكان لهذا الرجل صولاته وجولاته فى المؤتمرات الداخلية والخارجية ، وكانت له غزواته فى مؤتمر سنة ١٩١٢ — وفى مؤتمر لوزان الى غير ذلك مما سيفد فى حينه ..

غير أن ذلك الرجل كان لا يجيد فن الدعاية ، ولا يجيد الاتصال بالجماهير ، وكان ذهنه الخصب الفتاق أرفع من أن ينزل الى سفح الضجيج والعجيج ... وأعدت معدات المؤتمر الخطير اعدادا محكما ، ووفق الله زعماء الأحزاب كلها فى الجوهريات والتفاصيل ، فلم يتعثر ، وسارت اجراءاته سيرها السليم ...

سألنى الأستاذ شكرى وأنا أقرأ عليه مسودة هذا الكلام :

— هل درست ، كمؤرخ ، موقف الانجليز من هذا المؤتمر ؟

قلت له : « أنا لا أؤرخ ! وقد كررت عليك ذلك مرارا . انما أنا ألتقط من قصتك بعض المناسبات لأمزجها بصميم الرواية . فأنا « عابر سبيل » ...

قال : « ما دمت تنشر فلم لا تسد هذه الثغرة ، وتذكر لقرائك أن الانجليز كانوا يغمضون العين معتمدين على هذا المؤتمر الخطير؟ وحكمتهم فى ذلك أن يجدعوا أنف الملك فؤاد ، حتى لا تشمخ وتلمس السماء .. حكمتهم فى ذلك هى نفس حكمتهم حينما جدعوا أنف مصطفى كامل وطردوه وقاوموه حينما تقوى على الخديو عباس ... وحكمتهم حين جدعوا أنف سعد زغلول ومصطفى النحاس أكثر من مرة فى التاريخ المصرى الحديث ... وهذه الحكم كلها تبدأ وتنتهى عند الحكمة الأساسية ، وهى أن يضربوا هذا بذاك ، وذاك بهذا ، حتى لا يختل التوازن فى سياسة البلد الداخلية وخصوصا عند ممارسة الحكم الوطنى الجديد !

اذن كان الانجليز « مصهينين » أو « مغطرشين » أو « مشجعين »... والله أعلم

وانعقد المؤتمر الخطير فى سراى محمود سليمان باشا ، والد زعيم الأحرار الدستوريين محمد محمود باشا ، فكان مؤتمرا له جلاله وعظمته وقوته بما جمع من الأقطاب والاقيال ، وما ألقى فيه من الخطب النارية المثيرة ، وما اتخذ فيه من القرارات الجريئة لأول مرة فى تاريخ الحياة النيابية ...



وقام الأستاذ شكرى واعتلى مائدة كبيرة واتجه بصوته الجهورى ناحية سراى عابدين مقر الملك فؤاد ، وألقى أقوى قصيدة سياسية لأمير الشعراء ، وخصوصا عندما زأر بالبيت المشهور :

وجواهر التيجان ما لم تتخذ   من معدن الدستور غير صحاح

وكان الالقاء بالغا مبلغه من العنف فاهتز سعد زغلول اهتزاز المعجب المترنح ، وضج الكبراء بتصفيق وهتاف الشباب ، وطلبوا الاعادة مرة وثانية وثالثة . ولابد ان ذلك الصوت قد بلغ مسامع الملك فؤاد ، فحفظ هذه السابقة وضمها الى أخرى فى سجل « الضاحك الباكى » أو فى قائمته السوداء ! وسيرد ذكر تلك السابقة فى مكان آخر ...

نجح الائتلاف ، وأحدث أثره بسرعة البرق !.. فتقرر اجراء انتخابات حرة ، وما دمنا قد وصلنا الى الانتخابات ، فقد عادت « ريمة » لعادتها القديمة ، وأخذ الزعماء المؤتلفون يهبطون من سمائهم العالية الدستورية البرلمانية الى خفيض اللجاج حول الدوائر المقفولة وأسماء المرشحين والنسب العددية للأحزاب !

وكان سعد زغلول سيد الموقف بلا شك !

اذ أن تجربة سنة ١٩٢٤ ، وتجربة سنة ١٩٢٥ ، قد أظهرتا أنه يملك أغلبية ساحقة لا تقبل الجدل !

واجتمعت اللجنة الادارية للحزب الوطنى ممثلة فى أقطابها وعظمائها ،

ودار البحث حول العدد الذى يجب أن يظفر به الحزب الوطنى من الدوائر المقفولة أى التى لا ترشح فيها الأحزاب الأخرى ... أى التى تتعاون فيها الأحزاب على انجاح مرشحها ... فاقترح البعض أن يصر الحزب الوطنى على أربعين دائرة ... وقنع البعض بخمس وعشرين دائرة ... ولما خيف أن يرفض سعد زغلول هذا الرقم وذاك ، اقترح الأستاذ الكبير الفقيه العالمى المرحوم « أحمد لطفى بك » أن يكون رسول الحزب الى سعد زغلول هو بطل هذه القصة ... ولما سئل فى ذلك قال : « ان بيننا وبين سعد زغلول من قديم الزمن جروحا ورضوضا . وما وقع اختيارنا على أصغرنا سنا الا لأنه حديث العهد بمعارك الرجال ... ولأنه — من جهة أخرى — خفيف الظل على سعد زغلول ... وقد وافق الجميع على هذه السفارة ، فحملها الشاب وهو يئن من ثقل الحمل... وذهب الى دار « سيد الموقف » وكان يتناول الشاى وكأنه أدرك بلماحيته موضوع الرسالة فاستقبله قائلا :

— نعم ! نعم ! عاوزين تشربوا من دمى ؟

قال الشاب : « معاذ الله ياباشا فدمك مصون ! لانشرب من دمك ، وانما نشرب معك من معين واحد هو معين الائتلاف ... »

قال فى شبه ثورة : « كان الائتلاف لاعادة الحياة الدستورية ، لا لتحطيم سعد زغلول والأكل من لحمه وشحمه ! يابنى ! ان أنصارى بعدد النمل ، وقد ظلوا لى أوفياء وأولياء ! وحموا ظهرى فى الأزمات والمحن ! فماذا أقول لهم : أأقول اننى أجزيكم جزاء سنمار وأعطى حقكم لغيركم ؟ اننى بذلك أبيح لهم أن يوهنوا عظمى ، وأن ينهشوا لحمى ! »

قال : « ياباشا عدد مجلس النواب فوق المائتين ، والقسمة العادلة أن يكون لك النصف وللأحزاب النصف ! »

وهنا خرج عن هدوئه المصطنع ورفع يده صائحا : « يا للعجب ! يا للظلم ! كيف أقبل هذا وأكون جديرا بزعامة أنصارى من هذه

الملايين ! لا ! مرفوض بالثلث ! »

وحاول الرسول الشاب بكل وسائله أن يظفر لحزبه « بالرقم الأصغر » فكان الرفض البات ولم تجد الكياسة ، ولا اللباقة ، ولا خفة الظل ... فعاد الى لجنته بخفى حنين أو بأربع عشرة دائرة مقفولة

نائب بالتزكية

من هذه الأربع عشرة دائرة المقفولة ، حجزت دائرة للمرشح شكرى . اكراما وتقديرا ، أو جبرا للخاطر أو لأى اعتبار آخر ... وكانت من دوائر مديريته وبدأ يستأنف تجواله فى القرى والعزب والكفور ، اذ كان من المحتمل — جدا — أن يخرج أى راغب فى الترشيح على الائتلاف ، وما أكثر الخارجين ، لولا أن الصحافة صاحبة الجلالة اعتبرته مرشحها ، وأيدته برعاية واسعة النطاق ...

ولف مرشحنا ودار حول أقطاب الدائرة ليجس النبض ويحول دون الشر قبل أن يقع الشر !

وكللت لفاته ودوراته بالنجاح فتفضل كبراء الدائرة وأقيالها فعدلوا عن الترشيح اما تكريما لشخصه ، أو تكريما للائتلاف ، أو خوفا من الائتلاف

ونجح بالتزكية ، فلم تجر عملية الانتخاب فكان أول نائب دون الثلاثين

واكتسح الوفد — كعادته — الدوائر. والفضل لسعد زغلول ، الذى ذاع عنه القول المعروف : « لو رشح لها حجرا لانتخبناه ! »

وبقوة الشعب وارادة الشعب يعود سعد زغلول فيعتلى عرشه ! ويقبض على صولجانه ...

ولكن ... أصحيح أن ارادة الشعب هى كل شىء ؟

اسمع هذه القصة :

قرر الوفديون — بعد انتصارهم الباهر — أن يحتفلوا بزعيمهم سعد زغلول ، واختاروا فندق الكونتننتال لاقامة هذه الحفلة . ودعوا اليها النواب والشيوخ جميعا من مختلف الأحزاب ...

وأحس الأستاذ شكرى بأن وراء الأكمة ما وراءها ! ذاع وشاع وملأ

الأسماع ان سيد قصر الدوبارة ـ جورج لويد ـ يحمل تعليمات من لندن ، بأن يحول دون سعد زغلول ـ رئيس الأغلبية ـ والحكم !

عجبا ! أى عجب !.. أهى لطمة مقصودة للأغلبية ؟

أم مجاملة للملك فؤاد ؟.. أم مناورة ومداورة مع الأقلية ؟

المعنى فى بطن الشاعر ... والشاعر هو : جورج لويد ...

وافتتحت حفلة التكريم فى فندق الكونتيننتال ، باسم الله الرحمن الرحيم، وجلس سعد زغلول فى الصدر . ولكن يا للدهشة : لقد كان ـ بالأمس ـ متمتعا بوافر الصحة وكمال العافيــة ! ولكنه ـ اليوم ـ يســير مستندا الى أذرعة أنصاره ، متوكئا على عصاه مترنحا بعض الترنح وقد كان ـ بالأمس ... وبالأمس فقــط ـ كالرمح فى قامتــه وهامتــه ، ومشيته !

وألقيت خطب ، وقصائد تقليدية . ولم يطق الأستاذ شكرى ذلك الجو العجيب فانبرى ...

انبرى يلقى كلمة باسم « المعارضة المنتظرة » . وبعد أن سار شوطا قصيرا فى عبارات المجاملة المتعارف عليها ، شد قامته ورفع صوته وقال :

« همس الهامسون . وهجس الهاجسون . بأن زعيم الأغلبية لن يلى الحكم ! وانى أريد أن يعلن زعيم الأغلبية تكذيب هذه الاشاعة . وهذا المكان مكان التكذيب وهــذه الفرصــة فرصته . وانى لمتأكد من أن زعيم الأغلبية لن يسمح لأية سلطة كانت بأن تعبث بالأوضــاع البرلمانية الدستورية الصحيحة والا فالوضع أخطر مما تتصــور ! واللطمة التى تصيب التقاليد الدستورية أفدح مما تتخيل الأذهان »

وكانت قنبلة دوت دويها فى أرجاء القاعة . ولكن لم يفاجأ بها الوفد.. ولا الوفديون ...

***

نهض الدكتور نجيب اسكندر وقال ما ملخصه :

« انى الطبيب الخاص المعالج للزعيم الكبير سعد زغلول ، أقرر أن

صحته فى الوقت الحاضر لا تحتمل أعبـاء الحكم ولا متاعبه . وصحة الزعيم عندنا وعند الشعب أغلى من الحكم ! وأعز علينا من أن تستهدف لأعبائه ومتاعبه » ...

وبدأ المستمعون يفهمون « الفولة » ... ونهض الزعيم الكبير متثاقلا ، مهتزا ... متمايلا ...

فاشتد التصفيق المدوى ، وارتفع الهتـاف لعنان السـماء . ونادت الأغلبية بصوتها الذى قصف قَصْفَ الرعد بأن صحة الزعيم فوق الحكم!

وتمتم أخطب خطيب شـهده التاريخ المصرى الحـديث بضع كلمـات تتلخص فى أنه متعب ! وبأنه يخضع لارادة الشعب ممثلة فى شـيوخه ونوابه .. وأسدلت الستار ...

الفرسان الأربعة

وا أسفاه ...

لم تنجح هذه التجربة ، أو السابقة ، ولم تعش طويلا! ولو أنها نجحت وعاشت ، لأدت للبلد خدمات . ولكن « العيون اليواقظ » كانت تكره الائتلاف . لأن مهمتها كانت تحطيم الائتلاف

وأعود فأكرر أننا ـ فى هذه القصة ـ لا نؤرخ ، وانما نقص قصة ، ونروى رواية ، فلا يطالبنا أحد بالتزام التاريخ فى تفاصيله ، اذ لنا أن نختار ما شئنا أن نختار ...

ذلك العهد البرلمـانى والحكومى المصرى كان أقوى العهـود بدعائمه وأركانه وزعمائه ، سواء وفقهم الله أم لم يوفقهم ، أم لم يشـاءوا أن يوفقوا وأن يوفقهم الله

نحن نحلل « القوة » برفع النظر عن خيرها وشرها ، وبرفع النظر عن حسناتها وسيئاتها ، وبرفع النظر عن أهدافها وغاياتها ونهاياتها ...

كانوا فرسانا أربعة يمثلون القوة من حيث هى ...

أولهم : الملك فؤاد ، وقد كان رجلا مارس مهنة الحياة ممارسة عملية مضنية . تاريخ حياته كله تاريخ مليء بالحوادث والأحداث المثيرة ولقد عانى ما عانى من تلك الحوادث والأحداث ، ثم عانى ما عانى من قلة الموارد ، حتى جاءه الملك بعد اصرار الأمير كمال الدين حسين اصرارا عنيفا على رفض العرش والتاج ! تلك الحياة المضطربة أكسبته علما على علمه الذى تلقاه كما يتلقى العلم المتعلمون ، تلك الحياة المضطربة أكسبته خبرة أضافها الى خبرته ، ومناعة أضافها الى مناعته . وفى حياته شبه البوهيمية فى الداخل والخارج.. كان قد عرف الناس من أقطاب الدنيا ، وكان قد عرف أساليب الحكم ـ ثم كان قد رأس الجامعة الشعبية الأولى فى مصر ، فاتصل بالعلماء من المصريين والأجانب ـ وكانت له جولات وصولات فى النوادى الكبرى ، فتوثقت صلاته برجال المال والأعمال

كان ذلك هو الملك ! أو الملك الأول بهذا اللقب فى تاريخ مصر الحديث ...

تلك كانت ناحية كفاياته . وما دمنا فى معرض القوة ـ برفع النظر عن معدنها ـ فقد كان الفارس الأول ملكا قويا

وثانيهم : كان سعد زغلول ، لا ممثل الملك ، ولا العرش ، ولا التاج ، وانما ممثل القوة الناشئة المترعرعة ، وهى الشعب وقد سلمه الشعب هذه القوة ابان الثورة المصرية ـ وبعد فوزه الساحق فى سنة ١٩٢٤ ـ وبعد فوزه الساحق فى ذلك العام وهو عام سنة ١٩٢٦ . ولم يكن من المعقول بطبيعة الحال الا أن ترتطم قوة التاج بقوة الشعب ، ممثلتين فى الملك فؤاد وسعد زغلول ، كل منهما له أسلحته وعتاده ، وكل منهما له أساليبه الملكية والشعبية ، وكل منهما له ميزاته ومؤهلاته المنبثقة من العمر الطويل والخبرة الطويلة

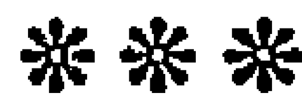
وثالثهم : كان « جورج لويد » ممثل الاحتلال . والاحتلال فى حد ذاته قوة أية قوة ! فما بالك اذا مثل حديده وناره وشره وخطره رجل كان فى طليعة حزب المحافظين ـ وفى طليعة رجال المال والأعمال ـ وفى

طليعة رجال الاستعمار الأقوياء الأشداء الذين سبق طغيانهم وتألههم كثيرا من سير حكام الأمبراطورية بعد نقله من الهند الى مصر ...

ورابعهم : عدلى يكن ، وقوته كانت مستمدة من نزاهته وحكمته وكرامته . وزعامته لطيفة ومجموعته من خلاصة السياسيين الذين مثلوا الأقلية ، وفى مقدمتهم القطب الدولى الفقيه رشدى ، والسياسى اللبق الدوار المكر المفر « ثروت » ، والادارى الحازم والاقتصادى الكبير والسياسى « الواقعى » البارع صدقى ــ ورجل الانفة والعزة والشدة محمد محمود ، وأستاذنا أطال الله عمره ، أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد ، وغيرهم كثيرون . وعفا الله عنى اذ نسيت وأنا أسرد الأسماء ألمع حجة وثقة فى الفقه والقضاء وهو عبد العزيز فهمى ...

تلك هى « القوى » التى ملكت زمام السياسة فى حاضر ومصير البلد الأمين المسكين !

ونحن اذا أبرزنا تلك القوة فلسنا بالمادحين ولا بالمؤيدين لأن بطل القصة ــ الأستاذ شكرى ــ كان دائما من القادحين المعارضين ولا نحب أن نغضبه بغير أن نزكى القوة فى حد ذاتها ، برفع النظر عن خيرها وشرها ...



ملكنا تلك القوى الأربع زمام الدولة ممثلة فى رئيس الدولة ، وهو الملك ، ورئيس الأغلبية الشعبية وهو سعد زغلول ، وعميد الاحتلال وهو جورج لويد ، ورئيس الحكومة وهو عدلى يكن ...

وافتتح البرلمان الائتلافى فى يوم الخميس ١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٦ بمجلس النواب بالقاهرة ، ولا داعى لذكر تفاصيل الاحتفال وانما « الأدعى » أن نقول أن ذلك الائتلاف تمخض عن مجموعة قوية من البرلمانيين كانوا بلا شك خلاصة الخلاصة ... لماذا ؟ لأن الانتخاب لم يكن مطلق الحرية جزافيا على عواهنه . وانما أقفلت الدوائر للأفذاذ من كل حزب ، فكان انتخابا وتعيينا فى الواقع ، وكان « التعيين الانتخابى » مثاليا لأنه لم

يتحكم فيه فرد بارادته وانما مجموعة أفراد ومجموعة ارادات ومجموعة أحزاب ...

وفى أحدث الفتاوى الفقهية الدستورية الحديثة ، تمنى علماء القانون وتلهفوا على «تعيين مثالى» لأنهم أدركوا مساوىء الانتخابات الجزافية ، ولكنهم خشوا أن يعبث من فى يده التعيين فجفلوا منه وآثروا الانتخاب ...

ويا للمغالطة الدولية الكبرى ! ويا للأكذوبة العالمية الدستورية الفادحة ! فان نصف أوربا ، ونصف آسيا ، يجرى على قاعدة الانتخاب فى البلاد الاشتراكية الصارخة ، ولكن أى انتخاب ؟ ! انه تعيين بالأمر وبالقوة فى اطار من مسرحيات انتخابية !

هكذا كان برلمان تركيا فى عهد مصطفى كمال ــ وبرلمان ألمانيا فى عهد هتلر ــ وبرلمان ايطاليا فى عهد موسولينى ــ وبرلمانات روسيا والصين فيما بعد الثورة الشيوعية !



افتتح البرلمان المصرى الائتلافى الأول فى ١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٦ كما قلنا وتألف مكتب السن من محمد بك سعيد رئيسا ومن الأستاذ شكرى بطل هذه القصة ، وثلاثة من زملائه باعتباره من أصغر النواب سنا ... وذهب « وفد السن » هذا الى سراى عابدين كما تقضى بذلك التقاليد فتشرفوا بمقابلة الملك فؤاد وقدم أعضاء الوفد الرئيس واحدا بعد الآخر، فلما جاء دور الأستاذ شكرى وشرع فى مصافحة صاحب الجلالة قال له : « انت بتاع زيور ؟ » فتمتم مجيبا وهو لايدرى بماذا أجاب ! وأخذ الفتى الناشىء يحسب حساب هذه الغمزة الملكية الخطيرة على حاضره ومستقبله ! وعجب كيف يحفظ الملك القوى قضية زيور ويضعها فى ذاكرته المشحونة بمسئوليات الدولة الكبار حتى يحين الحين !

كان السيد حسن زيور من زبائن الأستاذ شكرى المحامى . وكانت له عزبة لايتجاوز مساحتها عشرين فدانا . ولكنها كانت فى صميم تفتيش

الملك فؤاد فى اقليم الشرقية . وشاء موظفو التفتيش أن يجاملوا الملك ، ولا نظلمه اذا كان عالما أو لم يعلم — فاستعملوا كل وسائل العنف ليحملوا حسن زيور على أن يبيع أطيانه للتفتيش بمائة وعشرين جنيها للفدان بعد مائتين وخمسين !

كانوا يؤرقونه ليلا ونهارا — ويطلقون عليه مياه آلات الرى الكبرى لتغرق أطيانه — فلما ضاق ذرعا ركب جواده وأطلق عدة رصاصات فى الفضاء فقبضوا عليه وكبلوه بالحديد واتهموه بجناية الشروع فى القتل ، وجنحة دخول أرض الملك بدون اذن ، وجناية العيب فى الذات الملكية ! وأسرع محامينا الناشىء بطل هذه القصة فكافح الكفاح العنيف حتى حفظت الجنايتان وقدمت الجنحة لمحكمة بلبيس ، وكان قاضيها الرجل الحر الأبى العادل محمد عرفه ، الرياضى الكبير سابقا — والقاضى والمحامى لاحقا ، وترافع الأستاذ شكرى مرافعة بدأت من الساعة التاسعة صباحا ، وانتهت فى السادسة مساء ، ألهب فيها التفتيش الملكى وأثخنه جراحا دامية وذكر فيما ذكر أن موكله قد أكره على أن يبيع أطيانه وهو فى السجن بمائة وعشرين جنيها للفدان الواحد كما شاء التفتيش !

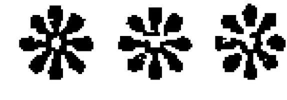
وحكم القاضى العادل الجرىء أطال الله بقاءه — محمد عرفه — بالبراءة !

تلك هى القضية ولكن ما هو أخطر منها أن رسولا كبيرا زار المحامى الشاب فى مسكنه بعاصمة اقليمه وأبلغه أن السفارة البريطانية تريد أن تطلع على دوسيه هذه القضية ومعلوماتك الخاصة — وأن تنسخ منه صورة — لأنها تجمع بعض الأدلة ضد الملك فؤاد !

قال « الضاحك الباكى » للرسول : « أتريد أن أكون آلة فى يد الاحتلال ضد ملك البلاد .. مهما كانت أساليبه أو أساليب موظفيه فلن أفضى اليك بما أعلم لتستغله السياسة الانجليزية ؟

قال رسول السفارة البريطانية : « ولم لا ألست تريد أو أليس من واجبك أن ترفع ظلما ؟ »

قال الشاب : « نرفع الظلم عن طريق المصريين لا عن طريق الانجليز! » ورفض رفضا باتا أن يسلمه الدوسيه أو يطلعه على حرف فيه ...



عندما انتخب سعد زغلول رئيسا للمجلس ، سأل سكرتير السن المؤقت الذى بجانبه فى مقعد الرئاسة وهو الأستاذ شكرى عن هذه القصة فرواها له وربت الرجل بيده على كتفه مهنئا ومعجبا ثم جاء دور انتخاب سكرتيرى المجلس بعد انتخاب الوكيلين فمال سعد زغلول على أذنه وقال له :

« اذهب سريعا واقنع رئيسك حافظ رمضان بأن يرشح نفسه للسكرتارية ! »

قال وهو مأخوذ : «ماذا تقول يا باشا ؟ ! حافظ رمضان الضخم العظيم رئيس الحزب الوطنى وخليفة مصطفى وفريد يرشح نفسه سكرتيرا ! »

قال سعد زغلول : « ولم لا يابنى ؟ نريد أن يكون انضمام العظام فى مكتب المجلس لأن منهم يختار الوزراء والرؤساء ... »

قال : « لا ياباشا لا ! سأحفظها عليك ولن أقولها لحافظ رمضان ولا لأى مخلوق ولكننى باسم الحزب أرفض بكل احترام هذه الفكرة ... »

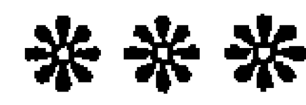
وبر بطل هذه القصة بوعده فلم يذكر هذه الحكاية الا عند كتابة هذه السطور ...

سر نجاح النائب

أبرزنا فى الحلقة السابقة كيف كان مجلس نواب سنة ١٩٢٦ مجلسا خطيرا ، وكيف كان غنيا موسرا بدعائمه من رياسة وحكومة ونواب وأحزاب . وذكرنا عن سعد زغلول القليل ، حتى اذا ما اختاره الله لجواره بعد عام واحد من رياسته لمجلس النواب ، حللنا شخصيته بقلم صاحب هذه القصة ...

وليس فى نيتنا أن نسرد فى هذه القصة تاريخ الحياة البرلمانية النيابية فى هذا البلد .. لا .. نكرر ونرسخ فى ذهن القارىء أنها قصة وليست تاريخا ... وانما أوردنا ما أوردناه عن هذه الحياة البرلمانية النيابية لأنها جزء من حيـاة « الضـاحك الباكى » وقد يجد فيها من يعنون بالنظام الديمقراطى السياسى ما يفيدهم

والفكرة فى نشر هذه القصة ، ليست فكرة قصصية على طول الخط ، وانما هى فكرة اجتماعية أبعد أثرا وأعمق غورا : حياة رجل عام ، نسجل عمومياته وخصوصيـاته بافضاء حقيقى وواقعى ـ وبصراحة تامة تكاد تكون اعترافا يضم حسنـاته وسيئاته ... مهازله وجدياته ... غزواته ونزواته ... توفيقه وفشله ... صوابه وخطأه ... ومن هذا المزيج الغريب بين السياسة والحزبية ... والنيابة ... والمحاماة ... والصحافة يستفيـد القارىء ... وخصوصا الشباب ... من نواحيه المتنافرة وحياته المضطربة ، ومسلكه الطيب والردىء ، الى آخر ما يفد فى قائمة كل حيـاة عجيبـة الأطوار



سألته : « نحن الآن نمر مرورا سريعا على الحياة النيابية ، وقد أطلقوا عليك لقب « البرلمانى الأول » فهلا أتحت لى نشر بعض الأسس التى أدت الى نجاحك البرلمانى .. ذلك النجاح الملحوظ ، لا للاشادة بذكرك ، وانما ليستفيد من سيقتحمون هذا الميدان ؟ »

ـ هل معنى هذا أن أكشف لك سر المهنة ؟

قلت له : « أو لا تزال تطمع فى أن تكون نائبا ، وقد نبذت النيابة نبذ النواة فى سنة ١٩٥٠ ، وزهدت فيها ، وأعلنت اضرابك عنها ؟ »

قال : « صـحيح .. ما أزال مصرا على رأيى ، ولن أمتهن هـذه المهنة مرة أخرى فاكتب عنى وعنها ما تشاء ... »

قلت : « اذن .. ركز ، وأوجز ، وقل لى كيف نجحت كنائب ... »

قال : « اليك سر النجاح فى بنود ... »

أبلغ البلغاء هو : المقل !.. أما الثرثار فشيء آخر ...

و « الخطبة العذراء » للنائب الجديد هى حاضره ومستقبله كله ، فى مجلسى النواب أو الشيوخ ...

ونعنى « بالخطبة العذراء » أول خطبة ... لئن نجح فيها وهز مشاعر زملائه النواب ذكروها دائما فى خطبه التالية . ولئن سقط وفشل ذكروا دائما السقوط والفشل فاستقبلوا خطبه التالية أسوأ استقبال ... وكم صعدت « الخطب العذراء » بنواب الى الجوزاء ! وكم هبطت بهم الى الحضيض ...

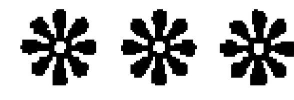
والرد على خطاب العرش هو الفرصة وهو المجال . ان خطاب العرش عادة يشمل جميع النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية للدولة وللأمة . فما على النائب الا أن يختار ، حين يتعرض للرد عليها ، ما يناسبه ، ويناسب استعداده وثقافته وتخصصه . وخطاب العرش هو استهلال العمل فى مجلس النواب . وخطب الرد عليه هى الخطب الاستهلالية أيضا للنواب والشيوخ . وفى عهد الجمهورية ، لا أدرى ماذا سوف يسمون خطاب العرش . وربما سموه « خطاب الجمهورية » أو « خطاب رئيس الدولة » أو « رئيس الجمهورية » . ومهما يكن الاسم فالمعنى مفهوم

وحين يختار النائب بحثه يجب عليه أن يدرسه دراسة نظرية موجزة ، ودراسة عملية واسعة ، وهو يستطيع أن يستعين بالعارفين والخبراء والمتخصصين ثم يسمو ويرتفع اذا زود بحثه بالأرقام والاحصاء ، وأشعر سامعيه بأنه « تحرك » ، تحرك واستقصى من هنا وهناك ولم يقنع بوضع موضوع انشاء ...

وفن الخطابة البرلمانية يختلف ــ كثيرا ــ عن فنون الخطابة الأخرى. لكل مقام مقال : فخطيب الجماهير يستطيع أن يدوى ما شاء أن يدوى ! ويطبل ما شاء أن يطبل ! ويرص الكلام الأجوف الأخاذ ما شاء أن

يرص ! ويشتط ما شاء أن يشتط ! وكم انحدر خطباء الجماهير فىالبرلمان الى الهاوية !

وكذلك « خطبـاء المحاكم » أى المحامون المترافعون لهم فنهم ... ولكن فى محاكمهم ، وكم سقط محامون فى البرلمان ، وكم انحدروا الى الهاوية ...



فى البرلمان عدة رقابات متحفزة متربصة : رقابة الرياسـات ــ رقابة الحكومة ــ رقابة النظارة ــ رقابة المعارضة ــ رقابة الصحافة ... وكل هذه لايستهويها أو لايخدعها منطق الطبل ، وانما منطق العقل ..والمنطق السليم هو دائما السيد ، وهو دائما الحكم وهو دائما القول الفصل ! ولا تغير اللغة الفصحى المتينـة المحكمة أو اللغة الوسـطى أو الدارجة من الوضع كثيرا أو قليلا. صحيح انالذى يملك زمام اللغة والمنطقمعا يستولى ويسيطر . ولكن الويل كل الويل للذى يجيدها بلا منطق فى البرلمان !

حتى الجماهير هذه الأيام .. أصبحت وقد تقـدم وعيها الفكرى ، لا تقبل تلك الأساليب الخطابية العتيقة البالية التى كانت تثير ثائرتها فيما مضى ...

كان سعد زغلول خطيبا ضخما عاتيا ، ولكنه وصل الى القمة لأنه كان يملك زمام اللغة وزمام المنطق ... والفضل كل الفضل للأزهرالشريف. ولكنه ما كان يلتزم الفصحى بتزمت وتكلف ، وانما كانت تتدفق عليه بالسليقة .. فاذا أعوزته «الوسطى» التى بين العامية والفصحى لجأ اليها أو الى مادونها ، فما هبط منسوب بلاغته !

وكان المرحوم ابراهيم الهلبـاوى فى أغلب خطبه البرلمانيـة يطاوع سليقته فيمزج بين اللغتين الفصحى والوسـطى . وكان المرحوم حافظ رمضان من أقوى الخطباء الذين سمعتهم فى حياتى ، ولكن لم تنج لغته من اللحن ، بيد أن منطقه القوى وغزارة مادته كانت تسد النقص سـدا كاملا ...

وكان المرحوم صدقى باشا موسيقيا فى القائه ولكنه لم يكن بليغا فى لغته . بل ان بلاغته فى منطقه وفى أرقامه وفى استشهاداته ، وفى عدم تصنعه



ولم يكن المرحوم الشهيد أحمد ماهر خطيبا بمعنى الكلمة ، ولكنه كان فى نظرى من أخطب الخطباء ، لأنه كان يعرض موضوعه عرضا أخاذا بلغة كلامه العادية ويعترف بنقط الضعف فيقدمها ثم ينسفها بالمعاذير والمبررات حتى اذا اجتاز منطقة الخطر - أى نقط الضعف - دفع بكتائب النقط القوية دفعا ، وزحف بها زحفا فاستولى على اسماع المستمعين ...

ونحن لا نذكر هنا أبرز الخطباء البرلمانيين ولا نحصرهم وانما نذكر ألوانا من الفنون والأساليب البرلمانية الخطابية . وقد يقول قائل ان الأستاذ الكبير مكرم عبيد قد ملك زمام اللغة وحرص على أن لا يفرط فيها . واكتمل سجعه واستقام ، فلماذا لايكون مثاليا لكل نائب ؟ والرد على هذا هو ما سبق أن قلناه وهو أن الذى يملك الزمام كله من لغة وصوت جهير ومنطق ، فليلتزم أصول هذه الموهبة ولكن ليس كل النواب من هذا الطراز ... والخلاصة ان الخطابة البرلمانية لايقتلها الا التصنع والتكلف والخلو من المنطق ومن الدرس !

٢ - اللجان ...

الذين لايؤدون واجبهم من النواب فى اللجان ، هم نواب سطحيون ! هم أولا لايؤدون واجبهم ، وهم ثانيا لايستفيدون من محصول اللجان الوافر الزاخر ، فكل مسألة تدرس فى اللجان يعرف تاريخها وتطوراتها وبدايتها ونهايتها على وجه التحديد والتحقيق . ومن ذلك المحصول الوافر الزاخر ... يغترف ما شاء أن يغترف ليصوغه خطبا قوية محكمة فى جلسات مجلسى النواب والشيوخ

العبرة ليست بالحجة ولا الثرثرة وانما العبرة بالافادة والتوجيه أو النقد المنتج ، فان لم يستطع النائب أن يزود سامعيه بالجديد المفيد ، الثمين الغالى ، فخير له ــ وللأمة التى يمثلها ــ أن لايتكلم !

وفى كل لجنة من لجان المجلس مجال واسع للنائب المجد المجتهد والمنتج من اقتراحات وتشريعات وزيادة أو خفض فى أبواب الميزانية ... الخ

٣ ــ الرياسة ...

أول نصيحة أسديها للنائب أن يكون على وفاق تام كامل مع الرياسة ...

لرياسة المجلس قدسية انجرحت أوخدشت أو استطال عليها المتطاولون مرة لم تستطع أن تحتفظ بوقارها وقدسيتها أبدا !

قال لى المرحوم أحمد ماهر ، وقد تطاولت عليه مرة .. بعد أن استدعانى الى مكتبه : « أتظن أنك بالغ ما تريد أن تبلغه بكفايتك ودرايتك فى مجلس النواب ان لم تحط الرياسة باحترامك وتبجيلك ؟ »

قلت له : « معاذ الله ، فى لجج المناقشة لايدرى الواحد منا ماذا يقول . وقد يزل لسانه ولكن رحابة صدر الرئيس أكرم »

قال رحمه الله : « لهذا استدعيتك لأفضى اليك وأناجيك ، ولكن ما الحيلة فيما انطبع فى نفوس النواب والنظارة فى جلسة علنية من تهجمك على الرياسة ؟ »

قلت : « أعتذر ... »

قال : « نحن نعمل للمصلحة العامة ، وكرامة المجلس مرتبطة بكرامة رئيسه . ثم هناك ناحية أخرى أردت أن ألفت نظرك اليها ، وهى أن لرئيس المجلس من الأساليب والوسائل والحيل ما يستطيع به أن يقضى قضاء مبرما على النائب ، فلا يتيح له فرصة الكلام أو يكدر عليه صفو الكلام ... »

وحقيقة ... كانت تلك النصيحة الثمينة هي درة النصائح ، ولم أكن أغفلها أبدا ، فكنت رغم معارضتى العنيفة زهاء عشرين عاما ، أوثق علاقتى بالرياسة ، وأحيطها بكل تجلة ، وأطيعها ولو كانت ظالمة !



كنت أملأ صدر سعد زغلول الكبير بتقديرى ، ثم أزف اليه نقدى زفا موسيقيا ملحنا ، فكان يترنح من الطرب الممزوج بالغيظ ، ولكن الرجل الكبير كان يكظم غيظه ويتصدق باعجابه ! وكنت أستمد من أبحاث ويصا واصف بعض حججى وأدلتى وأعلن أنه مرجعى ، فكان يرخى لى العنان .. وكنت أذكر مصطفى النحاس بزمالته القديمة فى الحزب الوطنى واننا سنسترده الى حزبنا يوما ما ، فكان ينتخى انتخاء الكرام متأثرا بالذكرى ! وكنت أتشفع لدى أستاذنا بهى الدين بركات بأننى تلميذه فى مدرسة الحقوق ، فكنت أظفر بعطف المعلم ! وكنت أذكر دائما أستاذنا حامد جودة بالذكريات الغالية الأليمة لما كنت محاميا تحت التمرين فى مكتبه بأسيوط ، بمرتب شهرى قدره عشرون جنيها ، فكان يعاملنى المعاملة الواجبة على أستاذ بالنسبة الى محاميه الناشيء ، رغم الخصومة السياسية التى أجلستنى فى مقاعد اليسار

٤ ـ المعارضة ...

قال النائب سابقا ، و « الضاحك الباكى » الآن :

ـ أتعس ألوان المعارضة هى المعارضة للمعارضة ، وأقواها أن تعارض عندما توجب المصلحة العامة المعارضة ...

قال لى اللورد ستانسجيت ، وقد أجلسته فى مقعدى بالمؤتمر البرلمانى الذى انعقد فى القاهرة منذ سنين :

ـ قلت لى انك ظللت فى هذا المقعد ـ مقعد المعارضة ـ طول حياتك النيابية ... كنت مثلك معارضا عنيفا فى حزب العمال ضد المحافظين ، ولكنى أقرر أن المعارضة « شغلة سهلة » ! فكل نائب

يستطيع أن يعارض ، ويستطيع أن يجد مادة المعارضة ! ويستطيع أن يجد أداة الهدم ! ولكن المعارضة المثالية هى التى تبنى وتشيد . لا تهدم وتبدد ...

قال ذلك اللورد ستانسجيت ، وقوله صحيح . ولقد كان نواب الحزب الوطنى فى جميع البرلمانات يؤلفون صف المعارضة الدائم ولكنهم كانوا دائما محل التقدير والاحترام ... لماذا ؟.. لأنهم كانوا لا يعارضون للوصول الى الحكم ، وانما كانوا يعارضون لتقويم الحكم ! ولو أن صرخاتهم وتوسلاتهم ونصائحهم وجدت قلوبا واعية ، وآذانا صاغية ، فى موضوعات الجلاء والسودان وغيرها من الشئون السياسية الجوهرية ، لما التوى زمام الجهاد وتعطل ذلك الزمن ، ولا وصلنا الى ما وصلنا اليه فى شأن السودان !

فرق كبير بين معارضة تهدف الى ازاحة حكومة لتحل محلها ، وبين معارضة لا ترنو الى الحكم أبدا ، وانما ترنو الى التوجيه والتحذير والانذار

عندما خذلنى ثروت

ليس فى نيتنا أن نتتبع الحياة النيابية بحذافيرها . ليس هذا من شأن هذه القصة . انما نحن نلتقط بعض الظواهر التقاطا . وخصوصا فى المرحلة الأولى من مراحل هذه الحياة النيابية المصرية

ولقد مهدنا بقولنا ان برلمان سنة ١٩٢٦ كان برلمانا قويا لأنه كان يضم جميع الأقطاب والأحزاب فى نطاق واحد . ولكن سيرى القراء أن هذا الائتلاف القوى لم يستطع أن يعيش طويلا . فكانت السابقة الفاشلة بمثابة تحذير من كل ائتلاف فى المستقبل ... رغم أن الائتلاف فى هذه المرة حسم موقفا خطيرا ، كما سيبدو أن الائتلاف فى المرات القادمة حسم مواقف خطيرة !

ولكن الائتلاف هو « الانسجام » وكيف تأتلف الأحزاب وقد سرت الحزازات الانتخابية سريانها فى نفوس زعمائها وأعضائها ؟ وهى اذا

ائتلفت فكيف « تنسجم » فى حكومة واحدة ، ومسئولية واحدة ؟

ومع ذلك فقد ظهرت آثارقوة هذا الائتلاف وخطورته لأن سعد زغلول، زعيم الأغلبية ، ورئيس مجلس النواب ، أراد أن يتدرع به ويتحصن ... أو أراد أن يستغله ليثبت بعض التقاليد ، أو ليحسم بعض الأمور ، فى وجه الملك فؤاد والانجليز ...

بدا ذلك بشكل واضح فى مقاومته الصامدة فى مشكلتى قانون العمد وقانون المظاهرات ، الى أن شاءت مرونته السياسية أن يكون « مرنا » حتى تحين فرصة أصلح ، فأمر لجانه بوقف القتال والنضال الى حين ...

وبدا ذلك فى مؤامراته البارعة مع صدقى باشا حين اتفقا على الحملة ضد اعتمادات القصر الملكى والمخصصات الملكية . ووقع الاختيار على النائب السليقى العبارات والألفاظ — العصبى المندفع — الخفيف الظل على المجلس ، أحمد عبد الغفار فشن غارة شعواء ، بأسلوبه المعروف غير المتصنع ، وبلهجته الريفية المطلقة القيود ، وبلغت الحملة أوجها ، بل جاوزت مداها ، وهنا تدخلت « لباقة » سعد زغلول بعد ذلك الجرح والتشهير ، فاقترح أن يترك أمر المخصصات الملكية لحكمة الملك !

وأرخى العنان لزعماء الحزب الوطنى ، فحملوا حملاتهم الشعواء من أجل الجلاء والسودان ، ليصل الصوت القوى الى آذان الانجليز ، ثم اذا به يشد اللجام ويلجأ الى « الانتقال لجدول الأعمال » حتى يتفادى الأزمة الجامحة !



هكذا كان « يضرب ويلاقى » ويشتد ويلين ... الى أن خطر للنائب « شكرى » صاحب هذه القصة أن يثير مسألة الجيش المصرى اثارة شاملة ، فقدم استجوابا حددت له جلسة ٢٤ يناير سنة ١٩٢٧ فأخذ يداوره ويحاوره ، ويشجعه فى الوقت نفسه على الاسترسال فى موضوع الجيش ، لأن النائب الناشىء كان يعتقد أن مصر الجديدة لايمكن أن تبرز وتتجلى الا اذا تحققت أمنيات ثلاث :

الأولى ــ الجلاء ...

الثانية ــ وحدة وادى النيل باعتبار أن السودان هو مصر ، ومصر هى السودان !

الثالثة ــ خلق جيش جديد ، لأنه لا أمل فى الحاضر والمستقبل بدون جيش مصرى قوى صميم ...

وفاضت خطب رجال الحزب الوطنى فى هذه الموضوعات الثلاثة ، وكان سعد زغلول يستمع ويترنح طربا ، ولكنه يقف عند الحد الذى لايخلق أزمة أخرى كأزمة سنة ١٩٢٤

قال النائب « شكرى » فى استجوابه عن الجيش ما يأتى ، ونحن ننشر هذا الذى قيل منذ ثلاثين عاما تقريبا ليعرف القراء ان الآراء والأمانى تتحقق وان طال المدى ...

قال ضمن ما قال :

« لا تستغنى أمة من الأمم عن الجيش مهما بلغ حبها للسلام . فالجيش هو رمز رجولة الدولة ، وهو حامى الذمار فى قلب الوطن وعلى الحدود . وعندما أقول الحدود ، أرجوكم أن تتصوروها طويلة ممتدة مفتوحة فى الشرق والغرب والشمال والجنوب ... ان أساس الجيش هو التجنيد العام . وأساس التجنيد هو قانون القرعة . وان الاتجاه الحديث فى جميع الممالك يرمى الى تخفيض مدة الخدمة العسكرية . وهذه المدة فى بعض الدول سنتان . وفى بعضها سنة واحدة . وفى البعض ستة شهور...

« التجنيد هو واجب من أخطر الواجبات ، ولذلك نود أن نحرص كل الحرص على أن يكون المصريون جميعا متساوين أمام الدستور فى هذا الواجب ... ان تخريج الضباط وتدريبهم على الأعمال العسكرية والفنون الحربية لمن أهم الأمور وأجدرها بالعناية فى هذا الوقت الذى نرى فيه تقدم العسكرية المدهش وتطورها السريع ...

« لقد روعت فى العام الماضى حينما علمت أن عدد الجيش لايزيد عن

عشرة آلاف عسكرى . وهذا عدد أؤكد لمعالى وزير الحربية انه يستطيع تجنيده من بلدتين كبيرتين فى الأرياف

« أليس عجيبا أن يكون عدد الجيش فى مصر أيام كانت تحت السيادة التركية ، وعدده عندما كانت تحت الحماية الباطلة ، أزيد عن عدده وهى مستقلة ؟ ان هذا العدد لايتناسب مع حالة البلاد الحاضرة . فاذا كنتم توافقوننى على هذا ، كان لى الحق أن أسأل عمن يتولى الدفاع عن البلاد ؟ واذا أوكل أمر الدفاع عنها الى جيش آخر ، أفلا تكون هذه هى الحماية بعينها ؟ وأظن أن حضراتكم تذكرون أننا ودعنا عهد الحماية الى الأبد من وقت بعيد ...

« قد تبحثون حضراتكم عن عنصر من أهم العناصر فى المسائل العسكرية فلا تجدون له أثرا فى مصر . ليس فى وزارة الحربية والبحرية والطيران والسودان أثر مطلقا للطيران الحربى وهو عنصر مسلم بأنه من أهم العناصر فى الجيش ، وبالرغم من ذلك نفتش فى مشروع الميزانية الجديدة فلا نجد أثرا مطلقا للطيران الحربى ...

« هناك شىء آخر من أعمال العسكرية التى لابد منها وهو التحصين والاستحكامات ، وهذا لا أثر له فى بلادنا مطلقا ، بالرغم من امتداد حدودها وطولها ...

« ان فى ميزانية هذا العام عجزا رهيبا ، وقد يكون سببا معقولا لعدم القيام بكثير من المشروعات ، ولكن اذا سلمتم بأن الدفاع عن بلادكم ضرورى ، واذا سلمتم بأنه لايمكن لأمة مهما بلغ الاستهتار بها أن توكل أمر الدفاع عن نفسها الى غيرها ، وجب عليكم أن تبدأوا بالأهم قبل المهم وأن تنظروا الى اصلاح الجيش قبل أى اصلاح آخر ... »

***

وكان أخطر أو أصلح استجواب فى ذلك العهد ان حاكم السودان العام اذ ذاك — السير جوفرى آرثر — رأى أن يستقيل من منصبه

فتجاهل مصر ! وتجاهل الملك الذى عينه ! وتخطى الجهة الشرعية « المعينة » الى الجهة « المصدقة » !

وكان الاجراء خطأ من أوله لآخره .. وكان نجاح «النائب الشاب» فى اثارة هذا الموضوع مضمونا مائة فى المائة ، ولكنه رغم«معارضته» أراد أن يكون قوميا ايجابيا مشيدا .. لا سلبيا نظريا مبددا ...

طلب الى مكرم عبيد وعلى الشمسى أن يصحباه الى قاعة الرئيس سعد زغلول فلما دخل عليه شرح له موضوع السير جوفر آرثر ، وقال له انه يضع هذا السؤال أو هذا الاستجواب تحت تصرف رئيس المجلس ليعالجه بحكمته ، وليكون الكلام ـ سؤالا واجابة ـ متفقا عليه بتصحيح الأوضاع قبل أن يتمسك الانجليز بالسابقة فيصبح الحاكم العام فى السودان انجليزيا بمعنى الكلمة ويضيع حق مصر فى شؤون تعيينه ، واقالته ، واستقالته ...

طرب سعد زغلول طربا شديدا من الموضوع ووصفه بأنه « فخ » لا تستطيع وزارة الخارجية الانجليزية التخلص منه الا اذا سلمت بالحق واستسلمت ...

واتصل بدولة عدلى يكن باشا رئيس الحكومة وبثروت باشا وزير الخارجية وأبلغهما السؤال أو الاستجواب ، وطلب اليهما أن يتفقا معه هو ـ ومع النائب الشاب ـ على الاجابة التى ستتلى حتى يبرز الاتفاق فى الرأى بين المجلس والحكومة ...

وبعد أيام استدعى عدلى باشا النائب « شكرى » وقدم له القهوة والسيجارة ، ثم دفع اليه باجابة الحكومة الرسمية ، وبقلم أحمر، وقال له :

ـ انت لا تدرى أية خدمة جليلة قدمتها لبلدك ولحكومتك باثارة هذا الموضوع ! فتفضل واقرأ الجواب ، وصحح للحكومة فيه ما تشاء

وما كاد الشاب يقرأ أول سطر حتى دخل الكيِّس اللبق ، ثروت باشا من باب خلفى ، فأخذ يعانق الشاب النائب ويقبله ويقول له : « هكذا تكون الأسئلة والاستجوابات وهكذا تكون المعارضة القومية المنتجة ! »

قال ثروت باشا : « أتدرى ما حدث بسبب حملتك هذه ؟ لقد اتصلنا ـ فى لندن ـ بوزارة الخارجية البريطانية وأبلغناها انه ما كان يجوز أن يتجاهل حاكم السودان مصر ومليكها فى تقديم استقالته ، وان هذا مخالف كل المخالفة للاتفاق المعقود ، وانه لابد من تصحيحه فتقدم الاستقالة الى الملك المصرى ، لا الى الملك الانجليزى ! وقد سلمت الحكومة البريطانية على طول الخط بذلك ، وأمرت السير جوفرى آرثر بأن يرفع الاستقالة الى ممثل مصر ومليكها فى لندن ، وهو عزيز عزت باشا ويصحح الوضع بهذا الشكل »

وعندما ختم ثروت باشا حديثه ، قال عدلى باشا يكن للنائب : « أنت اذن صاحب الشأن فافعل ما بدا لك » ...

قال الشاب : «سأحتفظ بحقى فىعدم الاعتراف باتفاقية سنة ١٨٩٩، وسأحمل فى ردى على الحكومة البريطانية وأشكر الحكومة المصرية على نجاحها فى استدراك ذلك الخطأ الكبير »

واتصل الكبراء الثلاثة ـ عدلى وثروت وسعد ـ بعضهم بالبعض حتى جاءت الجلسة ، ورد ثروت باشا ، وجاء دور النائب شكرى ليعلق على الرد حسب الاتفاق ...

وما كاد ينتهى فى تعليقه من شكرالحكومة المصرية ويحمل علىالحكومة الانجليزية ، حتى فاجأه الرئيس سعد زغلول بقوله : « ما هذا ؟ أهذه هى كلمة الشرف ؟ ألم تتفق مع الحكومة على أن تختصر الجواب ؟ »

وازدادت دهشة النائب ولجأ الى ثروت باشا يستشهد به على انه لم يخالف الاتفاق ، فاذا به ـ هو الآخر ـ يضرب يدا على يد ويقول :

« لاحول ولا قوة الا بالله ! أهذا هو ما اتفقنا عليه ؟ »

وذهل الشاب ، ونظر نظرة استنجاد بعدلى يكن باشا ، فهز كتفيه ولم ينبس ببنت شفة !



وأجاد الكبار الثلاثة تمثيل دورهم باتقان ، واهتز الفتى هزة المظلوم ،

وتصبب العرق البـارد ــ حقـا ــ على وجهه ، ودوى دوى النواب صائحين : اجلس ! اجلس !..

وطوى التعليق وسط الضجيج وجلس النـائب المظلوم وهو يكاد لايتحرك !

وحين أفاق من اغماءته أو دهشته بعد انتهاء الجلسة اندفع نحو غرفة سعد باشا زغلول ، وقال له : « أهكذا ياباشا ؟ أأنا غدرت بالحكومة؟»

قال الرجل الكبير وهو يقهقه : « لا يابنى بارك الله فيك ، لم تغدر أنت بالحكومة ، وانما غدرت بك الضرورة السياسـية ، وللضرورات السياسية أحكام ، ولها ضحايا ، فاقبل التضحية كما قبلت التهنئة ! لقد ظفرنا من الانجليز بهذا النصر، فكان عليك ــ وعلينا ــ أن لانتمادى !»

الى لبنان . .

لماذا ؟

لماذا لا يتمتع النائب المحترم « شكرى » ويستمتع ؟

لقد بلغ فى سنة ١٩٢٧ الثلاثين من عمره ، وبلغ فى هذه السن المبكرة قمة المجد الصحفى ، وذروة المجد النيابى البرلمـانى . فلماذا لا يتمتع ويستمتع ؟ !

نحن الآن فى صيف سنة ١٩٢٧ والصحفى اللامع ، والنائب الساطع ، لم يركب باخرة ! ولم يعبر بحرا ! ولم يجتز الحدود الى خارج الحدود !

لا ... انه يستحق الراحة ، فالى أين يذهب ؟

أين الخضرة والماء والوجه الحسن ؟.. قيل له : انها فى لبنان

قال : « اذن الى لبنان ... »

وكان رفقاؤه فى الرحلة ستة ..كلهم أقرباؤه ، ومنهم شقيقه الذى يليه ، وله قصة بل قصص ستروى فى حينها ...

واستأجرت « الشلة » بيتا جميلا فى برمانا ، ولاحظ « شكرى » ان

اثنين من أقاربه ألحا على برمانا هذه . وبعد التحرى علم أنها « عش غرام » لأحدهما . وأن بيت مرى القريبة « عش غرام » للثانى ، فجعلا من برمانا المقر ، والسنترال ...

والجبل !

ما أجمل الجبل ، ولكن ما أخطره وما أفزعه بالنسبة لمن يعامله لأول مرة . وجبال لبنان تمتاز بأنها رحبة ، عريضة ، زاهرة ، صاعدة ، هابطة ، لم تعبث يد الانســان ، ولا صنعة الانســان ، كثيرا بعذريتها وفطرتها وطبيعتها ووحشيتها . ان الصنعة التى تهذب الجبــال ، وتزين الجبــال ، تذهب بالكثير من بهائها وجمالها وسذاجتها ...

واللبنانيون ... ما ألذهم ...

ديمقراطيون بالسليقة ، عشريون بالطبع ، « بحابيح » بالغريزة . ثم هم يحبون مصر ، أو أن مصر تحبهم . ولذلك لم يحس « شــكرى » الغربة فى ذلك الوطن الثانى ...

وقد أوصــانى صــاحب هــذه القصــة أن أعنى وأنا أدونها بابراز الديمقراطية أو الاشتراكية اللبنانية ابرازا خاصا . وأنا أقتطف ثلاثة أو أربعة شواهد فقط تكفى لابراز هذه الروح العجيبة فى لبنان ...

١ ــ السائق عقل

قال « شكرى » :

ــ أول هذه الشواهد سواق سيارتنا الأجرة « عقل » !

انى أنتهز هذه الفرصة فأبلغه ــ على بعد ... ــ تحية الأستاذ شكرى وشوقه الشديد الى رؤيته

كان هذا السيد السائق يعاملنا معاملة اخوته وأهل بيته . فهو يقتحم المنزل ان شاء له الاقتحام ، وهو يشرب ويأكل قبلنا أو بعدنا ان شــاء الأكل والشرب ، وهو اذا استقبلنا ضيوفا يجلس بينهم على قدم المساواة فنعرفهم به على أنه من أسرتنا ، وهو يعنفنا ان عــنّ له التعنيف ، أو هو

ينصحنا ان عنّ له النصح ... ثم هو يعرض علينا معاوناته المالية وقروضه اذا لمح بذكائه أننا « معذورون » أو « مفلسون »

وفى ليلة حافلة من الليالى الرسمية الكبرى التى جمعت ذوى الحيثيات على حافة النافورة الكبرى فى زحلة ، كان سائقنا « عقل » فى مقدمة الجميع ، يتصدر موائد الشرب أو موائد الطعام بدون تصنع وبدون تكلف ، وغيره وغيره ، كان ذلك طابعهم . ولم أجد للديمقراطية الصحيحة أو الاشتراكية الصحيحة مثلا أعلى الا فى لبنان

٢ ــ الطباخة

واستخدمنا فى بيتنا ببرمانا طاهية ــ يسمونها عشية ــ فكانت عندما يحل وقت الغداء أو العشاء تغرف الصحون وتجلس معنا على المائدة ! ثم تأتى بعد الطعام بالقهوة فتقدم لكلٍمنا فنجانه ، ثم تجلس فى الصالون وتتناول معنا فنجانها الخاص !

٣ ــ حواء ...

وهنا أرسل الأستاذ شكرى من صدره انة ناعمة ! فقلت له : « ماذا ؟ لعله حب فى لبنان ؟ » قال : « وهل يدهشك هذا ؟ ان الذى يدهش هو أن لا تحب فى لبنان ! ان كل جمال هناك يحرض على الحب ... »

قلت : « ومن كانت الحبيبة ؟ »

قال : « حواء ... »

سألته : « ما أسرتها ؟ »

قال : « وهل الحب له علاقة بالأسر أو بالأحساب أو بالأنساب ؟ هل له علاقة بالألوان أو بالأجناس أو بالأديان ؟ الحب هو الحب . ولقد كانت « حواء » خادمة لصديقة قريبى الذى صحبنى فى الرحلة ، فلما التقى هذا القريب بصديقته ، جلست أنا وخادمتها «حواء» على درجات السلم ننتظر انتهاء حديث العاشقين . ثم كانت النظرة ، وكانت الابتسامة ، وكان الحديث ، ثم اللقاء اثر اللقاء ، ثم كان اكتشاف المزايا واتصال القلبين عن

طريق هذه المقدمات . وفى ليلة من الليالى ، قالت الفتاة الساذجة للأستاذ شكرى : « لماذا لا تتزوج ؟ » . قال لها : « ليكن ! ولكن لنسأل أهلك وذويك ... »

قالت : « لا أهل لى ولا عيلة ! »

سألها : « ومن اذن يكون المسئول عنك اذا اتفقنا على الزواج ؟ »

قالت بسذاجتها : « الجندرمة » !.. ولعلها تقصد « البوليس » ...

قال لها : « ولماذا الجندرمة ؟ »

قالت : « لأنى قاصر ، فعمرى لا يتجاوز السادسة عشرة ، ولا أظنهم يسمحون لى بالزواج فى هذه السن أو السفر معك الى مصر ... »

قال لها : « اذا قامت صعوبات فهل تنتظرين ؟ »

قالت بلهجة حازمة : « نعم أنتظر »

ومر الزمن وانقطعت رسائل الفتاة سنتين متواليتين ... وأخذ ينتهز فرصة حضور كل حفلة لبنانية فى القاهرة ليسأل عنها ويتحرى ، ولكن عبثا حاول أن يعرف أين هى ؟ الى أن لاحظ فى ليلة من هذه الليالى أن احدى الفاتنات الساحرات ترهف سمعها ناحيته ، فنظر اليها مرة وثانية وثالثة ثم تعمد أن يحييها . فردت التحية وتقدمت اليه قائلة : « هل أنت شكرى ؟ »

قال : « نعم ... » .. قالت : « أتعرفنى ؟ »

قال : « لا » .. قالت : « أتريد أن تعرف اسمى ؟ »

قال : « نعم ... » .. قالت : ! اذن فأنا ... حواء ! »

ولكن « حواء » سابقا ! وأنا الآن متروجة ... وهنا فى القاهرة . والدنيا قسمة ونصيب ! »

وانسحب الأستاذ شكرى من الحفلة يجمع الذكريات ويعجب لأفاعيل القدر !



فى ذلك الصيف كان فى لبنان شاعر الخلود أحمد شوقى ، والمطرب

النابغة الناشىء محمد عبد الوهاب . وكان شكرى يلقى قصائد أمير الشعراء فى « عالية » و « زحلة » ، وكان الاستعداد قائما على قدم وساق فى البلدة الجميلة الصاخبة « عالية » لاقامة حفلة كبرى يحييها محمد عبد الوهاب . وقبل الحفلة بساعات ، وصلت ليد عبد الوهاب جريدة « المقطم » وفيها نعى والده رحمة الله عليه . وبكى الفتى بكاء مرا ، ولم يخبر شوقى بك ولا شكرى ، وانما هرول الى متعهد الحفلة فألغاها ، وأعلن عن ذلك الالغاء ...

ولما علم الجميع أقبلوا عليه يعزونه ويواسونه وهو مسترسل فى البكاء ، ثم مضت فترة طويلة ، والبلد تعج بالوافدين من نواحى الجبل البعيدة والقريبة لحضور حفلة المطرب المصرى المعروف . واشتد الزحام حول الباب ، والكل مشفق أن يفاتحه فى الموضوع . ولكن كان فى هذه المجموعة شاب بوهيمى قدرى نصف فيلسوف ، يضحك عندما يبكى ، أو يبكى عندما يضحك .. كان ذلك المخلوق هو «شكرى» ... وفوجىء الجميع وقد سأل شكرى الأستاذ الناشىء عبد الوهاب فجأة :

ــ لماذا ألغيت الحفلة ؟

قال عبد الوهاب مندهشا : «لماذا ؟ ! » .

قال شكرى : « نعم لماذا ؟ »

وذعر الجميع أو وجموا ، واستأنف المفجوع فى أبيه البكاء . فلما توقفت الدموع استأنف شكرى حديثه فقال :

ــ أرى أن تقام الحفلة ، وأن تغنى فى سرادقك هنا كما يعزون فى سرادق أبيك هناك ! اصدح ، وارسل الأنغام والألحان وسط الدموع ! هذه هى ضريبة الفن ، وهذه هى ضريبة الفنان . انت عبد هنا للجمهور الذى قطع المسافات الشاسعة ليسمعك ، فغنهم ، لتوفى بحقهم عليك ، فاذا ما أطربت قلوبهم وآذانهم ونفوسهم وأرواحهم ، فعد الى دموعك وحزنك ، واسهر آخر الليل وأذرف ما شئت أن تذرف ، وانقطع عن الناس ما شئت أن تنقطع ، واسترسل فى حزنك ما شئت أن تسترسل ، بعد أن

تؤدى واجبك للجمهور ... الجمهور ... الجمهور الذى فرض ضرائبه على غيرك وغيرك من الفنانين ، والصحفيين ، والسياسيين ، والتجار ، والصناع ، فلم يحفل بحزن فرد بقدر ما حفل بصالح المجموع ! غن وغرد وابتسم واضحك أيها الضاحك الباكى اذا شاء الطرب أن تبتسم وتضحك وتعبث ! لقد ارتفع سلفك الكبير عبده الحمولى للذروة حين أبلغوه وهو على تخته فى فرح من الأفراح نعى وحيده ، فوفى الجمهور حقه حتى الصباح ، ثم عاد الى قلبه المجروح ونفسه المتوجعة ، فبكى ما شاء له البكاء !

وبعد مناقشة طويلة اقتنع الجميع برأى الأستاذ شكرى وغنى عبد الوهاب والحزن يفتك بمبعث النغمات ومصدر الآهات !

مات سعد زغلول

ولم تمض أيام حتى نعى الناعى فى لبنان ، الزعيم المصرى الكبير سعد زغلول ، وساد الحزن والجزع ، وأسرع الأستاذ شكرى معارضه وخصمه السياسى يبحث عن أحد الفقهاء فى البلاد المجاورة ليتلو القرآن فى مأتمه الذى أقامه فى مقهى كبير لمحمد المصرى ببرمانا ، حتى عثر عليه واستقبل هو ورفاقه المصريون المعزين من أنحاء القطر الشقيق ... وعندما وصل نبأ هذه الوفاة الى الأستاذ شكرى دفع الى بهذا الرثاء الذى رثى به الزعيم الكبير وألح على فى أن أنشره ــ بحذافيره ــ ضمن قصته ، فلما سألته عن الحكمة فى اصراره على نشر رثائه قال : « لقد تطاولت كثيرا على سعد فى حياته فلأبرئن ذمتى ولأنصفه بعد مماته . خذ الرثاء وانشره على أنه رثاء أو تحليل أو بحث ، وهكذا نضيف هذه الوثيقة العاطفية الى هذه القصة بنصها الكامل ! »

فى سنة ١٩٠٩ عرف « شكرى » التلميذ الحامل للشهادة الابتدائية سعد زغلول ، عرفه كرجل ذى شخصية ، وكرجل ذى عزة قومية ، ولا

تزال ذكرى تلك المعرفة محفورة فى الذهن حتى اليوم ... أكره أن أذكر سعدا وأمزج بذكراه الدموع . أمقت ذكر الدموع بصدد الكلام عن الأبطال ـ وبصدد الكلام عن الكفاح ـ وبصدد الكلام عن الانجليز ...

ولكن الدموع تترقرق فى عينى « شكرى » ابن سنة ١٩٠٩ ، وان تعمد « شكرى » ابن سنة ١٩٢٧ أن يحبس الدموع ، وأن يتجلد !

كان المرحوم اذ ذاك وزيرا للمعارف ، وطردت من مدرسة السعيدية بناء على اشارة من « عدو التعليم » المستر دنلوب ، لأنى لا أحمل شهادة الميلاد . فدرجت الى عمى المرحوم بالاسكندرية ، واصطحبنى معه الى وزير المعارف سعد زغلول فثارت ثورته . والتفت الىّ قائلا : « باكر صباحا تكون بالمدرسة . وسيصلهم تلغراف منى اليوم ... »

قلت بسذاجة الفتيان : « باكر الخميس . أأذهب يوم السبت ؟ »

قال محتدا : « سافر ياشقى الآن حالا واذهب للمدرسة باكر ! »

وسافرت ، ودخلت المدرسة فقوبلت معززا مكرما ، وتعلمت ، وتخرجت ، واشتغلت بالسياسة وكنت بفضل سعد زغلول خصما سياسيا لسعد زغلول !



تلك هى الذكرى التى جرأتنى على سعد فى حياته لدرجة الوقاحة بعض الأحيان . ولكنى كنت أذكره دائما بفضله علىّ ، وأذكر بجانب ذلك ان اخلاصى له لا شك فيه ، فان فرطت عبارات نزقة فان سعدا رحمه الله كان يعلم أن الغيرة عليه كانت الباعث ، وما أجله وأظرفه مداعبا حين كان يقول : « أنا المحقوق اللى دخلتك المدرسة ؟ »

الموضوع :

والآن أود أن أكتب عن سعد زغلول كرئيس لمجلس النواب ، وقد هيأت لى ظروف الائتلاف أن أدرس سعد زغلول حق الدرس ، فقد ندبنى « الحزب الوطنى » للمفاوضة مع دولته بشأن الانتخابات وعدد الكراسى. فقابلته منفردا فى الطابق العلوى أكثر من اثنتى عشرة مرة

وإذا أردت أن تعرف الرجل على حقيقته عرفته فى الحجر وبين الجدران لا فى المجتمعات الحافلة والمحتشدات العامة . وأستطيع أن أعبر عما انطبع فى ذهنى من ميول الرجل الوطنية بالجملة المختصرة الآتية : « كم كان يعانى هذا الزعيم حين كان يمثل دور المعتدلين السياسيين »

شخصيته :

اذن ندخل فى الموضوع مباشرة ، ولنبحث عن أول عنصر من عناصر نجاح الفقيد فى رياسة المجلس . والجواب كلمة : « شخصيته » !

وما هى الشخصية ؟

أعرفها بأنها مجموع العوامل التى تجعل للرجل فى نفسك منزلة من مجرد النظرة !

وما هى تلك العوامل فى شخصية الفقيد ؟ هى ما يمتلىء به ذهنك :

أولا — من تاريخه : كثائر من ثوار الأزهر ، وكنابغة من نوابغ المحامين ، وكفذ من أفذاذ القضاة ، وكوكيل للجمعية التشريعية ، وكوزير قديم ، وكزعيم للوفد ، وكمضح منفى مطارد من صخرة لصخرة ومن جزيرة لجزيرة ...

ثانيا — من اسمه : وعندما أقول « اسمه » أعبر تعبيرا « بلديا » أرى انه أصح تعبير ، فان تلك الضجة العريضة التى تحيط باسم سعد ، والتى كونتها الظروف والكفاءة والشخصية ، جعلت « لاسمه » فى النفوس وقعا وتأثيرا بلغ القمة : فتملك وأخضع !

ثالثا — من قدرته الخطابية : فله رنة فى الصوت فيها من الروعة والجلال ما يأسر أقسى القلوب ، وأشد الخصوم تعنتا ، ولا أنكر أن للعوامل السابقة فضلها فى نجاحه الخطابى ...

رابعا — من شيخوخته : فمظهر الرجل وقوامه ومرضه وكبر سنه ، كلها أسباب جعلت له فى النفوس مكانة واجلالا خاصا ...



كل هذه العوامل متحدة مجتمعة حين تجلس على كرسى الرياسة فى

مجلس النواب ، فمن يستطيع أن يكافحها ؟ ومن يستطيع أن يتغلب عليها ومن يستطيع أن يخالف لها أمرا ؟..

وسترى فيما يلى ما يتمم هذه العوامل المكونة لشخصيته . انما قدمت لك الأهم . أضف الى هذا عاملا آخر اختص به كزعيم لحزبه الوفدى . فانهم لاعتبارات كثيرة فى مقدمتها « الثقة المتناهية » يحرصون كل الحرص كأنصار ألا يثيروا الزعيم المقدس ، وألا يستفزوه ، ولذلك عقد له دائما لواء النصر فى كل المواقف الحرجة مع المجلس ، وان كانت « المعركة » توهم فى البداية انه لا محالة خاسرها ...

جلده :

لله در المدرسة القديمة . كم أخرجت من نوابغ جبارة . المدرسة القديمة تمتاز عن المدرسة الحديثة « بالجلد » ! ولقد كان الفقيد خارقا للعادة فى جلده . ذلك الرجل الشيخ المصاب بالعلل الموغلة والأمراض المتمكنة كان مثلا عاليا فى جلده وصبره ومثابرته . ماذا تقول فى رجل يفتتح الجلسة فى ميعادها سواء أكان صيفا قاسيا أو شتاء قارسا فيحضر هو وتكون الأغلبية من الشبان لا تزال فى الطريق ؟ !

ثم ينتظر على مضض حتى يتكامل العدد وحتى يحضر سكرتيرو المكتب ، ومراقبو المجلس وهو يبتسم الابتسامة الواضحة المعنى كأنه يقول : « قارنوا بينى وبينكم ... »

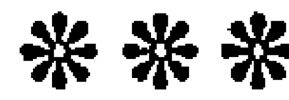
ثم تتلى تقارير اللجان الطويلة المملة وهو يتتبع التلاوة سطرا سطرا وكلمة كلمة وحرفا حرفا ... وكم راجع المقرر فى سطر أغفله ، أو كلمة لحن فيها ، أو حرف حذفه ... ثم يستمع لكل خطيب لا مجرد السماع وانما السماع المقترن بمحاولة الفهم ، وكم من خطب لا تفهم ، وكم من خطب لايقوى الأبطال على احتمالها ... ولكنه يسمع ويسمع ويكظم الغيظ حتى اذا انتهى الخطيب بدأ يناقشه فيما أدلى به ويبين بالأسلوب الذى يستحقه مواطن الضعف ومواضع الشرود عن الموضوع ...

من أربع لست ساعات متواليات وهو يقنع باستراحة واحـدة ونحن الشبان الأقوياء لا نقنع بأقل من سبع استراحات غير رسمية تتناول فيها الدخان والقهوة والمثلجات ... وان جلسنا ومنينا بكلام غير مهضوم أخذ يحادث بعضنا البعض الآخر للترويح على النفس !..

ثم أذكر سـعد زغلول وهو يهبـط على اللجان فجأة يراقب سـير اجتماعاتها ومواظبة أعضائها وقوة استمرارها فى العمل . ثم أذكره وهو يضع الاحصائيات الدقيقة عن الأعضاء المعتذرين والغائبين ، وعن القرارات الصادرة والموقوفة ، وعن المشروعات المنتهية والتى تحت البحث ...

ثم أذكره وهو يشتغل مع موظفى المجلس فى المراجعة وفى المسـائل الادارية ...

ثم فى مكتب المجلس يبت فيما يعرض عليه مما هو من اختصاصه ، ثم فى فترات الاستراحة من مقابلات خطيرة . بل لعلها كانت أخطر المقابلات ، تحل فيها المشاكل والأزمات ، وتتفادى فيها مواطن الاحتكاك ، ومواضع الخلاف !..



ثم أذكره وهو مأخوذ بشـهوة الفن القانونيـة حين يعرض بحث من مباحث الدستور أو التشريع . كيف يدرس الموضـوع فى منزله دراسة الطالب ، ثم يطرح مجهـوده المثمر على مجلس النواب بأسـلوب البحاثة المتواضع لا الرئيس المتحكم !

هذا هو المريض الشيخ الفانى ، هذا هو الأثر القيم من آثار المدرسة القديمة ، يضرب للناشئين مثلا ساميا من أمثلة « الجلد » العنيف ، والله أعلم أى آلام جسمية نفسية كان يحسها وهو يؤدى واجبه ذلك الأداء الغريب الأطوار ...

كنا نراقب ذلك كله فيعترينـا شىء كثير من الخجل ، فنصغر أمامه بتقصيرنا ، ويكبر أمامنا بجهده ، وبهـذا التباين تتحكم شخصيـته فى

شخصياتنا فتكتسح رياسته كل عقبة فى الطريق بقوة خلاله ، وهـذا سر من أسرار نجاحه ...

ظرفه :

ظرف سعد الطبيعى خلاب لايجارى ، وقد خالط الفقيـد من نشأته جميع الطبقات وكان أصدقاؤه من خلاصة الأدباء والظرفاء

و « الحظ » خير مدرب على حضور الذهن ، وسرعة البديهة ، وروعة النكتة ، بفضل كل تلك العناصر كان خفيف الروح لدرجة السحر ، ولا غرابة اذا استعان بهذه الهبة الربانية على الترويح عن نفسه وعن النواب فى أدق المراكز ، وأحرج المواقف !..

حجته :

سعد زغلول من أساطين المنطق من زمن بعيد . مغرم بالمناقشة ، ومغرم كل الغرام بأن تكون له الغلبة دائما ... وهذا أمر طبيعى لا أراه يصلح لأن يكون محلا للنقد ...

وغرامه بالمناقشة وبالزام الحجة غيره غرام نبت معه منذ نشأته

ألم يكن أزهريا ؟ ومحاميا ؟ وقاضيا ؟.. ظهرت آثار هذه الصفة القريبة من السليقـة فى تاريخه كوزير ، وكوكيل للجمعية التشريعية ، وكزعيم للوفد ...

حياته كلها حياة نضال وقراع ومناظرة وحجج ... وحياته كلها مران مستمر جاد فى عالم المناقشة والمناظرة ...

***

ولقد أكسبه ذلك المران قوة هائلة فى المناقشة . اذ ان تلك السنين الطويلة التى قضاها فى جو اللجاج جعلت المناقشة عنده « فنا » ذا أصول وأساليب يعلم أسرارها هو وتخفى على غيره . ويخيل الىّ ، وأنا فى مقام تخليد الحقائق ، أن سعدا العظيم كان يكبر عليه فى بعض الأحايين أن يقهر فى مناقشة بحكم الأغلبية . وأرى أن ذلك من صفات البطولة والجبروت .

وكم جاهد وكافح فى موضوع واحد ليتغلب على مناقشيه ، فاذا تعسر الأمر عليه تحايل وأجله للجلسات المقبلة ، ثم استرد قواه وهاجم وكافح كفاحا ملحا مندفعا ، فاذا سدت السبل واستحكم الرأى حاول التأجيل بشكل خلاب يستهوى الألباب وغالبا ينجح فى مناورته ... فاذا لم تجد هذه الوسيلة رجع لنفسه كأب وزعيم وضحك ضحكة الذى فرغت جعبته قائلا بصوت حنون لذيذ : « طيب اللى تشوفوه » ...

قوة المنطق ، تلك الهبة السامية التى منحه الله اياها كانت عنصرا قويا من عناصر نجاحه كرئيس لمجلس النواب . وكانت تجدى من ناحية اطلاعه على أسرار حكومية لايريد أن يطلع المجلس عليها وقد يكون فيها مقنع ولكن فى اذاعتها خطر . فهو يستعين بقوة حجته على توجيه التيار الى الجهة التى تتفق واتجاه تلك الأسرار بغير احتياج الى اذاعتها . والله أعلم كيف ولم كانت تسيرنا تلك الحجج القوية ...

وكان يحكم ذوقه السليم فلا يخطىء . كان يستعين على أنصاره بمكانته الشخصية عندهم ، وكان يستعين على الشارد من موضوع الكلام باثارة زملائه عليه . وكان يستعين على عضو الحزب الوطنى وهو فى تيار اندفاعه وتطرفه على المنبر بابتسامة ظريفة وجملة خفيفة يلقيها فى أذنه بصوت خافت فيه نغمة من نغمات « المناجاة الخصوصية » غير المسموعة فيغريه بترك النقطة الحرجة أو يغريه باختتام الكلام ... واذا بلغ الاحتكاك بين المجلس والحكومة مبلغ الخطر أمر بالاستراحة فهبطت درجة الحرارة وكف الغليان وهدأت النفوس . وفى حجرته الخصوصية بين فترات الانعقاد تعود المياه الى مجاريها ...

انصافه :

تلك هى الخلة الغالية الكريمة التى أكبرت سعدا فى أنظار خصومه السياسيين ... كان لايفرق بين الأعضاء ولا يتأثر باللون الحزبى . الجميع عنده ، كرئيس للمجلس ، سواء . وكم اشتد على أنصاره وحمل عليهم

حملاته العنيفة فى سبيل الصالح العام ، لايهمه أن يستغل خصومه هـذا العنف أو لا يستغلوه . ولمواقف انصافه لخصومه السياسيين تأثير عظيم فى نفوسهم ، وليس أنبل من الانصاف ، انصاف القادر على غير الانصاف!

هذا وتر حساس جدا من أوتار الجاذبية نحو رئيس المجلس عرف سعد كيف يوقع عليه فأتقن الايقاع . وكان حريصا على أن يحول دون تكهرب جو المجلس بما يقال فى الخارج من أعضائه فى سبيل الحزبية . طالبا الى كل من يريد التشفى أو اثارة موضوع الخلاف أن يفعل ، هذا فى غير قاعة المجلس . وبهذا صان رياسته عن أن تتورط فى التعصب والتحيز الحزبى ففاز بأجل وأفخر ما يتحلى به رئيس نبيل !

منقذ الحكومة :

ولا بد أن ندون هنا أن سعد زغلول كان بحق « منقذ الحكومة » ، فكم استهدفت لحملات قوية ، فكان يتظاهر«بالحياد» فى مبدأ الأمر حتى اذا وجد الخطر يوشك أن يحدق بها تدخل وأجرى عملية الانقاذ باخلاص

سمعة المجلس :

لاشك أن الرئيس الراحل كان حصنـا حصينـا تحصنت فيه سمعة المجلس فى كثير من المواقف والقرارات . شخصيته الضخمة كانت تحول دون حملات الجماهير على سـمعته وكرامته ، وكانت طبقـات الموظفين ، والمزارعين ، والتجار ، وغيرها من الطوائف تحرص الحرص كله ألا تمس المجلس فى جملته فتمس رئيسه ضمنا ...

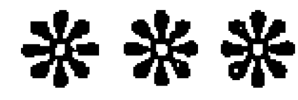
كما أن الجهات الرئيسية الأخرى كانت تتحمل ما يدور داخل المجلس حاسبة للزعيم القوى الحساب الحكيم ...

المواقف السياسية :

أقر أن موقف سعد فى المواطن السياسية لم يكن موقفه الطبيعى مطلقا. وقد صـدّرت كلمتى بهذا من أول الأمر . كان الرجل على ما يخيل الى ينتظر ويصبر ليرى نهاية سياسة حسن التفاهم ... ولكن لا أنكر أن أمرها

طال وأنه لو ظل الزعيم حيا هذا العام ما رغب ، ولا رغب له محبوه والمخلصون له ، فى أن يظل الحال على ذلك المنوال الممل القاضى على جهود الثورة المباركة الماضية . ولكن شاء القدر أن يختطفه قبل أن يتجلى على الجماهير بعد فترة التربص بمظهر الزعيم المستأنف للنضال ...

مهمة غالية يحملها عنه ان شاء الله خلفه المفعم بالحياة والشباب !



موت سعد خسارة عظمى للحياة النيابية فى مصر ، لقد كان رحمه الله أستاذا ، وقدوة ، وحصنا ، ومثلا عظيما للنائب الذى أقسم اليمين على أن يعمل وأن يخلص للبلاد . رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح الجنان ، وللوطن البقاء !

المضحكات المبكيات

لايريد صاحب هذه القصة ، ولا مسجلها ، أن يتماديا فى سرد مضحكات ومبكيات الحياة النيابية أو الاحداث البرلمانية . ذلك شىء يطول شرحه ، وليس له نهاية . انما اخترنا بعض « العينات » وسنختمها قبل أن ننتقل الى مرحلة أخرى ناعمة من حياة الضاحك الباكى . سنختمها بحساب ختامى عاجل للائتلاف الذى انتصر فى سنة ١٩٢٦ ...

لم يعمر طويلا وا أسفاه . وقد توفى سعد زغلول قبل أوانه . نعم : كان المنتظر أن يؤدى لبلاده خدمات أجل وأعظم فى عهد الائتلاف ، وبمعاونة جميع الأقطاب والأحزاب ، ولكنه راح !..

واستقال عدلى يكن باشا أيضا اما لقصة نسبوها الى المرحوم عبد القادر الباسل بك عن شيخ خفر .. اعتبرها المرحوم الأبى الأشم عدلى يكن باشا تدخلا فى اختصاصاته التنفيذية ... واما بسبب سؤال أحدث رجة وضجة ، قيل أن موجهه الرئيس السابق لمجلس النواب عبد السلام فهمى جمعة قد قصد به غمز الوزارة غير الوفدية واسقاطها ...

وعبثا أجريت المحاولات مع عدلى باشا لاقناعه بالبقاء مع الترضيات الكافية ... فلما استقال بالفعل ، أبى المرحوم ثروت باشا بحكم التضامن أن يقبل رياسة الحكم ، ولكن عدلى باشا ألح عليه فتولى الرياسة ، ولكنه لم يبق طويلا وولى الحكم الرئيس السابق مصطفى النحاس بعد ذلك ، وعاجلت المنية المرحوم ثروت باشا فلقى ربه واختفى عن الميدان الوطنى المصرى فى غير أوانه هو أيضا ...

***

فجأة فى يوم ٢٥ يونية سنة ١٩٢٨ قرأ الرئيس هذه الرسالة الملكية :

« عزيزى مصطفى النحاس باشا

« لما كان الائتلاف الذى قامت على أساسه الوزارة قد أصيب بصدع شديد فقد رأينا اقالة دولتكم شاكرين لكم ولحضرات الوزراء زملائكم ما أديتم من عمل فى خدمة البلاد « فؤاد »

ونهض الرئيس السابق مصطفى النحاس بعد تلاوة الرسالة المتضمنة اقالته فألقى هذه الكلمة :

« وانى باسم حضرات زملائى المحترمين وباسمى أتقدم بالشكر لحضرة صاحب الجلالة الملك للنطق السامى الذى وجهه الينا على ما أديناه من عمل فى خدمة البلاد كما نشكر لحضراتكم تعضيدكم لنا فى القيام بأعمالنا أثناء اضطلاعنا بأعباء الحكم فى الظروف الدقيقة التى مرت بها البلاد . ونحمد الله ان اقالتنا جاءت ونحن حائزون لثقة ممثلى الأمة »

« تصفيق حاد متواصل »

ـ النائب المحترم حسن يس : ليحيى دولة النحاس باشا «هتاف عام»

ـ النائب المحترم حسن يس : ليحيى رئيس الوفد « هتاف عام »

ـ النائب المحترم حسن يس : ليحيى زعيم الأمة « هتاف عام »

ـ النواب المحترمون : عبد المجيد الرمالى ، عمر عمر ، زكريا مهنا ... ليحيى الدستور « هتاف عام »

وفى جلسة ٢٨ يونية سنة ١٩٢٨ قابل النواب النحاس باشا وقوفا عند دخوله قاعة الجلسة . وثبت فى المحضر ما يأتى :

النائب المحترم زكريا مهنا ... ليحيى الدستور « هتاف »

النائب المحترم زكريا مهنا ... لعنة الله على من يعتدى على الدستور... « هتاف » لعنة الله على من يعتدى على الدستور

ثم تلى المرسوم الملكى بتأليف وزارة محمد محمود باشا ...

وصدر المرسوم بتأجيل انعقاد البرلمان مدة شهر ...

قصة قلب !

لم يشهد النائب المحترم شكرى ــ بطل هذه القصة ــ هذه الأحداث الوزارية الوفدية والبرلمانية .. انه ــ فى ذلك الوقت ــ لم يكن فى القاهرة . ولا فى مصر كلها . كانت له قصة : قصة قلب ! كان قد أمّن على حياته لمدة عشرين عاما فى شركة معروفة حين كان محاميا ناشئا فى الأرياف . وظل يدفع أقساط التأمين عاما بعد عام ، الى أن خطر له أن يخفض المدة الى عشر سنوات بدل عشرين . وأن يضاعف قسط التأمين، فقدم طلبه بهذا وذاك للشركة ...

أحالته الشركة الى طبيبها الأجنبى الكبير ليكشف عليه . وبعد اجراءات طويلة انتهى الكشف ...

بعد أسبوع وصله خطاب من الشركة هذا نصه :

« بعد التحية ــ تأسف الشركة اذ أنها لا تستطيع اجابتكم الى طلبكم الخاص بتخفيض المدة ومضاعفة الأقساط الا بعد مرور سنة من تاريخه . ولكم وافر الاحترام »

قرأ « الضاحك الباكى » خطاب الشركة العجيب مرة وثانية وثالثة . وهو دهش مذهول ! متى كانت شركات التأمين ترفض مثل هذه العروض وهى تجرى بعمالها وراء كل من هب ودب لتحمله على التأمين ؟ !

ماذا ؟ !

لابد ان هنـاك مانعا له خطورته ... وسعى الشـاب سعيه بواسطة بعض موظفى الشركة فأخطروه بالنبـأ الفـاجع وهو أن تقرير الدكتور تضمن مايأتى :

« القلب فى حالة سيئة . وقد لايقوى على أداء وظيفته طويلا . أنصح برفض الطلب واعادة الكشف بعد عام من تاريخه » !

خبر فاجع خطير أليس كذلك ؟ !

جن جنونه و « انهوس » وأبلغ الأمر الى أخيه الأكبر منه مباشرة . وكان من الصنف الحاسم السريع البت ، فاذا به يفاجئه يوما من الأيام بتذاكر من محل كوك للرحلة فى سويسرا وفرنسا وانجلترا لمـدة ثلاثة شهور . فأدهشته المفاجأة وسأل أخاه : « ماذا ؟ »

قال : « قلبك فى خطر . سافر فى الحال . واستشر الطبيب الفلانى فى جنيف ، والطبيب الفلانى فى ليون ، والطبيب الفلانى فى لنـدن . وكل شىء جاهز وسنسافر معك . خذ اجازة فورا من مجلس النواب . السفر يوم ٢ يونية (سنة ١٩٢٨) وقد كان ...

***

وسـافر صاحبنـا ولكنه لم يذهب الى « بيكل » فى جنيف ، ولا « جرانفيلان » فى ليون ، ولا اللورد « دوفرين » فى لندن . وانما ذهب أول ليلة الى حانة مكسيم العالمية وشرب ... ورقص ... ليودع الحيـاة بين النساء والحظ حتى الساعة الرابعة صباحا !

وكرر مهازله ومباذله ليـلة بعد ليـلة لأنه كان يفضل الانتحار على الانتظار ! ثم ذهب الى عيـادة الدكتور « فوشـيه » ليتلقى الانذار الخطير . وبعـد بحث وفحص خلع الأسـتاذ البروفسير الكبير نظـارته وقال له : « قلبك ... »

قال الشاب فزعا : « ماذا ؟ »

ــ أقوى قلب رأيته فى حياتى !

وطار المريض بالقلب من شـدة الفرح . وقفز درجات سلم العمـارة منطلقا الى دنيـا المرح ! دنيا الشـباب ! دنيا الصحة ! دنيـا القلوب الصحيحة لا المريضة !

ومن يونية سنة ١٩٢٨ الى هذا التاريخ فى سنة ١٩٥٥ ، أى فى مدى ٢٧ عاما وقلب الأستاذ شكرى بطل القصة أقوى قلب فى الوجود !

الى المهووسين الموسوسين أسوق هذه القصة ، لعلهم يطمئنون ...

وزير !

فى باريس ، وفى شهر يونية سنة ١٩٢٨ ورد النبأ الأول باقالة وزارة النحاس . ثم ورد النبأ التالى بتأجيل مجلس النواب شهرا ... ثم ذهب صاحبنا الى لندن ، فورد فيها النبأ الثالث بحل البرلمان ، ومن بين هذه الأنباء نبأ رابع بأن رياسة الوزارة أسندت لصاحب اليد الحديدية ـ كما وصفوه ـ محمد محمود باشا ، وانه يختار زملاءه الوزراء ...

ويخبره بواب لوكاندته « دونو » ان حافظ رمضان باشـا يسأل عنه ويطلب أن يراه فورا فى لوكاندة كلاريدج ...

ويذهب « الأستـاذ شكرى » الى كلاريدج ويقابل رئيسـه حافظ رمضان باشا فيخبره بأن محمد محمود باشـا اتصـل به وعرض عليه أن يشترك معه فى الوزارة ممثـلا للحزب الوطنى ، هو وآخر يختاره على مسئوليته ...

ثم قال حافظ باشا رحمه الله : وأنت هو الآخر لو وافقنا على الاشتراك فى الوزارة ...

قال له الشاب : « لا ياباشـا .. لا . لا أنت ولا أنا .. ان مبـدأنا ضد الحكم والاحتلال قائم ، وجاثم ! فضلا عن أن اشتراكنا ـ لأول مرة ـ يحدث بعد الطغيان على الدسـتور ، وعلى الأغلبيـة ، وعلى مجلس النواب ...

وضحك حافظ رمضان باشا وقال : هذا هو رأيى أيضا . وسأبلغه فى الحال ... »

لا أوافق ... تفضل بالدخول

سئل محرر هذه القصة يوما ما :

ـ لو قدر عليك أن لا تكون مصريا ، فأية جنسية تفضل ؟

أجاب بدون تردد : « أفضل أن أكون انجليزيا ! »

ودهش القراء المصريون والقراء الأجانب حين ترجم السؤال ونشر .. ذلك لأن محرر هـذه القصـة كان معروفا بعدائه التقليـدى السرمدى للانجليز ... فكيف تحول ؟ !

لا .. لا !

انه لم يتحول ، ولن يتحول أبدا . انما الحـكومة الانجليزية شىء ، والانجليز شىء آخر . وما نرى هنا فى الداخل ـ وخصـوصا أثنـاء الاحتلال ـ من وجوه ، وأجسام ، وسحن ، وخلال ، وخصال ... غير ما نراه هناك فى انجلترا من وجوه وأجسام وسحن وخصال !

النقيض ... النقيض على خط مستقيم !

***

لقد أحببت الانجليز فى ديارهم ، وتتيمت بهم ، وتدلهت فيهم ... فى ديارهم ... لا خارج الديار

وكلما زرت لندن ، تبـادر محطة الاذاعة البريطانية فتدعونى لالقـاء عدة محاضرات ... وألبى الدعوة ... وتولم لى الولائم ... ويحف بى كبار موظفيها ... فاذا ما حان حين الاذاعة ... انطلقت أطعن ـ على مسمع منهم ومرأى ـ فى الحكومة الانجليزية وفى السياسـة الانجليزية ، وفى الاستعمار الانجليزى ... وهم يسمعون كأن على رؤوسـهم الطير . ثم يشدون على يدى مهنئين . وتنشر المحاضرات الملتهبة النارية وتذاع فى كل أنحاء العالم بغير حذف ولا شطب ، ولا رتوش ...

حرية الرأى !...
التاج الثمين الغالى الذى يتوج هامة هذه الأمة . وهذا الشعب العظيم...
وقلت للضاحك الباكى : « هل أعجبتك انجلترا ؟ »
قال بلهفة : « لدرجة الهيام . أنا أزورها كل عام . وأعز أصدقائى هم من ألد أعدائى ! »
وتسأل : كيف اذن حدث النقيض ؟
والجواب : انه لغز !
قلنا فيما تقدم أن النائب شكرى كان قد حصل على اجازته لمعالجة قلبه ، وقرأتم قصة قلبه ومجلس النواب منعقد فى أتم صحة وعافية ...
ووصل الى انجلترا وتحت اسمه فى بطاقته « نائب » ...
فلما أراد أن يحصل على اذن بحضور بعض جلسات مجلس العموم البريطانى احتفوا به فى مكاتب المجلس كل الاحتفاء . وحجزوا له «بنوارا» وكتبوا فى ورقة الاذن بالدخول :
« ضيف ممتاز » ... « نائب مصرى » ... « لوج ممتاز » ...
وفى اليوم المحدد للزيارة الأولى ، كان قد حدث فى مصر ما حدث بعد تأجيل البرلمان شهرا ، صدر مرسوم الحل كما أسلفنا . ونظر الى ورقة الاذن بالدخول فوجد فيها انه « نائب مصرى »
وها قد زالت صفة النيابة ، فماذا يفعل ؟ خاف ... خاف ... خاف أن يغش بلد الصدق ! فذهب للحارس الأول على الأبواب وأخرج الاذن ، ثم قال له :
ــ حدث اليوم ياسيدى أن الملك المصرى حل مجلس النواب . فأنا فى هذه اللحظة لم أعد نائبا ، والتصريح الذى فى يدى صدر لمّا كنت نائبا
قال الحارس : « حل ؟ »
قال شكرى : « نعم ... »
قال الحارس : « لا أوافق . تفضّل بالدخول »

ودخـــل وأعطى التصريح للمكلفين باجلاس الزوار ، وقال لهم نفس القول . وسمع كبيرهم القصة فقال :

ــ لا أوافق على الحل ! تفضـــل بالدخول . و « انجعص » النـــائب المصرى السابق فى « لوجه » الخاص المحجوز ، والناس تتطلع الى هذه الشخصية الفاخرة . ودارت المناقشات ...

الأولد بيلى

ولما كان محاميا ، فقد رغب فى حضورجلسة منجلسات محكمة الجنايات ــ الأولد بيلى ــ فاتصل بسكرتير المحكمة وأعطاه الاذن ودخل الى قاعة الجلسة ، فلما علم المحامون الانجليز بأنه زميل مصرى أجلسوه معهم فى مقاعدهم ، وهو بملابسه العادية ، وهم بأرديتهم التقليدية . فلما فتحت الجلسة ، حيا اللورد رئيس المحكمة الحاضرين ، ثم نظر نظرة حائرة الى هذا الغريب « المحشور » فى زمرة المحامين فقالوا له : انه زميل مصرى، فحياه تحية كلها ترحيب ، ثم نظرت القضية ...

قضية متهم اتهم بسرقة باكراه ، قضـــية واحدة ! واحدة ! استغرقت أربعة أيام ! وفى بدايتها نهض المحامون عن المتهم وطلبوا انسحاب ثلاثة من المحلفين . ولم يبدوا أسبابا . فانسحب الثلاثة فورا بدون مناقشة !

وسمع الشهود واحدا بعد الآخر . وأرخى العنان للمحامين يعصرونهم عصرا . ثم استدعى المتهم كشاهد فأدى شهادته . وفى نهاية الأيام الأربعة لخص اللورد الرئيس أدلة الاتهام . وأدلة الدفاع . ووقائع القضية . بكل دقة وتفصيـــل . ثم طلب الى المحلفين أن ينسحبوا ليصـــدروا قرارهم . وصدر القرار بالادانة . وهذا الحكم !

قضية واحدة ! فى أربعة أيام ! مع هذه الكفالات والضمانات ! وهذا هو : العدل الانجليزى !

التاج الثانى بعد حرية الرأى الذى يتوج هامة الأمة العظيمة . والشعب العظيم !..

حجر رشيد

ومن أطرف ما حدث لأستاذنا انه ذهب مع « كوك » في زيارة للقسم المصرى بالمتحف البريطانى ...

وبين الأمريكيات والأمريكان ، والفرنسيات والفرنسيين ، والألمانيات والألمان ... الخ ، وقف الدليل عند حجر رشيد ، وقال :

« سيداتى . وسادتى :

« كنت سأشرح لكم تاريخ حجر رشيد ، ولكن نائبا مصريا بيننا يعرف عن تاريخ بلاده أكثر مما أعرف ، وهو أولى منى وأجدر بأن يشرح لكم حجر رشيد !

وارتج على الأستاذ النائب الصحفى المثقف ! ارتج عليه لأنه ما كان يعرف أو يذكر شيئا عن حجر رشيد !

يا للفضيحة ...

ضاعت من الذاكرة كل ما تعلمه وعرفه عن حجر رشيد ...

وتحرج الموقف ... وتطلع اليه السياح ينتظرون المعلومات ...

وبينما هم يلتفون حوله سقط بينهم فجأة مغمى عليه !

فجأة !...

وهرول الدليل والسعاة يبحثون عن طبيب . ونقلوه الى غرفة مجاورة . وأسعفوه بالاسعافات الضرورية ... حتى انتهى ميعاد الزيارة ...

ماذا أصابه ؟

لا شىء ، وانما عرف كيف يمثل دور الاغماء المفاجىء لينجو من فضيحة الجهل بحجر رشيد ...

أقبح ما يحمله السائح المصرى الى الخارج جهله بتاريخ وطنه وبلده .. عار ! أراهن أن الأغلبية الساحقة من السياح المصريين فى الخارج لاتعرف تاريخ البلاد . ولو سئل أكثرهم عن الآثار المصرية لما نبسوا ببنت شفة. وهم — فى الخارج — لايسألونك عن السياسة بقدر ما يسألونك عن

الفراعنة . وأغلب المسافرين الى الخارج من المصريين لم يزوروا الأقصر وأسوان وسقارة وغيرها . فهم دعاية سيئة للبلد التى تحتاج الى الدعاية!

سل نفسك وأنت تقرأ هذه السطور :

ـ هل زرت الأقصر وأسوان وسقارة ؟

ـ من بنى الهرم الأكبر ؟

ـ كم عدد سكان القاهرة بالضبط ؟

ـ كم مساحة القطر المصرى ؟

ـ كيف بنى الفراعنة الاهرامات ومن أى مكان كانوا يقطعون الحجر؟

هذه الأسئلة وأمثالها هى التى يسألونها للسائح المصرى . وهو لو جهل ، وأجاب فكذب ، فضح نفسه وبلده ، لأنهم قرأوا أكثر مما قرأ ! وعرفوا أكثر مما عرف !



لماذا لايجرون امتحانا بسيطا فى هذه الأولويات القوميات لمن يسافرون؟ لماذا لايجعلونها « مؤهلا » من مؤهلات السفر الى الخارج . أو شرطا من شروطه الكثيرة ؟ والله انها فكرة جديرة بالنظر ...

هذا الجهل بالمعلومات الجوهرية عن تاريخ وطن السائح المصرى يقابله جهل بالمعلومات الواجبة عن البلاد الأجنبية التى يرحل اليها !

الأغلبية الساحقة من السياح المصريين لا تهتم الا بالمشتروات ، والنساء ، والليالى الحمراء ، والأطباء ! وهم بعد ذلك لا يدرسون ولا يختلطون ولا يزورون ، ويعودون الى بلادهم وقد جمعوا بين جهلين : جهل بتاريخ بلادهم ، وجهل بتاريخ البلاد التى أنفقوا فيها مئات الجنيهات !

فى تلك الرحلة زار الأستاذ شكرى فرنسا ، وانجلترا ، وسويسرا . وقد كفله وتعهده محل كوك من الباب للباب ، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة الا وشاهدها ودرسها فى جميع أنحاء تلك الدول الثلاث . وكثير من السياح المصريين يعتمدون على أصدقائهم المقيمين فى الخارج من الموظفين

والطلبة « ليفسحوهم » ! وأؤكد أن أغلب هؤلاء المقيمين فى الخارج لم يتحركوا من المـدن التى يقيمون فيها ولم يروا الا التـافه المحدود ، وجهلهم بالبلاد التى يقيمون فيها أفضح من جهل الوافدين ...

أنصح كل سائح مصرى بأنه عندما يهبط بلدا من البلاد يلجأ فورا الى مكاتب السياحة العديدة ويكرس الأسبوع الأول للرحلات المنظمـة المعدة المزودة بالتراجمة ليدرس كل شىء قبـل أن ينقطع للذة الليـل ، ومتاع الظلام ...

مع الخديو عباس الثانى

فى ذلك الصيف ـ صيف سنة ١٩٣٨ ـ الذى ذكرنا بعض مآسـيه ومهازله ، كان بطل هذه القصة قد لذت له الاقامة فى باريس وطابت ! ولكن هاجسا كان دائما يهجس له فى ذهنه :

ـ لماذا لا تزور الخديو عباس الثانى ؟

قال له كل معارفه وأصدقائه من الأمراء والنبلاء والوزراء والباشوات والبكوات :

ـ لا .. لا ! حذار.. حذار ! ان تلك الزيارة تكون عدم ولاء لولى الأمر الحالى ، الملك فؤاد . ولنظام الحكم الحالى ، وهو حكم الملكية ، بعد حكم الخديوية ، وبعد أن أقصى عن العرش ولى عهد ذلك الفرع . فرع الخديو عباس ...

ـ لا .. لا ! انك تصبح بسبب هذه الزيارة عاصيا أو ثائرا !

ـ لا .. لا ! انك شاب ... ونائب ... وقد أقسمت يمين الطـاعة والولاء للملك فؤاد . فكيف ؟ ! كيف تزور ولى الأمر المخلوع ؟ !

سأل الشاب نفسه مستنكرا :

ـ ولى الأمر المخلوع ؟ ومن الذى خلعه ؟ ان الشعب لم يخلعه ! وانما خلعه عدو الشعب : الاحتلال ! الانجليز ! ان جهة غير شرعية خلعت ولى الأمر الشرعى حين نشبت الحرب العظمى الأولى ...

ـ لا .. لا ! هذا منطق الجبنــاء . وبرفع النظر عن ذلك كله فان الزيارة زيارة . وليست مؤامرة . والخديو عباس لم يفكر فى العودة . فقد هجر عرش مصر الى الأبد ...

واستعاد الشاب فى ذهنه وقائع التاريخ البعيد . فذكر للخديو عباس انه كان فى بداية حكمه وطنيا مصريا صميما ، تحدى الانجليز وصــمد أمامهم علنا حتى لطموه اللطمة الأولى فى الفيوم بعد عودته من السودان وابدائه ملاحظات لاذعة على كتشنر

***

ثم ذكر للخديو عباس انه جاهد جهــاده الخفى مع قرينه وزميــله فى الشباب وفى الوطنية مصطفى كامل ، فدفع ضريبة العرش ، والولاية ، والمصرية ، ماديا ومعنويا ، ولمــا عرف الأعيان والوجهاء والكبراء انه صديق الزعيم الأول أقبــلوا عليه بجموعهم ، وبحيثياتهم ، وبأموالهم ، مساهمين فى الحركة الوطنية

وذكر للخديو عباس انه عزل ! لأنه كان فى نظرهم يدبر مع الأتراك غزوة مصر لاجلاء الاحتلال ...

ثم ذكر للخديو عباس انه فى آخر أيامه بمصر زار البيوتات والعيلات فى الأقاليم وكان شكرى الصغير اذ ذاك ممن قابلوه فى دارهم بعاصمة الاقليم ...

ثم ذكر للخديو عباس ما قرأه فى كتاب كرومر عميد الاحتلال ، وكان الكتاب كله طعنا مرا وقدحا وذما ، ولماذا يطعن فيه الانجليز ويقدحون ويذمون ؟ !

وما له ولكل هذا ! هو كاتب ــ وصحفى ــ وحر ! فلماذا لايرى؟ ولماذا لايسمع ؟ ولماذا يجبن كأولئك الجبنــاء وهو لم ينل من الخديو عباس ما نالوه ، ولم يقتنص من سلطانه ما اقتنصوه ؟

ان التصرفات البريئة التى تجرى فى وضح النهار لايمكن أن تحيط بها الريب ، ولا يجوز أن تحيط بها الريب ، وليقل الجواسيس ما شاءوا أن

يقولوا ، وليضمنوا تقاريرهم ما شاءوا أن يضمنوا

صحيح أن الخديو عباس تنكر فترة من الفترات فى حكمه الطويل على الوطنية والوطنيين . وصحيح أن سياسة الوفاق مع غورست قد خدشته وجرحته ، وشابته ، ولكنهم فى النهاية خلعوه وأقصوه . ومن أجل ذلك الخلع غير الشرعى . والاقصاء غير الشرعى . أضرب « بطل هذه القصة » وزملاؤه من طلبة مدرسة الحقوق سنة ١٩١٥ عن استقبال السلطان حسين فى مدرستهم حين قرر زيارتها . فسجن فى سجن الاصلاحية من سجن ، وفصل من المدرسة من فصل ، وكان منهم صاحب هذه القصة ... بل شاءت الظروف أن يجند فى الجهادية وهو مفصول لايحتمى بحق الاعفاء ، أثناء رفته . ولولا « تزويرة » من شيخ الحارة ، سعرها ريال واحد ، لبقى صاحب هذه القصة عسكريا فى الرديف!

اذن قر قراره أن يزور الخديو عباس . ولتفعل القاهرة بعد ذلك ماتشاء

« بوبلى » ...

ذلك الرجل .. الرجل !

أى والله ...

لن يفد فى هذا العصر وفاء مثل ذلك الوفاء . وولاء مثل ذلك الولاء . وأمانة مثل تلك الأمانة ...

« خليفة بوبلى » سكرتير الخديو عباس طول سنى محنته ، وعزلته ، وهجرته . كم حاولوا أن يجذبوه وأن ينزعوه ، وأن يشتروه . ولكن الرجل كان رجلا ! واستحالت سكرتيريته الى ثقة ... والثقة الى وكالة . والوكالة الى لسان حال ! كان الكل فى الكل ! وأسرار ذلك العهد الطويل التاريخى عنده . ولا أدرى ماذا ينتظر ؟ ولماذا لا ينشر تاريخ تلك المرحلة الطويلة الخطيرة السياسية من مراحل الزمن المصرى ؟ ان جعبته مليئة بالوثائق ، والحقائق ، والدقائق .. فمتى يفرغها ويعرضها على الناس ؟ !

كانت تجرى فى أوربا شئون وشجون فى غاية الخطورة والأهمية . وكان بطلاها الخديو عباس وبوبلى بين تركيا وفرنسا وانجلترا . وقد اشترك فيها كبار الساسة فى هذه البلاد . وقد مات عباس الثانى وماتت معه أسراره وأخباره . وبقى خليفة بوبلى أطال الله بقاءه ، مستودع تلك الأسرار والأخبار فهل يقدمها هدية الى مصر والمصريين ؟

قابله شكرى فى القهوة العالمية الباريسية « فوكيتس » ولما كان من رجالات الحزب الوطنى ولم يتخل عنه يوما من الأيام فقد أفضى اليه برغبته فى مقابلة الخديو عباس ، فحدق فى وجهه كثيرا أو قليلا ثم قال :

ــ أجاد أنت ؟

قال : « كل الجد ... »

قال الأستاذ بوبلى : « اذن فخذ العنوان . واحضر الساعة الحادية عشرة غدا ... »

فى غابة بولونيا ...

وفى غابة بولونيا ، احفل حدائق الدنيا بالتاريخ العجيب الذى يجارى جمالها وسحرها ونضارتها ، قامت بين الأشجار « فيللا » جميلة هى التى كان يعيش فيها عاهل مصر الذى جرت فى عهده أخطر أحداث مستهل القرن العشرين ...

ودق الشاب جرس الباب الخارجى ففتح بهدوء وصعد به مستقبله لا درجات سلم عابدين ولا القبة ولا بين الحراس المدججين بالسلاح . وانما بين سكون شامل يرمز الى العرش الضائع ، والصولجان المولى ، والى القدر.. وكيف يعبث بمصائر الأباطرة والقياصرة والملوك وأرباب العروش !

واستقبله خليفة بوبلى وأخذ يسأله عن البروتوكول التقليدى الواجب اتباعه مع ولى الأمر الأسبق ، فقال له : « لابروتوكول اليوم ولا تقاليد ! نحن هنا كسائر الناس »

ومرت الساعة الحادية عشرة المحددة ، ومر ربع ساعة ، واذا بباب المكتب يفتح ويطل منه رجل ضخم ــ عريض المنكبين ــ كبير الرأس لم يتصور الشاب مطلقا انه عباس المعروف بقوامه وقده وجماله . ولكن الزمن ! والأحداث ! كم تغير الوجوه والأبدان والنضارة والصحة والطلعة ؟ !.. كان شخصا آخر بالمرة أقرب الى جبابرة الألمان منه الى وداعة المصريين !

وصافح الخديو عباس زائره الشاب مصافحة لا عرش فيها ولاسلطان ولا عنجهية ولا عتو ... كانت مصافحة عادية طبيعية لا كلفة فيها ولا تصنع ! ثم جلس العاهل المعزول على مكتبه وقبض بيديه على مسطرة ثم قال :

ــ أعتذر اليك يا شكرى فقد كنت أتولى رياسة مجلس ادارة شركة حديد وتأخرت عليك على غير ارادتى ...

وانتابت الشاب نوبة دهشة وذهول فقد قارن فى لمحة سريعة بين ذلك الرجل الذى كان لا يعتذر ! وهذا الرجل الذى يعتذر ، وهتف فى سره قائلا : سبحان مغير الأحوال !



وتدفق الخديو عباس يتكلم بلغة عربية سليمة سريعة بليغة ، وبروح كلها مجاملة وظرف ، حتى لقد أحس الشاب انه أمام صديق قديم ...

قال الخديو عباس أول ما قال : « لقد تأثرت كل التأثر لوفاة رجل مصرى وطنى سياسى كبير هو المرحوم اسماعيل أباظة باشا بطل القنال بلا مدافع ، والبرلمانى المحنك ، والصحفى البارع .. لن ينسى التاريخ اسماعيل أباظة باشا الذى حفظ لمصر قناة السويس ، وحال بحملاته الشعواء ضد سعد زغلول دون مد امتيازها . فقل للمصريين اذكروا هذا الرجل واذكروا جهاده العظيم

ثم قال لبطل هذه القصة : « أنت صحفى وخطيب . وانى أهنئك عواقفك هذه كلها . ولمصر أن تفخر بأمثالك ، ولى رجاء خاص عندك :

أن تذيع وتشيع وتؤكد ما شاء لك التأكيد اننى لا أفكر مطلقا فى عرشى المولّى ، ولا فى حقى الضائع . لقد زال هذا الخاطر نهائيا من خاطرى ، فلن أعود الى مصر ، اللهم الا اذا شاء القدر أن أعود اليها فى رحلتى الأبدية الى الآخرة ... قل هذا وأكده فان هناك من يستغل الظروف ويكذب على أولياء الأمور وعلى الرعية ليستفيد ، ويجد له حظوة عند الحكام . أصبحت أثرا من آثار التاريخ ولن يكون هناك بعث ولا نشور » ...

ثم قال : « أرجو أن ينشط الحزب الوطنى أكثر من نشاطه الحالى فلا تزال أمامه أشواط طويلة كلها عراك مرير . ولكن الأمل دائما هو الأمل وقد قال زعيمكم مصطفى كامل : لايأس مع الحياة ولاحياة مع اليأس!

وأخذ الخديو عباس بعد ذلك يسأل عن الأسر المصرية المعروفة أسرة أسرة . وعن الأحياء من رجالها والأموات. ثم أخذ يستفهم عن المشروعات المختلفة وعن مدى تنفيذها . وقد أدهش الشاب الزائر أن الرجل يعرف من أحوال بلده أكثر مما يعرف هو ، فأكبر فيه هذا الاهتمام وذلك التعقب والتتبع ...

وبظرف ممتاز أخذ يروى بعض النوادر عن المؤامرات السياسية الكبرى وعن الصراع بينه وبين الانجليز . ثم صرح بأنه يضع مع بوبلى مذكراته وأنه يأمل أن تنشر بحذافيرها يوما من الأيام ...

وانتهت المقابلة بعد ساعتين ... أى حوالى الساعة الواحدة والنصف . ويؤكد لى « الضاحك الباكى » أن أخبارها وصلت الى مصر قبل أن يغادر غابة بولونيا !



ولما عاد صاحب هذه القصة من رحلته الى أوربا فى سنة ١٩٢٨ ، وجد جو القصر الملكى مكفهرا بسبب تلك الزيارة . وعانت أسرته من نتائجها ما عانت . فظلت العهود الماضية المتتابعة تحذر كل الحذر من أن تفتح أبواب خيرها الحكومى . أو أبواب واجبها الحكومى لأفرادها البارزين

الجديرين بأن ينالوا من حقوقهم قبل الدولة كمواطنين أسوة بزملائهم من الأسر الأخرى ...

وبالرغم من أن الشاب الزائر قد أوضح فى أحاديث مختلفة مع رجال القصر حقيقة هذه الزيارة . وانها لا « للتـآمر » وانما لمجرد المجاملات والاستزادة من المعرفة الشخصية ... بالرغم من ذلك فقـد ظلت علاقات القصر معه فاترة !.. بل ربما تجاوزت « منطقة الفتور » الى مناطق أخرى أدهى وأمر سيرد ذكرها فى الحلقات التالية ...

قصة حبى

قلت للضاحك الباكى بعد أن عاد من أوروبا فى صيف سـنة ١٩٢٨ : « هل رأيت الدنيا ؟ »

قال : « نعم . رأيتها ... » .. قلت : « وبماذا تنصح ؟ »

قال : « بالسفر ... السفر ، أحرض عليه كل مواطنة ، وكل مواطن ، وكل حكومة مفروض عليها أن تشجع السفر الى الخـارج مهما كانت عقبات النقد الأجنبى والاسترلينى ، ومهما تطلبت مصلحة الاقتصاد القومى

السفر الى الخارج : هو الجامعة الكبرى التى لايستغنى عن علمهـا وفنها طفل ــ ولا فتى ــ ولا رجل ــ ولا كهل ــ ولا شيخ ــ ولا فتاة ــ ولا امرأة

فلما جئت أضع قصته هذه .. أو مرحلة حياته السياسية ، وقفت معه عند تلك الصورة فى صيف سنة ١٩٢٨

قلت له : أرو لى ذكرياتك بعد حل مجلس نواب سـنة ١٩٢٨ ، عن حكم محمد محمود ــ حكم اليد الحديدية ــ الحكم الذى أنذر فى بدايته بوقف الحياة النيابية سنوات ثلاثا ــ ثم لم يلبث الا عاما وبعض العام ، ثم جاء الوفد ومصطفى النحاس ، فلم يمكثا الا عاما وبعض العام . ثم حدث الانقلاب الصدقى ، فاذا بمجلسى الشيوخ والنواب يحلان ، واذا

بدستور جديد ، واذا بقانون انتخاب جديد ــ واذا بدكتاتورية من نوع الدكتاتوريات البرلمانية !

قلت : « ارو لى تلك الأحـداث والحوادث ، فهى تاريخ عجب من مراحل التاريخ المصرى الحديث »

قال الضاحك الباكى : « لا لا ! أنت لا تؤرخ كما قلت وكررت . وأنت لست جـديرا بأن تؤرخ ! غيرك أجادوا ذلك وأتقنـوه . فليرجع القراء اليهم لأننا هنا نقص ولا نؤرخ . نحن نهدى الجيـل الجديد ، برأينا .. وروحنـا .. وذهننا .. وفضـائلنا .. ومساوئنا .. ومفاخرنا .. ومهازلنا .. وحسناتنا وسيئاتنا .. ليستفيد من يستفيد من الفضـائل والنقائص والصواب والخطأ ، والخط المستقيم والخط المعوج ! »

والقراء فرق : فرقة تهوى السياسة ، وقد ظفرت منها بنصيب وافر فى قصتى ، وفرقة تهوى البرلمانية وقد أخذت حقها ، والبقية تأتى ... وفرقة تهوى العاطفة والجوانح وعبث القلوب ولم نشبعها الشبع كله ، ولم نروها الرى كله ! فاكتب لهذه الفرقة :

ويالها من قصة ... ،

وبدأ يروى وأنا أدون مذكراتى . واليك قصة الحب الأخطر فى تاريخ حياة الضاحك الباكى :

الدبة ...

ــ ما اسمك ؟ « بطة ... »

ــ لماذا يسمونك « الدبة » ؟ « لا أعرف ... »

ــ ماذا تفعلين هنا ؟ « أشم الهواء ... »

ــ الوقت متأخر . وأنت بنت صغيرة !.. « مش شغلك ! »

ــ سأشكوك لأبيك ... « أنا حرة »

ومر بائع « اللب الجرنة » و « الكرملة » فاشترى منهما الفتى بقرش « تعريفة » وتقدم للفتاة عارضا عليها هديته الصغيرة المتواضعة ، فنظرت

اليه شذرا بادىء الأمر . ولكن التقت نظرتها المستعجلة بنظرة منه وديعة وهنانة فيها توسل وضعف برىء ... فابتسمت ابتسامة الرضا على ثغرها الدقيق ثم مدت يدها الطرية ، للهدية

ــ اذن اصطلحنا ؟ « آه ... »

ــ سعيدة ... « سعيدة ... »



كان ذلك فى سنة ١٩٠٨ ــ فى الصيف ــ فى مصر القديمة ، حيث كانت تقطن الفتاة وكان يقطن الفتى . وقد اعتاد اليهود فى يومى السبت والأحد أن يفدوا الى النهير الصغير قبالة مقياس الروضة ، فكان يحتشد جمالهم ، ودلالهم ، وسمرهم ... بل كان يوما السبت والأحد مهرجانا باهرا بارعا فى ذلك الجزء الجميل من النيل الصغير والكبير. وكان من شأن حجيج الجمال والدلال اليهودى النسوى الى تلك الناحية « المختارة » أن يستنفر شباب ورجال مصر العتيقة الى هذه الناحية بعينها للاستمتاع والمتاع ، وكان السلم الطويل العريض المنحدر من الأرض الى الماء يعج بالأزهار وربيع الأعمار من الآدميات والآدميين ولسان حال الجميع يقول : نظرة ، فابتسامة ، فسلام ، فكلام ، فموعد ، فلقاء ...

كانت الزوارق تملأ النهير ، وكل زورق منها يضم قلوبا ــ وغزلا ــ وموسيقى : فكان النهر الضاحك السعيد العاطفى الذى رفع فيه « التكليف » وتفرغ فيه مخلوقات الله من مختلف الأديان والأجناس والأحجام الى اللهو البرىء وغير البرىء ...

وفى الشاطىء الثانى تندلع حديقة المناسترلى المترامية الأطراف ، الغنية بالخضرة . وهكذا اجتمع الثلاثة الأبطال : الخضرة ــ والماء ــ والوجه الحسن .

كانت « بطة » الصغيرة أو « الدبة » على حد تعبير المعجبين باستهلالها

النسوى الصغير جميلة من جميلات ذلك الزحام . وسموها « الدبة » لأنها كانت مدملجة ، تسير وكأنها فى غاية الديمقراطية وسط تلك الأناقة المزخرفة التى أسبغ عليها اليسر والتواليت ما أسبغ من جمال صناعى اكتسحه جمال الصغيرة ، لأن لبساطة الجمال جلالا لا تظفر به المتألقات بالماس واللؤلؤ والذهب ...

اقتطعت الصغيرة الفقيرة من قلب الفتى قطعة ... ذلك الفتى أصبح فيما بعد الأستاذ شكرى بطل قصة الضاحك الباكى التى قرأتم نصفها الأول فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، والتى تقرأون نصفها الثانى فى هذه الفصول



وتمر أيام السبت والأحد وتكر . ثم تمر سنة ، وأخرى ، وثالثة ، ورابعة ، وخامسة ، والفتاة تكبر وتترعرع والفتى يكبر هو الآخر ويترعرع ، حتى تقتضى الحاسة الطبيعية أن يختلسا خلوة . ثم يختلسا قبلة ... ثم يهما بالعناق ... وتكبر « الهدايا » والمجاملات هى الأخرى فيرتفع سعرها ومستواها من « القرش التعريفة » الى العشرة قروش والى الريال والى الخمسين قرشا . وقد مضت الخمس سنوات فاستطاع الفتى فى يونية سنة ١٩١٣ أن يهديها مصحفا « دبليه » بسلسلة ذات قشرة مذهبة فى قمتها قطعة صغيرة حفر فيها حرف « الشين » وهو أول حروف اسمه فعلقته فى صدرها مغرمة بهديته معجبة ...

كان ذلك ، أو انتهى ذلك .. فأصبح حبا !

وكان الحب فى ذلك التاريخ ـ يونية سنة ١٩١٣ ـ حبا ، لأنه كان محفورا راسخا فى قلوب الأطفال .. فالفتيان . وكانت تحصنه براءة العذارى من الجنسين . ولم تكن تطغى عليه تقاليد هذه الأيام التى اختلط فيها الحابل بالنابل ، وهبط فيها سعر الحب الى الحضيض ، وتضخمت أوراقه القلبية والجيبية فلم تعد تساوى شيئا ...

بعد يونية سنة ١٩١٣

وذهب الصغير « شكرى » كعادته الى الملتقى فى يومى السبت والأحد فى أواخر أسابيع يونية وأوائل أسابيع يولية فلم يجد الفتاة !.. أخذ يسأل عنها اللدات والصاحبات والباعة المتجولين . بل أخذ يسأل عنها الطوب والحجر والماء والخضرة وأخذ يترنح بين كل شجرة وشجرة . وزهرة وزهرة . وركن وركن . فلم يجد لها أثرا

ومضت الأسابيع بسبوتها وآحادها سراعا فيئس! وبدأ ينظم شعرا ونثرا وزجلا ، ويؤلف مقطوعات الموسيقى ، ويلحنها ، فى مدرسة السعيدية .. حتى أنذر بأنه سيصبح شيئا ما فى عالم الأدب والشعر والنثر والخيال عاما بعد عام

كان الفضل فى هذا التطور للصغيرة التائهة الغائبة غيبة تكاد تكون منقطعة . ويشهد الله أن صورتها لم تغب عن ذاكرته وأنه بعد أن فارق « مصر العتيقة » وقطن أغلب أحياء القاهرة ، كان يكرس سبته وأحده كل أسبوع لهذه الجهة لعله يجدها ، أو ليعمر قلبه بذكرياتها ...

الا « شيئا » واحدا

طويت تلك الصفحة ونسيها الفتى ونسيتها الفتاة الصغيرة ... نسى كل شىء ؛ الا شيئا واحدا ...

ــ ما هو ذلك « الشىء الواحد » !

غابت أياما وأياما .. ثم جاءت الى شاطىء النيل المعهود وقد لفت ذراعها الصغير برباط !

ــ ما هذا ؟

قالت : « سمنة » ...

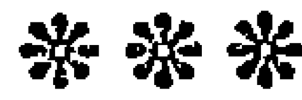
ــ سمنة ؟ !

ــ أيوه سمنة ! كنت أساعد أمى فى تسييح السمنة فاندلقت على ذراعى هذا . فكان هذا الحرق ...

وذهب بها ــ فورا ــ الى منزله ، وفك الرباط .. ويا للدهشة الممزوجة بالأسى ، الذراع الجميل مشوه ! والحروق السمنية خلفت وراءها آثارا كالوشم أو أسوأ ... وكيف تفعل فى ــ فى مستقبلها المجهول ــ لتخفيه عن أعين الناس ؟ ! ومن يدرى ما أثره وتأثيره على حياتها المقبلة ؟ !

واساها على قدر سذاجتها وبساطتها وطفولتها أو ثقافتها . فتمتمت قائلة : « هل تكرهنى بسببه ؟ »

قال : لا .. لا ! لا ! أبدا .. أبدا ! انه جمال وافد ... انه حلية .. انه للذكرى !



وفعلا « للذكرى »

نسيها . ونسى كل شيء . الا هذا الشيء !

وغيبتها الدنيا ، وغيبته ، فلم يلتقيا بعد ذلك التاريخ ...

« رأس البر » سنة ١٩٢٩

هو ذلك المصيف العالمى القائم بذاته .. الوحيد فى نسخته الأصلية التى لا تلد الصور ولا الأشباه والنظائر وان كانت مقلدة أو مزورة

مصيف رأس البر عديم النظير . وقد ساح الأستاذ شكرى فى أوربا كلها جنوبها وشرقها ووسطها وغربها وشمالها وزار أمريكا وجابها من الشرق الى الغرب ، فلم يظفر بمصيف كمصيف رأس البر فى طابعه ومظهره وتقاليده وموقعه ...

قذفت به الصدف الى شاطىء ذلك المصيف فى يونية سنة ١٩٢٧ مع بعض أصدقائه من الدمياطيين وبعض أقاربه ، كانت حياة المصيف السهلة الطبيعية التى لا تكلف فيها ولا تصنع توافق جهازه العصبى ومزاجه . ففى تلك الأيام كان المصيفون يرتدون ما شاءوا أن يرتدوا . ويأكلون ما يشتهون أن يأكلوا . ويهرجون ويمرحون ما شاء لهم التهريج والمرح فى أى مكان وأى زمان وأى وسط

كانت الحياة فى ذلك المصيف حبيبة اليه فى ذلك العام والأعوام التى

تليه .. فلما طرأت الحرب العظمى فى سنة ١٩٣٩ وانقطعت مواصلات الخارج ارتد المصيفون الأرستقراطيون الى مصيف رأس البر فقلبوا أوضاعه . وطغوا على تقاليده — وزيفوا أصله وفصله — وأوجدوا فيه أوضاع الأرستقراطية الثقيلة الدم — ورسموا له بروتوكول الحياة الجامدة البليدة فلم يصبح رأس البر ، رأس البر .. فهجر ...

هجرته الأرستقراطية المصرية الأوروبية . ولكنه ظل عامرا بالأسر العريقة الكريمة ، وبالأسرة الأعرق والأكرم ، وهى أسرة الشعب ! ..

« ايرين استافرو »

غزال ... أى والله غزال ...

ورأس البر كلها رمال ، وملك الغزال مملكة الرمال فى رأس البر . ملك الجميع ! الانسان ، والجماد ، والطبيعة ! كان الغزال يقفز هنا ... وهناك ... ويركض ركضه السريع ، وينفر نفوره السليقى ، ويرمى بلحاظه الأطفال ، والفتيان ، والكهول ، والشيوخ ، رجالا ونساء ! وهو لايحفل بالجميع ! الغزال الشارد الوارد — المكر المفر المقبل المدبر — الذى لايهدأ ، ولا يهمد ، نهاره وليله ! فى البر ، وفى البحر ، كان ذلك الغزال اسمه :

— ايرين استافرو !

ولعلك فهمت . كان الغزال فتاة اغريقية ... فى سن السادسة عشرة — ذهبية الشعر — زرقاء العينين — فتاكة الوجه لا فتانة الوجه — ثائرة ! ثائرة ! احتكرت الصبا والفتوة احتكارا ! فازت عامين متواليين بجائزة الجمال الأولى للمصطافات .. كانت تلف وتدور حول شواطىء النيل ، واللسان ، والبحر ، ووراءها مواكب ! مواكب ! مواكب من المعجبين المطاردين المتعقبين ومنهم الجميل الفاتن — والغنى الفادح — والشهير اللامع ولكن .. هيهات ! هيهات ! .. لم يستلفت نظرها فى هذه الجحافل واحد ! أو قل انها لم تفكر فى أن يستلفت نظرها واحد ! ..

ولكن عمت الدهشة ، وعم الذهول .. لما وفد الأستاذ شـكرى فلفت نظرها ، ولفتت نظره ثم نمت اللفتة وترعرعت فأصبحت ابتسامة ... ثم استحالت الابتسامة مشاغلة ... ثم زحفت المشـاغلة فأصبحت مقـابلة وحديثا طويلا . ثم تمادت فأصبحت ملازمة ... ومرت الأيام والليـالى الجميلة فكان ما وجب أن يكون وهو : الحب !

وسرت قصة هذا الحب المصرى اليونانى ، سريان الكهرباء . وتسللت الى الكازينات ، والعشش ، والعائلات ... ثم اندلعت الى بيوت أسرة شكرى . وهى تعد بالمئات . وشاع وذاع أمر الزواج المنتظر بين النائب اللامع ، والصحفى اللامع ، والمحامى اللامع ، وبين « ايرين استافرو » !

وفى يوم من الأيام تصفح الشاب جريدة الأهرام فوجد فى محلياتها هذا الخبر :

الاستاذ شكرى يتزوج

« علمنا أن الاستاذ شكرى الذى يعرفه قراء الأهرام قد اعتزم أنيتزوج قريبا من فتاة يونانيــة فازت أكثر من مرة بجائزة الجمــال فى رأس البر فبالرفاء والبنين .. »

أحدث الخبر رجة فى المصيف وهرول الأستاذ شـكرى الى التليفون ، فطلب مخابرة مستعجلة مع الصحفى الكبير الأستاذ داود بركات ، رئيس تحرير الأهرام ، وسأله متأثرا عن نشر هذا الخبر .. وعن مصدره،فأجابه بأن الناشر والمصدر هو أخوه الأصغر ... رشدى !

وهذا الأخ الغريب الأطوار كان دائما مصدر متاعب لأخيه بطل هــذه القصة ، ولعل القراء الذين قرأوا الجزء الأول من « الضاحك الباكى » قد علموا شيئا عن هذا الشقيق العجيب !

لقد كان نشر الخبر بهذه الكيفية دسيسة مدبرة لاثارة أفراد الأسرة الكبيرة عليه ، وكان مقدمة لدسائس أخرى ، أو أساليب أخرى للحيلولة دون هذا الزواج

كان المرحوم عبد الغنى بك محافظا لمحافظة دمياط فى هـذا الوقت وكان من أصدق أصدقاء أسرة الأستاذ شكرى ، وفى ذات ليلة استدعاه وأبلغه بأن عميد الأسرة « م . باشا » قد كلمه تليفونيا وطلب اليه أن يمنع هـذا الزواج بكل طريقـة ! وعلق المحافظ قائلا بلهجـة الادارى الحازم : « ان هذا الزواج لن يكون » !

وفى يوم من الأيام وصل لنش رأس البر ، فلمح شكرى جموعا تحتشد على الشاطىء فسأل : « ما الخبر ؟ »

قالوا : ان المطربة الفنانة الممثلة الشهيرة « فلانة » ستصل !



وكان أبرز شبان ورجال المصيف قد احتشدوا مع المحتشدين لاستقبال النجمة اللامعة المتربعة على عرش الغناء والتمثيل . ولم يأبه شكرى بها ولم يتعلق بأذيالها فى الغدو والرواح ، والذهاب والاياب ، على الشاطىء الطويل ، كما فعل أصدقاؤه من كل سن وحيثية ...

وأحدثت المطربة الممثلة الوافدة ضجيجا وعجيجا فى المصيف ، فاهتزت أرجاؤه ونواحيه ، وبره وبحره ، وليله ونهاره ، بأخبـارها ونوادرها ومقاطيعها وأدوارها وطقاطيقها ... الا هو !

وتزاحم عليها المتنـافسون والمعجبون والمحبون ، وحدثت مؤامرات ومشاجرات وخلافات كما يحدث دائما فى دنيا الغرام والمغرمين ، الا هو !

ولمحت اللماحة ذلك الزهـد العجيب ! وعدم الاكتراث الأعجب ! فقررت أن تقتنصه ، وأن تهزمه ، وأن تجدع أنفه !

وبوسـائلها الفنيـة أخذت تتعمـد الاقتراب منه ، والتحدث اليه ، والانزواء معه بعيدا عن أعين العذال ، وما أكثرهم ! ولعل أفعل وسائلها انها استغلت «الغرور»... «الغرور» الذى هو فى سليقة وغريزة كل مخلوق ، فتظاهرت انها استخلصته ! وفضلته على الجميع ! وانها تحس سـعادة وافرة بالتعرف اليه !

وفعلا أحدثت هذه الوسيلة أثرها الحتمى، فبدأ يطاوع غروره وبطولته من باب التغلب أولا والنصر فى ذلك الميدان الغرامى الطاغى ... ولكنه كان يحب اليونانية — ايرين استافرو — حبا صادقا ... فما هـذه ؟ ما وضعها ؟ ما ترتيبها ؟ بأى تفسير يفسر انه يحب تلك اليونانيـة حبا لاشك فيه ؟ ويميل الى هـذه المطربة الممثلة الوافدة ميلا لاشك فيه ؟ عجبا ! ...

لقد كان التفسير الأول للميل السريع لهذه المطربة انها كانت تشبه تماما — فى لون البشرة وأساليب الكلام — حبيبته الأولى التى ورد ذكرها، وذكر مأساتها فى الجزء الأول، وهى الأرمنية : ثروت !

هل بعث الحب الحزين الدامى فى شخص هذه المطربة ؟ !

وهل هى قد أحبت بهذه السرعة ؟ ! والله ان أفاعيل الحب وأسبابه ومحرضاته عجيبة . والذى ارتطم بدولة الحب يعلم أنها مختلفـة الألوان، والأسباب والحيثيات والمحرضات

وتعمدت المطربة الوافدة بشكل ظاهر أن تصطحب شكرى وأن تسوقه سوقا، وتدفعه دفعا الى أن يمر معها صباحا، وظهرا، ومساء، وليلا، أمام الغزال المأسور : ايرين استافرو !

يا للنذالة ! ولكن ماذا يفعل ! .. لقد أحس بأن دافعا خفيا يدفعه نحو هذه المطربة الوافدة .. ما هو هذا الدافع الخفى ؟ .. انه لايدرى !

فى ذات صباح طلبت اليه المطربة أن يعلمها السباحة فى النيل، فقبل . وارتدت ملابس الاستحمام وجاءت اليه بالبرنس وذهبا معا الى النيل. وما كادت تخلع البرنس وتنزل معه الى الماء حتى أصيب بنوبة دهشة وذهول لم يمارسها فى حياته كلها ! ! .. ماذا ؟

يا للقدر العجيب !

لقد لمح ذلك الشىء الواحد الذى ارتسم على ذراع الفتـاة الصغيرة « بطة » منذ سـتة عشر عاما فى مصر القديمة ! ذلك التشـويه الذى سببته السمنة وخلفت آثاره فى ذراعها ! !

هل هذه المرأة هي تلك الصـغيرة ؟ ! هل ذلك التشـويه هو ذلك التشويه ؟ !

وقبض عليها بذراعيه وهو مأخوذ من هذه الصدفة : « هل أنت هي؟»

قالت : « من ؟ »

ـ هل أنت بطة ... النيل ... مصر القديمة ؟

قالت وهي مأخوذة : « وهل أنت ؟ أنت ؟ »

قال : « نعم هو أنا ، وهي أنت ! اخرجي من الماء وهيا ! »

نهاية الحب

في نهاية الحلقة السابقة خرج شـكري وصـديقته الجديدة ، المطربة الممثلة ، من الماء في رأس البر ، وقد عرف من تشويه ذراعها من هي ؟ وعرفت من هو ؟ ولعبت الذكريات لعبها فوصلت بين الحب القديم الصغير ، والحب الجديد الكبير ...

نعم : الكبير ...

عرف شكري ـ تماما ـ أي هول هو مقدم عليه . هول ! نعم هول ! كانت لها قضية زوجيـة وبنوة . وشغلت القضيتـان المحاكم الشرعية والمحاكم الأهلية المدنية والجنائية أي شـغل ! بل شغلت هـذه القضايا الخطيرة ـ ولعلها أضخم قضايا عرفتها المحاكم ـ وزارات ، وحكومات ، وسـفارات ، وأحزابا ... ومن يستطيع تدوين تاريخهـا الا هي ؟ ! من يستطيع ؟ ! وهل تعرف هي كيف تدون التـاريخ العجيب ؟ ! واذا عرفت فهل في غريزة المرأة ما يجب أن تكون عليه غريزة المغرضين ؟ !

لا أظن ...

هذا الهول الذي ارتطم به شكري ، هو ان الخصم في قضاياها كان خصما قويا ، غنيا ، حسيبا ، نسيبا ، له عصبية وحيثية . ولقـد كانت الدعوى انه أحب ... فتزوج ... فأنجب ..

وأى عجب فى هذا ؟ نحن ـ المنطقيين التقدميين ـ نقول : لا عجب ! ولكن هم ـ المتزمتون التقليديون المتحفظون المحافظون يقولون : هو العجب كل العجب !

كان الهول يتمثل فى أن شكرى وقد أحب ... وجب عليه أن يناضل.. ويناضل من ؟ تلك الأرستقراطية الفادحة ! وتلك الثروة الفادحة ! وتلك العصبية الفادحة ! وهل يستطيع ؟

سواء أكان مسلكه لائقا أو غير لائق ، فخبراء الحب لايناقشون . لقد سبح شكرى فى النيل ألف مرة . وفى البحر الأبيض المتوسط ألف مرة . فلم يغرق ، وطفا ، ووصل آمنا الى الشاطىء ... ولكنه فى هذا البحر الخضم ، بحر الحب . قد غرق ! غرق وغيبه اليم ، فلم يصل الى الشاطىء الا بعد أربعة أعوام ، محطما مهشما ، مغشيا عليه ، عاما أو بعض العام . ثم أفاق ... أفاق بعد عامين . وياله من غرق ! ويالها من افاقة !

قال فى نفسه لنفسه وقد عاد معها من رأس البر الى القاهرة ليستقبل الهول :

١ ـ أنا أعتقد أن الشاب الكريم النبيل قد تزوجها فأنجبت منه ...

٢ ـ وأنا أعتقد أن الزواج قدر . وأن نبالته ومكانته وثروته تقابل انه أحبهـا وكفى ! ولها بجانب ذلك سرها النسـوى الخفى ، وشهرتها وفنها ونعمة الله عليها ! ثم هى بنت الشعب ، وأنا شعبى ، والصدام بين الأرستقراطية والشعبية على قضية أنا مؤمن بعدالتها ...

٣ ـ ولماذا أنكر المتزمتون المحافظون ذلك الحب ، وذلك الزواج ، واحتملت مداركهم وأفهامهم حب التاريخ من اسـكندر الأكبر ... الى يوليوس قيصر ... الى نابليون بونابرت ... ومثل فى ذهنـه وهو يملى ، قضية حب هتلر ، وموسولينى ، والدوق وندسور ... الى آخـره ...

كانت تلك هى المبررات التى دفعت به لمواجهة الهول ... ولـكن ... لا أحب أن أخادع : الحب ! الحب كان هو المبرر الأول والأخير !

أنفق الطرفان على تلك القضايا الخطيرة ما لا يقل عن مائتى ألف من الجنيهات ! وشغلت بها الدولة كلها : فقهاؤها وقضاتها ووزراؤها وأحزابها وقال لها محاميها الشرعى النابغة « خ . ر » : — هذا الشاب المحامى — شكرى يحبك ! حذار حذار أن يفلت من يدك . انه قوة هائلة لك فى نضالك . لا بقانونه ، ولا بفقهه ، ولا بفنه ، ولا بفصاحته . وانما بقلبه وحماسته

وضاعف حماسة شكرى ان أخاه الأكبر قال له ذات يوم وهو ثائر : « انك وصمة ! ان الطبقة الراقية تزدريك ولن تسمح بدخولك فى مجتمعاتها ! » وقال له ابن عمه « ع . ا » : « انك مصدر متاعب لنا جميعا ! »

وقال له صديقه « ا.ن » : « أنت تدق مسمارا فى نعش سمعتك! »



أحب أن أقول — أنا المؤلف لهذه القصة — ان ذلك كان خطأ كبيرا ، وان كان نصحا صادقا . اغترف من تجاربى هذه العظة :

— لا تؤنبوا الغارق فى حبه وهو فى اليم . انكم تضاعفون جبه وتزيدونه توثقا وتوطيدا . وتلك النصائح التى تفد فى غير أوانها تلسع الحرق أكثر من لسعة النار .. فتزيده تأججا واستعارا ! دعوه حتى يفيق ... نعم يفيق ... وعند ذلك تجدى النصائح !

وناقشوه فى جمالها وفى فتنتها ، وقالوا عنها ما قالوا .. واستشهدوا بأقوال من طعنوا فيها وذموا .. وذلك التحريض أفشل من التأنيب والتقريع. ان المحب فى غمرة حبه ترى عينه ما لا يراه الناس ، وتسمع أذنه ما لا تسمعه أذان الناس ، لأن الذى يرى ويسمع ليس العين ولا الأذن وانما : القلب !

عبثا حاولوا أن يردوه ، بل الغالب انهم أشعلوه !

واستمر الهول أربع سنوات متواليات ذاق فيها المر والحنظل ، لأنه

جاهد جهاد الأبطال المغامرين المجازفين وقد ركب رأسه وأبى الا أن يصمد ! انه يذكر ساعة تحرير هذه السطور كيف أطلقوا عليه الرصاص فى ناحية منعزلة من حى شبرا وقد ذهب للحصول على مستندات تجدى فى قضاياها . ولكن الله سلم ! وكيف أعدت حاشية الخصم على حسابها وعلى مسئوليتها ليلة ساهرة فى عوامة ، وقد دعى اليها شهود القضية فى الصباح . وكان التدبير أن تجرى الخمر أنهارا وبحارا ، وأن يحرق الحشيش علانية أو خفية أو جهارا . حتى اذا لمح البوليس المترصد حول النيل « كبس » السهرة وفتح محضره وأثبت فيه أسماء السكارى والحشاشين ، من أول شكرى محاميها الى آخر شهود الاثبات فى أخطر قضايا عرفتها المحاكم المصرية . ومثل هذا المحضر يقضى قضاء مبرما على شهودها وبالتالى على قضاياها !

أسائل نفسى ، هل آن الأوان لذكر ماهو أخطر من هذا وأدهى وأمر ؟



لا ! لم يئن الأوان ! وانما نذكر واقعة اهتزت لها الدوائر الحكومية ، والحزبية ، والسياسية الأجنبية .. وتلك الواقعة تتلخص فى أن أفاقة من الأفاقات الدوليات وفدت الى القاهرة فى أحد الأعوام ، وفى القطار الذاهب الى الأقصر تعرفت الى صديقته أثناء الطريق ، وفهمت المرأة من المرأة ان تلك الأجنبية هى صديقة أحد الزعماء الكبار ، وانها ذاهبة اليه ولما كانت صديقة شكرى هذه لماحة نهازة للفرص ... ولما كانت تتوقع أن يتربع ذلك الزعيم على الحكم قريبا فتحتاج الى حكومته اذ ذاك ، أغدقت على تلك الأجنبية جواهرها وملابسها الفاخرة ، وهيأتها وزينتها ودعتها الى ضيافتها بعد العودة بالسلامة من رحلتها . وقد صدقت كل مزاعمها ودعاواها ...

واستغلت الأجنبية الضيافة البريئة التى حظيت بها كصحفية فى الأقصر، ثم عادت الى القاهرة ، ونزلت فى ضيافة صديقة شكرى . وما كادت تمضى أيام حتى اهتزت عاصمة الدولة بمزاعم السيدة الأجنبية ، وأخذت الأحزاب

السياسية تحوم وتلف وتدور حول المطربة الممثلة الفنانة صديقة شكرى لاستغلال بعض التوافه ، مثل فواتير الفندق ، وفواتير الطلبات ، وكلها لا تقدم ولا تؤخر ، ولكنها حين تنشر فى منشورات أو مجلات وتخرجها ريشة الصحفى البـارع فى اطار صحفى مثير ، تحدث بلا شك ضجيجها وعجيجها !

تحيرت المطربة صاحبة القضايا الخطيرة بين الأحزاب المتلهفة والمتخوفة وفى بيتها تلك الوثائق التـافهة ، وقد احتفظت بها وديعة فى صـندوق حرصت عليه كل الحرص ، وسألت صديقها ومحاميها ، شكرى فقال لها :

ــ عينك فى الوزارة القائمة ... وعينك الأخرى فى الوزارة القادمة ... وأنت تترنحين بين حكم تظنينه تارة قائمـا ودائما . وبين حكم تتخيلينه تارة زاحفا وقادما ! والذى فى عينيك هذه وتلك هو قضاياك ! ولـكن أشرف من هذا وذاك وأنبـل أن لاتكونى وسيلة للاسـتغلال ! وأن لاتكونى آلة لما بين الأحزاب من نزال ونضال ! كلمة واحدة : اذا تسللت أية ورقة ، فعلاقتنا الى الأبد مقطوعة .. وقد كان ...



غير أن رجلا آخر أحب الأجنبية الضيفة واسـتطاع أن يلتقط بعض المستندات السخيفة ، فنشرت ، ولكنها لم تحدث الا رجة خفيفة ...

ولكن .. تصور المسئولون عن مستقبل الحكم أن فى الصندوق المودع عند المطربة ما فيه ! وفى ذلك الوقت رأت السـلطات ممثـلة فى الملك فؤاد . والسلطة الأخرى بجحافلها وجندها أن ذلك الزعيم الذى نسبت اليه تلك الترهات والتوافه لابد أن يحكم ! ولـكن الصنـدوق ... الصندوق ؟ !

وكان تفاديه بسيطا : ذهب رسل باشا حكمدار العاصمة الى الشـقة التى احتوت المطربة ــ والضيفة الأجنبية ــ والصـندوق وقال كلمة واحدة . ثم أشار من طرف خفى الى مسدسـه فكان التسليم والتسلم والاستسلام !

وفى اليوم التالى كانت الصحفية الرومانية تودع مصر كلها فى ميناء الاسكندرية على ظهر باخرة الى حيث لا تعود ...

قصة حبي .. أنا ورامى

حارت البرية فيه — أى فى الحب... — وفى فلسفته ! هل له فلسفة ؟ ! هل له قواعد وأصول وسوابق ومراجع ؟ ! لا لا ... لا ... ان كل حب قائم بذاته ... وكل حب له أدواره وأطواره التى لا تتفق ولا تتسق مع أدوار وأطوار أى حب آخر ! الحب لغز ! طلسم ! سر !

فلا تسألوا المحبين لماذا أحبوا ... ولا تسألوا المدلهين لماذا تدلهوا ... ولا تسألوا الغرقى فى بحاره لماذا غرقوا ... ولاتسألوا المنكوبين به لماذا نكبوا ...

قدر ! قدر ! وشيء مكتوب على الجبين !

هذا الضاحك الباكى ، الصحفى اللامع ، والنائب اللامع ، والمحامى اللامع ، وخبير الحب اللامع : لماذا خبا ضوؤه وانطفأ نور ادراكه ، فعاش فى الظلام ... ظلام الهيام ؟ !

لا جواب عندى ... ولا عنده

كانوا يسألونه : « أجمالها الفذ هو الذى طواك ؟ »

فيجيب : « لا . ليست جميلة ... »

كانوا يسألونه : « أثقافتها هى التى استولت عليك ؟ »

فيجيب : « لا ... »

كانوا يسألونه : « أصوتها أو تمثيلها هو الذى رماك ودهاك ؟ »
فيجيب : « لا . ما عنى مرة بسماعها ، أو مشاهدتها ؟ »

اذن : « أيها « الطور » : ماذا ؟ » فكان يجيب : « سر ! هو ذلك السر الخفى الذى دها رجل المال والأعمال الخطير — وذلك الوزير الخطير بل أخطر من وزير خطير — وذلك السفير — بل ذلك الذى ولى رياسة

جمهورية احدى الدول الشرقية ... فضلا عن رتل الشباب الفتى الشهى الثرى : وقع كل هؤلاء وأولئك كما وقع ! وخضعوا لحبها كما خضع ؟ وصرعتهم كما صرع ! »

سر !.. سر !.. سر !..

كانت جاهلة ، ولكنها كانت أذكى الذكيات ... وأعلم المتعلمات...وألمح اللماحات

كانت متضلعة فى فن الأدب بغير أدب ! وفى فن القانون والفقه بغير قانون ولا فقه ! وفى دنيا السياسة بغير سياسة ! وكانت تفهم الانجليزية بغير انجليزية ! والفرنسية بغير فرنسية !

سر !.. سر !.. سر !..

وأيقن محبوه وأصدقاؤه والمشفقون عليه بأنه مسحور ! أى والله ... فتبرعوا بالأحجبة من المشايخ عبد الحفيظ والمدبولى وأبو جاد ! وتبرعوا بالتعاويذ والبخور ... وفكر أحدهم فى الزار !

أربع سنوات طوال من تاريخ حياته ، كانت كلها عناء عنيفا . أفضل ما فيها انه ما قصر مرة فى واجبه كمحام ، أو كنائب ، أو كصحفى !

كان همه — جله — منصبا على خدمة قضاياها الخطيرة التى هزت أركان الدولة طوال تلك السنين حتى آن الأوان ...

كسبت قضاياها !

كسبت قضاياها كلها . بأصولها وفروعها ، فأقر الشرع — نهائيا — الزواج والبنوة ! وتدفقت الأموال المحكوم بها لها ... وهنا تفد المأساة !

بدأ يلمح انها تتغير يوما بعد يوم — وأسبوعا بعد أسبوع — وشهرا بعد شهر !

الكلام اللذيذ لم يصبح الكلام اللذيذ ! المواعيد الدقيقة لم تصبح المواعيد الدقيقة ! الخوف الشديد منه ، والاستسلام الأشد اليه لم يكن الخوف الشديد ولا الاستسلام الأشد

أيدرى المحبون سر ذلك التطور وسر ذلك الانقلاب ؟

لا .. سر ...

كانت تحبه ــ بلا شك ــ حبا جما ، وصان ذلك الحب وقوّاه ، ووطده وحماه . انها كانت فى حاجة عظمى اليه ! كان مستقبلها ــ كله ــ فى يده ! وأسرارها ووثائقها ومستنداتها فى يده !

كانت تدرك جيدا أنها كما تحبه فهى كذلك تحتاج اليه !

ومزيج الحب والحاجة ، هو أعلى مراتب الحب عند النســاء اللواتى يقدرن حاضرهن ومستقبلهن .. ما حاجتها ــ فى ذلك الوضــع ــ الى رجل آخر ، وهذا الرجل الذى فى يدها هو مثلها الأعلى ... هو المنقذ هو المكافح بأعصابه وشرايينه ودمه ومواهبــه فى ســبيل خروجها من المعمعة منتصرة فائزة بزيجتها ، وبنوتها ومكانتها الأدبية ؟ !

كان ذلك المحب محبا عظيما ونبيلا يرنوُ اليه قلب كل امرأة بلا شك...

ولكن ...

ولكن : ألم تكن تلك الفترة الطويلة أسرا ــ وسجنا ــ واعتقالا؟ !

الحرية ... الحرية أو : لذة الانتقال من السجن ــ والأسر ــ والمعتقل ! أو : الافراج !

***

كان طبيعيا ، وقد ربحت قضاياها ، أن تحس الحاجة الملحة الى الحرية وفى ميــادين الحــرية المفتحــة رأت ... وســمعت ... والتقت ... وشربت ... ورقصت ... وقامرت ... وراهنت على سباق الخيل فلم تكن هى التى كانت ! ولا كان هو الذى كان !

وفى ذات ليلة والقمر يرسل أشعته الأخاذة على شرفتها ، وفى جلسة عاطفية مثيرة ، لمح أنها تبكى !

ــ تبكين ؟ (لا ترد ...)

ــ أنت تبكين ؟ (لا ترد ...)

وبدا له أنها مخلصة فى بكائها ... فأخذ يسألها ويستجوبها عن سبب البكاء وكيف وفد البكاء ، وكان يجب أن تحل محله السعادة ، وأن يحل محله الهناء

أبعد ربح القضايا على طول الخط، والقفز الى أعلى فى نظرالشرع ، ونظر المجتمع ، يفد البكاء !

لاينسى شكرى تلك اللحظة العجيبة الرهيبة : أحس كأن ضميرها يؤنبها ويعذبها على شىء أتته أو ارتكبته ...

وألح عليها أن تتكلم ، فاذا بها تندفع نحوه لا مقبلة وجنتيه ولاشفتيه وانما قدميه ويديه !

عجبا !

أسلوب جديد فى التقبيل وفى العناق ! متى جاز للأرجل والأقدام أن تحل محل الشفاه والوجنات ! !

لا لا ! هناك شىء خطير ! هنـاك تحول ! هنـاك ضمير يعترك مع القلب !

***

وأخيرا نبست بهذه الجملة التى لاينساها الضاحك الباكى طول حياته قالت والدموع تنهمر من عينيها مدرارا :

ــ أنت أعز مخلوق عرفته ، وسأعرفه ، وسوف أعرفه فى حياتى !

وانتهت المقابلة عند هذه الجملة ، وأبرز ما فيها قولها : انه أعز مخلوق..

وهبط درجات السلم متخبطا بين درجة ودرجة ، حتى وصل الى باب العمارة ، فهام على وجهه فى الطريق الطويل ، من الزمالك حتى شـارع الفلكى ، وهو يردد هذا اللفظ : أعز ... أعز ... أعز !

ونام ليلة جمعت هول السنوات الأربع كلها ، ثم أصبح الصباح فأخذ يسأل خبراء الحب وخبيراته عن لفظة « أعز » ما معناها وما مغزاها ؟

قال الخبراء ، وقالت الخبيرات : أن « المعزة » غير « الحب » ... وغير الغرام !

قالوا : « المعزة » تقدير ! عرفان بالجميل ! فضل ! « المعزة » من ملحقات وتوابع العقل لا القلب !

هذا هو تفسير « المعزة » فى قاموس الخبراء والخبيرات بعلم الحب ! بل ذلك هو الاصطلاح المعروف فى دنيا العشاق ...

وعاد صاحبنا بعد هــذه المجموعة الفنية من المعلومات وقد أيقن بأن وراء الأكمة ما وراءها ...

المحروم !

وكان فى شلته ، أو فى بطانته ، صديق لها وله . اكتشف بعد ذلك انه كان يحب هو الآخر حبا مبرحا رحمه الله . كان يلتهب ويشتعل ويحترق وهو يكتم ناره ولهيبه لأنه كان « يائسا » ... كان موقنا بأنه لن يصل الى قلبها ، فكان يقنع بالنظرة ... وبالجلسة وبالسهرة ... وكان خادما خدوما مثل صاحبنا ... ولكنه بقدر ما اكتوى وتعذب بقدر ما كان خبيرا لماحا يقظا رقيبا وحسيبا ... وبقدر ما اكتوى وتعذب بقدر ما حقد وتاقت نفسه للانتقام ...

اكتشف ــ لحسابه ــ أنها تحب شابا آخر قابلته وامتزجت به فى دنيا حريتهــا بعــد السجن والأسر والاعتقــال ! والقلب الذى عانى الأسر والاعتقال والسجن يتوق بطبعه الى صنف آخر من الرجال ، لا يعيد على مسمعها تفاصيل وقائع القضايا وحيثياتها وأحكامها واستئنافها واشكالاتها تحتاج الى غير الجد والى غير الكفاح .. وانما تتوق من كثرة ما عانت وجاهدت الى ترفيه ، وهزل ، ووسط آخر غير ذلك الوســط الرهيب المخيف

ذلك الصديق العاشق المكبوت المحروم أخــذه من يده فى ليلة من الليالى وأخبره بما كمن وراء لفظ « المعزة » فتأكد ، وسمع بأذنه ، وتأكد أن القصة قد انتهت ! .. وان الحب قد زال !

كانت القطيعة حاسمة من ناحية محاولات ضميرها المعذب . وقد تعمد أن يختفى عنها ويتفاداها ...

وفى ليلة من الليالى اعتزل الناس ــ كما تعود أن يفعل بعد نكبته ــ فاختار مائدة فى كازينو « باستورورس » فى حمام ستانلى بالاسكندرية ، فاصطدم بصديقه وزميله الشاعر العبقرى ، والمحب العبقرى أحمد رامى ، فجلس معه ، وأخذ الصديقان يرتشفان السم الذى زعموا أنه خمر منعش مبدد للأوجاع ...

قال رامى : « ما حالة حبك ؟ » قال له : « انتهى بفشل ! وانتهى بمأساة ! »

قال رامى : « ويحك ! انت أحسن منى حالا ، لأن حبى ما بدأ حتى انتهى ! وما نجح حتى فشل ! وما كانت طليعته مواساة حتى تكون نهايته مأساة ... »

قال الضاحك الباكى لصديقه رامى : « ولكن حبى كان جامحا . وكان فادحا ، فكيف أنساه ؟ وكيف أتناساه ؟ » قال رامى : « أنت الذى تشكو وتئن . ان حبك قد لا تراه وقد لا تسمعه ، ولكن حبى أنا أراه مرسوما مصورا ملصقا بكل حائط وفى كل شارع وفى كل ميدان ! »

حبى أنا أسمعه فى كل لحظة فى الليل وفى النهار منطلقا أخاذا مشيرا يتبعنى ويطاردنى ، فقطيعتك غير قطيعتى ، ومأساتك غير مأساتى ، ولون حبك غير لون حبى ! ومتاعك الذى ولى وراح غير متاعى الذى ما ولى ولا راح ولكنه ولى وراح ...

قال له الضاحك الباكى : « وبعد ياصاحبى ؟ »

قال رامى : « لا بعد ولا قبل . انت كاتب وأنا شاعر : فلتقنع بأن تكتب أنت قصة حبك ... وأن أنظم ــ أنا ــ قصة حبى ! »

وهكذا أسدلت الستارة ...

الزلزال

ما الحياة ؟

أليست خليطا من الحب ، والسياسة ، والجرى وراء الرزق ولقمة العيش تحت اسم الوظيفة ، أو المهنة أو الحرفة ؟

أليست مزيجا من العموميات والخصوصيات تتنقل بك من أزمة وطنية ... الى أزمة شخصية ... الي أزمة اجتماعية ... الى أزمة مالية ... الى أزمة قلبية ... الى سعادة حينا ... الى تعاسة أحيانا ... الى صحة ... الى مرض ... الى آخره ؟

فنحن اذا رحلنا بالقارىء رحلة مختلفة الألوان ، متباينة الأزياء ، متناقضة الضحكات والأنات ، متنافرة الميادين والبيئات والشخصيات ، متلاطمة المحاسن والمساوىء ... نحن اذا رحلنا بالقارىء هذه الرحلة فى جبال وهضاب وأودية وبساتين وعواصف ونسيم هذه القصة ، فانما نرصد رسالتها وهى سرد حياة مخلوق ... هو : الضاحك الباكى ...

ولقد انتهينا من قصة القلب وقصة الحب ، فلننتقل بك الى قصة الوطن وقصة الدستور وقصة البرلمان ، وهل لهذه القصص نهاية ؟ !

اننا نوليها بعض العناية والافاضة ، لأننا على أبواب نظام حكم جديد، ودستور جديد ، وبرلمان جديد . وهنا يجد الحاكم المسئول ، والمشرع ، والمقنن ، والمقترح ، عظات بالغات ، وسوابق فادحات عجيبات وعجائب ومدهشات ، يغترف منها ما شاء ، أو يتفاداها اذا شاء

ازمات .. وازمات !

تجرى الحوادث والأحداث بسرعة ضربت الرقم القياسى المألوف المعروف . وتتلاحق الأزمات واحدة بعد الأخرى . وقد ذكرنا بعضها ، ولكنها تمتد وتحتد وتشتد فى قوانين محاكمة الوزراء ، والعمد والمظاهرات

ويستقيل عدلى يكن باشا فى آخر يوم من أيام سنة ١٩٢٩ ، تماما فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٩ بعد اجراء الانتخابات ...

ويفد النحاس فى أول يناير سنة ١٩٣٠ بين الضجيج والعجيج ، والطبل والزمر ، والمظاهرات والحفلات والهتافات ، ويؤلف وزارته الوفـدية ، ويعين عدلى باشا رئيسا للشيوخ ، وينتخب ويصا واصف رئيسا لمجلس النواب

وتراءى للمخدوعين والسذج السياسيين أن الوفد قد استقر فى الحكم، وأن الدنيا قد دانت له : ملكا وشعبا ، واحتلالا !

ولكنه أسرع الخطى فتفاوض ، وفشلت المفاوضة . ولم يمنع ذلك الفشل من أن يستقبله الشعب فى مايو سنة ١٩٣٠ استقبال الفاتحين ...

خمسة شهور فقط ... بعد اكليل النصر والظفر ، يستقيل النحاس ...

ثم يفد الزلزال ...

كالعادة المتبعة ـ أو كالتقليعة المصرية المعروفة ـ حل مجلس النواب المسكين فى يونية من نفس العام ، وأجل البرلمان شهرا ، ولم يستطع جيش النواب بقيادة المرحوم ويصا واصف الا أن يحطم باب مجلس النواب ! ولكنه ما استطاع أن يحطم بكتائب الشعب أكثر من ذلك ! فلا الملك أصابه رذاذ ـ ولا الاحتلال أصابه رشاش ـ ولا رئيس الحكم الجديد صدقى باشا أصابته لمسة !

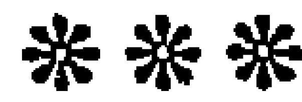
وعقد مؤتمر وطنى فى النادى السعدى قرر عدم التعاون مع الحكومة الصدقية ، وحدثت مظاهرات دامية فى عواصم الأقاليم ، سقطت فيها الضحايا والصرعى من قتلى وجرحى فى المنصورة وبورسعيد ، واحتفل الشعب المسكين بتشييع جنازات المساكين ... وانعقد مؤتمر ثان فى النادى السعدى وأعد عريضة رفعها للملك يطلب فيها دعوة البرلمان لانعقاد غير عادى ، فرفض الملك أو رفض صدقى باشا

وفى أغسطس من العام نفسه ـ أى سنة ١٩٣٠ حاول أحد خريجى كلية غردون بالسودان الاعتداء على صدقى باشا ففشل الاعتداء ـ وفى

أكتوبر أصدر صدقى باشا قرارا بتأليف لجنة لوضع دستور جديد وقانون انتخاب جديد ، وعرض المشروعان ، فرفضتهما جميع الأحزاب ما عدا حزب الاتحاد . واستعر الخلاف الشديد بين صدقى باشا وأصدقائه وأحبائه من الدستوريين !

وهل العام الجديد ــ عام ١٩٣١ ــ واتحد الوفد مع الأحرار الدستوريين لمقاومة النظام الجديد . ولم يأبه صدقى باشا بذلك كله ، فقرر تحديد شهر مايو سنة ١٩٣١ لاجراء الانتخابات

وحدث حادث بنى سويف الفاجع فاعتدى على أقطاب وزعماء حزبى الوفد والأحرار الدستوريين . وتبع ذلك فى شهر مايو طوافهما بطنطا ودمنهور ، وقتل وكيل حكمدار القليوبية فى ميت غمر ، واشتعلت النار فى عربات الترام والسكك الحديد ، وقامت المظاهرات فى جميع أنحاء القطر ، ولكن الانتخابات جرت رغم ذلك كله ، وانتخب وعين البرلمان الجديد وانعقد فى ٢٠ يونية !



وتفجرت قنبلة وأخرى فى وزارة الحقانية ، وأخرى فى دار علام باشا وكيل مجلس النواب ، وهكذا عاشت البلد فى قلاقل واضطرابات فى هذه المرحلة من مراحل نظام الحكم الجديد ...

وجاء عام ١٩٣٢ فحوصر بيت الأمة فى مستهله ، وحدث إنقسام فى صفوف الوفد بسبب البحث فى اشتراك الوفد فى وزارة قومية . وفى مايو القيت أثناء زيارة صدقى باشا قنبلة طما المشهورة ! كل ذلك والبرلمان الشاذ ! والدستور الشاذ ! ينعمان بالاستمرار والاستقرار . وينتهى عام ١٩٣٣ والحالة فى الميدانين الشرقى والغربى هادئة

ولكن : من كان فريسة النظام الجديد ، والدستور الجديد ، والبرلمان الجديد ؟

سبحانك ربى : كانت الفريسة هى خالقة هذا النظام ، وهذا الدستور ، وهذا البرلمان ! أى بعبارة أخرى هو : صدقى باشا نفسه !

ومن الذى لطم وصرع وأسقط ؟ ...

سبحانك ربى : فى ابريل سنة ١٩٣٣ ورد تلغراف من لنـدن يتضمن تصريحا لوزير الخارجية البريطانية يعلن فيه أن بريطانيا لا تجرى مباحثات أو مفاوضات الا مع حكومة قومية !

وسافر صدقى باشا فى مايو للاستشفاء عقب ذلك التصريح ، ولما عاد فى سبتمبر سنة ١٩٣٣ استقال ، وعين عبدالفتاح يحيى باشا رئيسا للحكومة ، وبدأت الاتهامات توجه لخالق النظـام الجديد ، والدستور الجـديد ، والبرلمان الجديد

وسارت سنة ١٩٣٤ هادئة ، ومن أطرف ما يذكر أن التحقيق دار حول الكورنيش فى مستهل ذلك العام. والكورنيش الآن هو تحفة الاسكندرية ومتعتها وأعجوبتها الخالدة !

***

واحتفل بزفاف مصطفى النحاس فى يونية سنة ١٩٣٥ — وعين على ماهر رئيسا للديوان الملكى ، ودارت محادثات بين « نسيم باشـا » والمندوب السامى ونسيم باشا رئيس الحكومة ، مع على ماهر رئيس الديوان ، مع مصطفى النحاس رئيس الوفد ، وقد كونوا فى ذلك الظرف مثلثا متحالفا بعد أن أعاد نسيم باشا الأوضاع الدستورية القديمة ...

وفى مارس سنة ١٩٣٦ صدر مرسوم بالدعوة للانتخابات العامة . وفى مايو سنة ١٩٣٦ أجريت الانتخابات ونجح النحاس نجاحا باهرا وافتتح البرلمان فى هذا الشهر ...

وانتهى : الزلزال !

ولكن ...

هل خبا نجم صدقى باشا ؟ وهل انطفأت شعلته بعد ذلك ؟ بعد ذلك فى مدى السنين الطويلة القادمة فى تاريخ هذا البلد السياسى ؟

لا ...

بكفايته ، وعبقريته ، وأساليبه السياسية العملية الايجابية ، لمع صدقى دائما وسطع ! وظل — وحده — حزبا قائما بذاته ، يناضل ويكافح ، ويصرع ، ويصرع ، ويظفر باعجاب الجماهير فى أكثر من موقف ، حتى توفاه الله فأكرمه ملايين المقدرين ...

ولعل نظرياته ونظراته ، فى الدستور والبرلمان والسياسة الخارجية ، تلتقى مع نظريات ونظرات الكثيرين ...

ولا شك أن القرن العشرين قد سجل اسمه فى الداخل والخارج — بين أسماء الأفذاذ ...

أين كان الضاحك الباكى .. وسط الزلزال ؟ !

أين كان صاحبنا من سنة ١٩٣٠ الى سنة ١٩٣٥ ؟ لم يكن مغمورا بقصة حبه فقط . فقد لاحظ القراء أنه خلاط مزاج بين الواجب الى أقصى مداه . وبين الحب الى أقصى مداه . فلم يلتهم هذا من ذاك . ولم يلتهم ذاك من هذا ... ولكننا لم نسمع عنه شيئا فى دنيا النيابة من سنة ١٩٢٩ الى سنة ١٩٣٥ فأين كان ؟ !

لم يكن عاطلا ، ولا خاملا ، ولكنه كما ضاعف نشاطه فى دنيا الحب وخاب ... ضاعف نشاطه فى دنيا العمل ، ولمع !

١ — الصحافة ...

ولى رسميا رياسة تحرير « مجلة مصورة » قرأ القراء كثيرا عن علاقته بها من سنة ١٩٢٦ . وارتقى المحرر الى منصب رئيس تحرير ...

ورياسة التحرير عمرت عمرا طويلا ... طويلا ... فهل تكفى هذه الصفحات ، وتفى ، بذكر شئون رياسة التحرير ، وشجونها ؟

لا لا ! أبدا !

صاحبة الجلالة الصحافة تستحق كتابا مستقلا بذاته ، اسمه « أربعون عاما فى خدمة الصحافة » ... وسيقرأ القراء — ان شاء الله — فى ذلك الكتاب الموعود أعجب وأطرب ما تعرض له فى العهد المصرى الحديث أى فى النصف الأول من القرن العشرين ...

والكتاب الصحفى الموعود يحتاج اعدادا ضخما لأن كل ما فيه سيكون ضخما : وأضخم ما فيه التحقيقات ـ والمحاكمات ـ والجنايات العشر التى كادت تغيب الأستاذ شكرى فى غياهب السجون

ثم سيجد الصحفى الناشىء فى ذلك الكتاب نارا ، ونورا ! : نار الصحافة وسعيرها ولهيبها ، ونور الصحافة وضوءها وبهاءها ومجدها وفخرها ... فالى اللقاء ...

٢ ـ اضراب

وأضرب صاحبنا عن الانتخابات العامة فى سنة ١٩٢٩ بعد خلاف فى الرأى عنيف بين أعضاء مجلس ادارة حزبه . ولما وفد صدقى باشا بنظام حكمه الجديد ـ ودستوره الجديد ـ وقانون انتخابه الجديد ، اشتد اللجاج فى دوائر الحزب الوطنى ، وحدث ما يشبه الانقسام ، فقرر هو ونفر من زملائه الاضراب عن انتخابات صدقى باشا وعن برلمانه

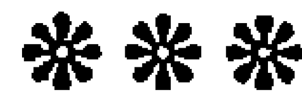
٣ ـ الاذاعة

وفد لون جديد على حياة الضاحك الباكى . فقد أنشئت محطة الاذاعة الحكومية فى سنة ١٩٣٤ فكان أول من دعى للاذاعة فيها هم : المرحوم الأديب الكبير الشيخ عبد العزيز البشرى ـ والمرحوم الطبيب الكبير محجوب ثابت ـ وصاحب هذه القصة . وقد ألقى صاحبنا من ذلك التاريخ حتى اليوم ما لا يقل عن أربعمائة محاضرة ذاعت فى مصر والبلاد العربية كلها ، وهى تصل اليوم الى آذان المستمعين فى جميع أنحاء العالم

والاذاعة شىء خطير، والمذيع الناجح يؤلف حوله أسرة محبة ، صديقة ، متلهفة ، يعد أفرادها بالملايين ، ولا يظن مؤلف هذه القصة أن خطيبا على منبر ... أو صحفيا فى جريدة أو مجلة ، يحرز من النجاح والشعبية ما يحرزه مذيع ناجح ...

وتسألنى : ما سر النجاح ؟

فأقول لك : انه ــ من ناحيــة ــ يمت بصلة الى نجاحه فيمــا عدا الاذاعة . ثم هناك سر آخر لعله السبب الأول فيما وصــل اليه فى دنيــا الاذاعة والمذيعين ذلك هو انه كان يخاطب المستمعين من جميــع البيئات والأوســاط من متعلمين وغير متعلمين ، ومن مثقفين وغير مثقفين ، ومن شيوخ وكهول وشباب ، وأطفال بلغتهم التى يفهمونها ! أى باللغة العامية ، لا باللغة العربية الفصحى ! وقد قامت فى وجهه ضجة أى ضجة ، وحمل عليه أقطاب وأنصار الاذاعة باللغة العربية الفصحى ، بزعامة الأستاذ المربى الكبير عمر الاسكندرى ، وبعض العلماء الأعلام ، ولكن لم تجد الحملة نفعا ، ولم تؤثر على أسلوبه وطريقته ولا تزال المعركة محتدمة حتى اليوم وقد عمرت عشرين عاما وحاول المذيع الكبير الشــيخ شلتوت أن يلين رأسه فلم يلن !



ولا تظنه يحتاج الى دفاع طويل فى اصراره على الاذاعة باللغة العامية ، فهى لغة الأغلبية الساحقة ان كان القصد أن تنتفع الأغلبية الساحقة

ثم لهذه اللغة طلاوتها وبلاغتها ، وأمثلتها الرائعة التى تصيب الصميم ! وماذا يضير العربية الفصحى اذا شذ عن التحدث بها مذيع واحــد من عشرات أو مئات المذيعين ؟

وحدثت فى العهود المــاضية أزمات سياسية بسبب بعض اذاعاته ! بل قطعت الاذاعة وهو يتحدث أكثر من مرة !

ولعل أفخر ما يفتخر به هو انه كان أول مذيع بلغة بلاده من برلين فى سنة ١٩٣٦ وأول من ظفر بعدالية هتلر للمذيعين العالميين كما سيأتى تفصيله فى حينه

٤ ــ حب جديد

وكيف يمكن أن تحتشد هــذه المهن والحرف كلها من محــاماة ... الى صحافة ... الى اذاعة ... الى تأليف ولا تفد عليها مهنة أخرى هى مهنة : الحب ؟ !

وقد جرب حظه فى حب السمراوات ... فانتحــرت الأولى ، وقضت الثانية نحبها ، وتنكرت الثالثة . فوجب عليه أن يجرب حظــه مع بيضاء زرقاء العينين ذهبية الشعر ، روسية أو تركية أو شركسية الأصل وفدت الى مصر طفلة فى ظروف عجيبة ، ثم نمت وترعرعت ، فاكتسح جمالها كل جمال ، ودهمت فتنتها كل فتنــة ، واكتسحت كبرياؤها كل كبرياء حتى وصفوها بأنها ذات الدم الأزرق الملكى !

قد تجلت على المسرح فصعدت بفنها ، وخلالها ، وخفة دمها ، ولطف حسها وبراعة نكتتها ، الى القمة والذروة وتزعمت مملكة الممثلات زمنا طويلا ... ست سنوات أو أكثر أحس فيها الضاحك الباكى حب المرأة الملهمة المفيدة ، فقــد كان يغترف من آرائها وابتكاراتها ، وتخريجها ، ما يغترف فيما يكتب ، وفيما يخطب ، وفيما يذيع !

تستحق هذه السيدة الأصيلة الكريمة افاضة أكثر من هذه ، ستفد فى حينها هى أيضا ...

٥ ـ الضاحك الباكى الاول !

حين أخــذ يملى على أحداث وحوادث الضاحك الباكى الأول ، وحين أتممناه ، عرضناه على أحد كبار الصحفيين الناشرين ، فعرض مبلغا ثمنا له هو تسعون جنيها ! وتحمس أحد أقاربه فعرض مائة وخمســين جنيها ! وكلاهما كان معذورا ، لأن البلد فى ذلك الوقت أى فى سنة ١٩٣٣ لم تكن مقبلة على القراءة مثل اقبال اليوم ! وكان فى أشد الحاجة الى المال ، وأوشك أن يقبل العرض الأخير ولكن قريبه تردد وعدل ! فأصر على أن يصدره لحسابه الخاص وأن يطبعه على نفقته ...

وفى يوم الاثنين ١٥ مايو سنة ١٩٣٣ ظهرت فى جريدة الأهرام الغراء ، فقرة تعلن القراء بأن كتاب الضاحك الباكى سيوزع فى اليوم التالى الساعة الحادية عشرة صباحا ... بالضبط !

وقد كان ...

ونفدت سبعة آلاف نسخة فى ثلاثة أسابيع فقط !

وأعيد طبع القصة مرة ، وثانية ، وثالثة ، ورابعة ، وربح من هذه الطبعات ما لا يقل عن ألفين من الجنيهات بدل التسعين والمائة والخمسين !..

رحلة إلى ...

لا الى الجحيم .. ! وانما الى الجنة .. !

والجنة « دنيوية » ، وليست « أخروية » ...

وأنا أدون ــ تدوينا خفيفا ــ رحلة هذا البوهيمى فى وقت الصيف. على أن ما ورد فيها ينفع المصطافين والراحلين والسائحين ...

وقد فضلت أن أقتطف بعض مذكراتى لأوجد القراء فى جوه اذ ذاك . وهى ، على سذاجتها وعدم تصنعها ، تصف الرحلة ببساطة الذين يكتبون لأنفسهم لا للناس :

الجمعة ١٤ يولية سنة ١٩٣٣ :

قمت من القاهرة فى قطار الساعة السابعة الا ربع ...

لم يودعنى الا « أخى ش ... » بناء على طلبى ...

وصلت الاسكندرية ونسيت الشنطة الصغيرة فى المحطة . وعدت الى المحطة للبحث عنها بعد مدة . فوجدتها لدى مكتب الضابط القضائى ووجدت عسكريين يجردان ما فيها . وقد حررا كشفا طويلا بالمحتويات. ويا للخجل : كان ضمن الكشف الرسمى ... ما لا يصح ذكره ... فخجلت ..!

الباخرة « رومانيا » . وجدت ضمن الركاب فضيلة المرجل العظيم الشيخ أبو الوفا الشرقاوى ، وهارون سليم أبو سحلى باشا

***

الشيخ أبو الوفا رجل عصرى ظريف يناقش كل شىء ويسمع كل شىء . ليس فيه جمود العلماء ولا زعماء الدين

السبت ١٥ يولية سنة ١٩٣٣ :

الباخرة تسير بسرعة والبحر جميل . كل شيء عادى

الأحد ١٦ يولية سنة ١٩٣٣ :

نزلت فى « بيريه » أنا والشيخ أبو الوفا وابنه وخادمه ، وهارون باشا ، وذهبنا « لأثينا » ، ومررنا على الـ (Acropole) ، وزرنا الانتكخانة وعدنا للمركب ظهرا ...

الأثنين ١٧ يولية سنة ١٩٣٣ :

منظر الدردنيل بديع رائع . تراءى لنا الساعة السادسة صباحا ، كتبت عنه مقالا وأرسلته للأهرام . وصلنا استامبول فاستقبلنى أخواى... دعيت لسهرة مع عبد الملك بك حمزة ، شمس الدين بك عارف ومدامته وأختها ، عبد الله بك عزت ومدامته وحقى بك القنصل

نزلت فى « بارك » أوتيل . وهى درجة أولى وغالية

زجاجة الوسكى ١٣٠ قرشا والكونياك كذلك ١٣٠ قرشا وكأس الوسكى يكلف ٢٠ قرشا

الأسعار مرتفعة !..

الأربعاء ١٩ يولية سنة ١٩٣٣ :

استيقظت مبكرا . أخبرنى كاتب اللوكاندة « بارك » انه اطلع مديرها على شهاداتى الصحفية فقرر تنزيل الأجرة الى ٣ ليرة (٤٢ قرش) بدون الفطور . فشكرته

وقابلت محيى الدين أفندى الذى عرفنى به أخى ليكون ترجمانى . وقد ظهر انه هو الآخر « عاشق » وقد روى رواية حبه ولا بأس بها . خلاصتها انه اختطف حبيبته الشركسية من الأناضول وأسكنها معه . وسيتزوجها ولكن عمرها الرسمى دون السن القانونية (١٨ سنة عندهم!) وقد جلت جولة طويلة وزرت الأعلام الآتية :

١ ــ جامع السلطان أحمد : ذو ٦ مآذن ، وله حكاية ظريفة .. فهذا السلطان كان مسرفا وديّنا فى الوقت نفسه . أمر وزيره أن يبنى « منارة

التون » ... و « التون » معناها ذهب . أى أمر ببناء مأذنة ذهب ! !
والوزير كان حكيما وكان من المستحيل عليه أن يبنى مأذنة ذهب ! فبنى ست مآذن ، ولما تمت لأنه بناها فى الحال وفجأة ، أخطر السلطان أحمد بأن المآذن الست انتهت ! فدهش السلطان وقال : لقد أمرت « بمأذنة التون »! قال : يامولاى لم أفهم ومستحيل أن أفهم ذلك لأن « مأذنة ذهب » تكلف الدولة كثيرا جدا جدا . وقد سمعت خطأ أنكم أمرتم ببناء « منارة التى » ... التى بالياء يعنى ستة !

وهكذا أنقذت « التى » الدولة من الخراب !... والجامع فخم جدا ومفروش بالسجاجيد الثمينة . ولما كانت الكعبة لها ست مآذن وقد اتهموا السلطان أحمد ان هذا « تحدى لبيت الله أمر فبنى على حساب الدولة مأذنة « سابعة » فى مكة ...

ألبسونا « براطيش » تحت الجزم بمثابة « خف » وكان منظرها ظريفا وهى تفلت منا فى الجامع ومن السيدات السائحات

٢ ــ أيا صوفيا :

أصله معروف : كنيسة . وهو فخم جدا ورائع

وقد وضعوا فى حوائطه الفاخرة أسماء : الله ، محمد ، على ، عثمان ، عمر ، أبو بكر ... الخ الخ . وكان منظر القسس ظريفا وهم يتفرجون ويكظمون الغيظ ! وقد راعنى منظر ظريف فقد كان هناك أحد العلماء يلقى درسا على طريقة جوامعنا ، انما ظرف المنظر أنهم كانوا جميعا بالجاكتات والبدل العجيبة وبيد كل منهم « كاسكتة » و « صرمة » ! ! .. وقد قضى مصطفى كمال على المولوية والطرق الصوفية ...

٣ ــ المحكمة :

لم أتمكن من حضور مرافعات ، وانما نظام المحاكم مثلنا تقريبا

ولكن الظريف أن بعض الآنسات يشتغلن كتبة بجوار الكاتب. ويكتبن « بالتيبريتر » وهذا بديع ...

زرت غرفة المحامين وقدمت نفسى اليهم كمحام مصرى . وقد أكرمونى

كل الاكرام ... عندهم مجلس ادارة مكون من ١٢ عضوا ... يحكمون فى الشكاوى ، وكمجلس تأديب ــ وحدهم ــ بغير عناصر أخرى . وأحكامهم تنفذ بمجرد تصديق محكمة الجنايات فى الاستئناف !

هناك ثمانى محاميات . منهن اثنتان مشهورتان ، ومرافعتهن هادئة غير عصبية ... نظام المحلفين غير متبع

٤ ــ طوب قبو . باب المدفع :

يمتد من هناك السور المسمى حصار

٥ ــ المتحف الحربى :

بديع : فيه الاسلاب والرايات والمغانم من روسيا

ومن الحرب العظمى : فى الدردنيل وغيره . وفيه صور زيتية وحجرية للمواقع ...

وتمثال للغازى منتصبا وسط الأسلحة ووسط مظاهر الحرية والسؤدد

تماثيل للعلماء والملوك والقواد وأصناف الجنود والضباط وشيوخ الطرق بملابسهم التقليدية فى مجالسهم ، أنواع الأسلحة والخناجر . على العموم هو متحف وطنى جليل !

٦ ــ الانتكخانة :

عظيمة : فيها قبور الرومان واليونان والمصريين ، وبعض تماثيلهم ومخلفاتهم ...

أبدع ما هناك أوانى السلطان عبد الحميد . وهدايا الملوك اليه . وبالأخص هدايا « غليوم » شىء فوق الخيال !

٧ ــ سراى قسطنتين :

سراى يحيط بها البحر تقريبا من كل جانب . محصنة تحصينا طبيعيا مدهشا جدا وحولها الأسوار بحيث تستطيع أن تقاوم وحدها اذا سقطت استامبول بأسرها ...

وقد احتال عليها « محمد الفاتح » بأن نزل بعسكره بعيدا ثم حاصرها من ورائها وحكايتها التاريخية معروفة ...

حديقتها من أبدع الحدائق . تمتاز بوحشيتها أى بخلوها من محسنات الصنعة . وهى متنزه عام

٨ ـــ سراى السلطان عزيز :

سراى فاخرة كبيرة لها تاريخ . فقد كانت فيها ذخيرة الترك وأسلحتهم فوضع الحلفاء فى الحرب العظمى عليها الحراس . ولكن مصـــطفى كمال واخوانه يعلمون أن لها سراديب تؤدى للبحر ، فاختلسوا الذخيرة منهـــا ونقلوها للأناضول .. فى غفلة من الانجليز ومن معهم . وقد كانت هذه الأسلحة عدتهم فى النهضة التركية ، ولولاها لكانت تركيا فى خبر كان

٩ ـــ تذكار غليوم والمسلة المصرية وأثر يونانى

١٠ ـــ كشك بارك :

« فيللا » ظريفة للسلطان عبد الحميد فيها بحيرات وحديقة تنزل اليها بانحدار هائل . فهى تحت الأرض ولكن كلها ابداع . حديقة خالية تليق للحب وللمحبين

١١ ـــ تمثال الحرية :

تمثال رمزى لشوكت باشا أبو الدستور . يحتفلون حوله كل عام بعيد الحرية ...

١٢ ـــ السراى الراسية :

غريب أمر هذه السراى . فهى مشيدة على أعمدة عدة وتحتها سرداب يؤدى الى البحر . فهبطت العواميد التى تتجاوز المئات بكليتها بحيث لم يحدث أى شيء فى السرداب ، وأنت تهبط اليها فتجد الماء حول العواميد. وقد وضعوا القوارب لتسير بالزائرين . الجو رطب فى هذا المكان

١٣ ـــ منزل مصطفى كمال :

فى ششنى : منزل صغير طويل . تركوه تذكارا . وهو الذى جمع فيه أصدقاءه لتنفيذ خطتهم الوطنية

١٤ ـــ السوق :

عبارة عن خان الخليلى . ولكنه مسقف بالحجر على ما أظن . وباحكام

١٥ ـ سنذهب الليلة أنا ومحيى أفندى وخطيبته لسماع المغنية المشهورة « فكرية خانم » ...

***

سهرنا فى « البانوراما » أنا ومحيى الدين أفندى ترجمانى وزميلى ، وخطيبته وهى فتاة شركسية جميلة جدا ولا تتجاوز العشرين ، وشربت كثيرا من « العرقى » وشرب العاشقان كثيرا . وتعرفت « بحافظ بك برهان » أشهر مغن تركى

الخميس ٢٠ يولية سنة ١٩٣٣ :

ذهبت الى « كوك » وصرفت خمسين جنيها . صرفت أمس كثيرا جدا ... استامبول نار ... وذهبت بعد ذلك للقنصلية فزرت «حقى بك» القنصل، وأحمد رمزى ، والحسينى الخطيب . ثم تقابلت مع محيى الدين أفندى وخطيبته وتغدينا معا الساعة الواحدة فى محل جمال بك . وذهبنا لسراى قسطنتين . وشاهدنا هناك أبدع مجموعة من كنوز آل عثمان . شىء مدهش وفوق المدهش ...

١٦ ـ الحرملك

١٧ ـ ملابس السلاطين ومجوهراتهم وعروشهم وأوانيهم وتيجانهم الذهبية ، والفضية ، والماسية ، والزمردية ... الخ الخ مما يبهر العقل ، ومما لا مثيل له فى العالم حسب ما شاهدت !

ان سلسلة السرايات المتلاحقة مليئة بالعجائب . وان قطعة صغيرة من ملايين القطع الموجودة .. فيها كل العجب والطرب . وقد أخذت صورة لنا جميعا . وأنفقت كثيرا هذا اليوم أيضا ...

سهرت وحدى لسماع «فكرية خانم» وأرسلت لها «كرتا» أطلب مقابلتها فأذنت فى الحال ، وكتبت لى عنوانا بالعربى والفرنسى ودعتنى لزيارتها فى منزلها « شارع ثانية رقم ٩ » الساعة الرابعة .. وسأفعل

الجمعة ٢١ يولية سنة ١٩٣٣ :

أنا ومحيى الدين وخطيبته تقابلنا فى الصباح وذهبنا فى قارب فى قرن

الذهب مسافة ساعة . ثم فى وابور البحر حتى جامع أيوب . ثم الحصار و « الفاتح » ثم جامع الفاتح والسليمانية ومدفن عبد الحميد وتغدينا عند الطاهى الشهير « عبد الله أفندى »

فى الساعة الرابعة زرت « فكرية خانم » فى منزلها وكان معها أبوها وأمها ونشأت بك القانونجى المشهور . وكانت ظريفة ومؤدبة وتحادثنا طويلا فى الفن وفى زيارتها لمصر

السبت ٢٢ يولية سنة ١٩٣٣ :

ذهبت للقنصلية .. للتأشير على « الباسبورت » من قنصلية رومانيا . والقنصل وباقى الموظفين فى غاية الظرف ... وقد علمت منهم أن الصحفيين لايدفعون « فيزا » ... وقطعت تذكرة من الشركة الرومانية على قسطنزا بتخفيض ٥٠ فى المائة

سهرت عند فكرية خانم أنا ومحيى وعطية وقابلت هناك هرون باشا وعلى الملطاوى عضو الشيوخ وأخبرنى أنه كان على علم بأننى هنا

الأحد ٢٣ يولية سنة ١٩٣٣ :

ذهبت مع القنصل « حقى بك » والحسينى الخطيب بك فى سيارة الأول الى « فلوريا » وهومصيف وبلاج جميل، ومضينا هناك النهاركله وتغدينا . وعرفنى القنصل بقنصل يوغوسلافيا وامرأته وأختها . ثم عرفنى بأخريات من السلك السياسى ... وقابلت الأمير زيد شقيق ملك العراق ولما علم بأننى « أستغلى » الوسكى أرسل نصف زجاجة هدية لى . وعندما تعرفت به اهتم بى وقال : اننى أسمع عنك كثيرا ثم ذكرنى بسهرة معه فى مصر . وتعرفت الى كثيرات فى غاية الظرف وكان يوما لطيفا

الاثنين ٢٤ يولية سنة ١٩٣٣ :

قمت صباحا فزرت الشيخ أبوالوفا وهرون باشا . وترجمت لهما ما دار بينى وبين أصحاب المنزل بالفرنسية . ثم ذهبت الى القنصلية المصرية لأتمم اجراءات « الفيزا » من المجر والنمسا

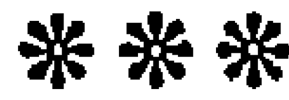
ووصل من أنقرة سفيرنا عبد الملك بك حمزة ، وعرفنى بكبير من موظفى السفارة البريطانية . لا أدرى أهو السفير أم المستشار . وفهمت من الحديث الذى دار انه يجب اعلان النقود التى مع المسافر عند الوصول . وعند الخروج أيضا . وعلمت أن الخطابات التى ترسل عادية أو مسجلة ينظر ما بداخلها بواسطة أشعة « اكس » خوفا من أن تكون نقودا ! !

المصاريف باهظة جدا فى استامبول ...

كلمنى رمزى بك صاحب « مخارثت » وسأقابله مساء ...

قابلت رمزى بك ودعوته لتناول بعض الشراب وقد أخبرنى أنه مسافر باكر للحضور مع على باشا ابراهيم ، وسليمان عرفى وشوشة ، وبعض الصحفيين بدعوة من الجمهورية التركية . ودعانى فاعتذرت ، ثم عرفنى برئيس حزب الشعب التركى ورئيس محكمة الاستقلال ولا أذكر اسمه

سهرت الليلة عند الشيخ أبو الوفا وهرون باشا



الثلاثاء ٢٥ يولية سنة ١٩٣٣ :

ذهبت فى الصباح مع هرون باشا ومحمد نجل الشيخ أبو الوفا فى نزهة بديعة جدا الى جزر الأرخبيل الأولى « قنال » . والثانية « بوغاز » والثالثة «هك بعى» . والرابعة «بيوقضا» أو «نيج بو» .. وهى التى قصدناها لأنها أبدعها ...

المناظر حقيقة فى غاية الابداع ، ويمتاز الجبل عن سويسرا بأنه طبيعى وعن لبنان بأنه أغزر شجرا وأكثر تنوعا . والفلل هناك ظريفة جدا جدا والفسحة كانت غاية فى الجمال ...

فى الساعة الرابعة تماما مرت علىّ المدموازيل ماتيلد فارو (سينىعبدالله) وأختها وتواعدنا على اللقاء الساعة السابعة باللوكاندة

قابلنا فى المركب فى رحلتنا أحد القضاة الأتراك السابقين واسمه « خورشيد بك » فتكلم معنا بالعربية الفصحى ، وكان متألما لحالة الدين والاسلام والعرب

منحتنى « المجر » و « النمسا » فيزتيهما مجانا لأنى صحفى ، بعد كتابة القنصل « حقى بك » لهما بذلك . أما رومانيا ... فاعتذرت بأنها ليست لديها تعليمات

سهرة الليل كانت كثيرة النفقات ولكنها ظريفة قابلت مرغريت فارو ، وماتيلدا فارو ، وعمتيهما وبنت عمهما .. أعنى خمس سيدات وأنا الرجل الوحيد ، وسهرنا فى «منتزه فسيح» ولعبت الفرقة الدولية المختلطة ألعابا فى غاية الابداع

الأربعاء ٢٦ يوليو سنة ١٩٣٣ :

ذهبت للقنصلية فشكرت « حقى بك » القنصل نجل « صالح باشا حقى » صديقنا ، والحسينى بك الخطيب ، ويحيى بك ، وحلمى أفندى ، وجاسر القواص. وقابلت عماد الدين عميد الجالية التركية فى مصر فأخبرنى انه حدثت فى « يالوفا » حادثة لأخى عثمان فقد ضايقه قومسير البوليس فى بعض اجراءات خاصة بجواز الاقامة ولم يكن مع قومسير البوليس حق . وبلغ الغازى مصطفى كمال بالحادث ، فأمر بطرد القومسير فى الحال

انتظر على بك حسين بعد الظهر اليوم

لا أود بمناسبة انتهاء زيارتى لاستامبول أن أنسى المرحومة ستى « ترنديل » . فقد لقنتنى بعض الكلمات فى سن الطفولة فرسخت فى الذهن فكانت عونا لى فى استامبول وبالأخص أصناف الطعام رحمة الله عليها...

قابلنى عبد الملك بك حمزة وأظهر دهشته من سفرى وأسفه لأنه لم يقم لى بالواجب

ذهبت للمركب الرومانية « داسيا » لمقابلة الأستاذ على حسين حسب اتفاقه فلم يحضر حسب عادته

وقابلت فى المركب طاهر باشا نور ، وأمين أنيس باشا ، وأحمد الصاوى وآخرين معه ...

وسهرت عند الشيخ أبو الوفا الشرقاوى

الخميس ٢٧ يولية سنة ١٩٣٣ :

أخذت شهادة من فندق «بارك» بالتخفيض لأستعين بها فى اللوكاندات الأخرى . وذهبت للمركب « داسيا » أنا وهرون باشا وجاء لوداعنا فضيلة الشيخ أبو الوفا ونجله ، والمنياوى ، واسماعيل بك شكرى ، وحلمى أفندى سكرتير القنصلية . وكان عمال الجمارك معنا فى غاية الظرف . فلم يضايقونا فى مسألة Declaration of money ووجدنا على المركب أحمد الصاوى ، أحمد فهمى ، الضابط زاهر، الأستاذ بدر. وقامت الباخرة حوالى الساعة الحادية عشرة ...

وكانت الشركة الرومانية غير ظريفة معى هذه المرة . فلكثرة الزحام وجدت كابينى فيه شخصان آخران ، أى ثلاثة أسرة . فقلت : لابأس انها ليلة ! ذهبت للنوم حوالى الساعة الثانية عشرة مساء فوجدت عجبا ! وجدت جسما ضخما عريانا وبطنه العالى مكشوف الستر !.. والرجل يشخر شخيرا عاليا ثم يفتح النور ثم يطفئه ثم يستأنف الشخير بصوت فظيع ومقطوعات غاية فى الشناعة . لم أنم ليلتى الا قليلا ...

***

وفى الصباح المبكر وصلت الباخرة الى ثغر قسطنزا ...

الكشافة السورية .. كانت معنا على المركب للاشتراك فى حفلة بودابست الدولية . لما تعرفوا الى سلموا بحرارة وحماسة بالغين . ودعونى لزيارتهم فقدموا لى الشاى والحلوى وأخذوا معى بعض الصور ووجدت فى يد كل منهم نسخة من كتابى « الضاحك الباكى ». ووجدتهم يحفظون مقالاتى. وعند قيامى هتفوا لى هتافا عاليا متكررا : يعيش فكرى أباظة يعيش ! يعيش ! يعيش ! وهكذا يكرموننا فى الخارج أكثر مما يكرموننا فى الداخل . حبهم لمصر مدهش !

هذه « عينات » من المذكرات اليومية العابرة . يحسن بكل سائح مصرى أن يدونها.. انها لذيذة وممتعة عند مراجعتها بعد تاريخ تحريرها بثلاثين أو عشرين عاما ... أو أكثر ... ان مد الله فى الأعمار ...

رومانيا . . .

كانت ... كانت منذ عشرين عاما ...

كانت زاهرة ، فاخرة ، ساهرة ، ساحرة ، فماذا دهاها ؟ !

ماذا دهاها بعد عشرين عاما ؟ !

قال لى لاعب الكرة المشهور حلمى أبو المعاطى بعد أن زارها فى مايو سنة ١٩٥٥ : « الشيوعية » !..

وأنا لا أود أن أصدق أن الشيوعية تزدهر فى وطن وتبتئس فى وطن ! ! لماذا ؟ ! أهى هكذا فى كل وطن !

لابد أن أرى بعينى وأن أشهد قبل أن أحكم حكمى النهائى ...

فهل أستطيع أن أخترق « الستـــار الحديدى » وأن أفحص ما وراء الستار ؟ !

سترى ...

قال لى « الضاحك الباكى » وأنا أتلو عليه هـــذه الفقرة أنه حاول السفر خفية فى يولية سنة ١٩٣٣ الى روسيا . وأعد « أوراقه » وأخـــذ « تصريحا » من أحد المكاتب الروسية فى بوخارست ولـــكن بلغ الخبر المفوضية المصرية فأبرقت الى وزارة الخارجية بالقاهرة . وجاء الرد انذارا بتجريده من الجنسية المصرية اذا سافر بالفعل الى روسيا ، ففشلت الرحلة

وبوخارســـت ــ اذ ذاك ــ ولا أدرى ما هى الآن ، كانت عاصـــمة أنيقة ، ذات دلال ، وجمال . هى وما فيها من يسر وأرستقراطية وبذخ . وكذلك من فيها من غانيـــات فاتنـــات لاعبـــات آسرات كانوا يسمونها « باريس رقم ٢ » . وكان فتى هـــذه القصة فى عنفوانه .. فجال فيها وصال . ورفع رأس مصر عاليا ..!

ما أجمل الشباب !...

وما أروع الشباب المكتمل ... أو بعبارة أخرى : « الرجولة فى عصرها الذهبى »

وفى بوخارست أشهى وألذ وأرحب حمام ، يصطخب بالأمواج والتيارات الصناعية . واختلاط الجنسين فيه « على آخره » ! وبه ١٠٠٠ كابين ! وكيف لا تلذ بوخارست عاصمة رومانيا وقد كانت اذ ذاك عاصمة الغرام التاريخى الفذ بين الملك كارول ومدام لوبسكو ؟ ! ورووا له أن مجلس الوزراء الرومانى اجتمع ذات يوم لفحص شارات وشرائط وعلامات أسلحة الجيش المختلفة واحتدت المناقشة اذ لاحظ الوزراء أن الألوان البمبى ... والروز ... والبرتقالى واللبنى .. زاهية صارخة لا تليق بجنود ! ولكن « وزير الحربية » تكلم وقال :

ــ ان مدام لوبسكو عشيقة الملك هى التى اختارت

فوجم الجميع . وصدر القرار بالاقرار !

« حب فى الدانوب » !

ــ أنا شكرى ...

ــ وأنا ليليان جورجسكو .. مهندسة صناعية . وهذه أختى ماريان جورجسكو .. مهندسة طيران ...

ورأى « هرون باشا أبو سحلى » زميله « شكرى » يكلم أجمل فتاتين على ظهر الباخرة فى رحلة الدانوب أجمل رحلات أوربا قاطبة ، فزحف بأسلوبه الصارم ــ لأنه كان مديرا صارما حازما قويا ــ وقبض على ذراع زميله فى الرحلة وقال :

ــ وأنا هرون أبو سحلى مدير الدقهلية !

والرجل معذور فماذا يستطيع الصلاح وماذا تستطيع التقوى ؟ ! هل تقوى أمام هذه الفتنة المزدوجة ...

قلت له : « والصلاة والزكاة والصوم ! »

قال : « الجمال عبادة » !

ولمح شكرى ان ليليان تضع فى أصبعها — كل أصابعها جميلة — « جعرانا » مصريا . من صنف ردىء . ومن حسن الحظ انه كان يحمل معه علبة مليئة بالجعارين الممتازة . فلما قدمها لها لتختار ، أصابها الذهول من شدة الفرح .. فأقبلت هى وأختها تختاران ...

الدانوب هو المسئول عن هذا الحب الرومانى ...

والذين يلومون المحبين يجب أن يلوموا الطبيعة ، الطبيعة الساحرة هى أخطر وسيط بين القلوب . فى الليالى المقمرة الفتانة على الباخرة كان يقف شكرى مع ليليان جورجسكو على « الدك » حتى الساعة الثالثة صباحا .. ثغرها .. شعرها .. عيناها .. شفتاها .. ابتساماتها ، همسها ، كل ذلك ممتزجا مع جمال الدانوب ، الذى يتسع ويضيق وينفرج ، ويتعرج ، ويخيف ، ويطمئن ، كل ذلك فى ليال ثلاث ! بذر الحب ! — وأنبته ! — فنما وترعرع وأثمر الهيام !

قالت فجأة : « اسمع . تصل الباخرة الليلة الى « بلجراد » الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ... »

قال : « طيب » ...

قالت : « عد حوائجك وشنطك واهرب معى من « الباشا » — أى هرون باشا — ونذهب الى « فينسيا » »

***

وأعجبته المغامرة .. وأعجبه الحب الذى يتمكن ، فأعد حوائجه وشنطه وتسلل معها ليلا الى سلم الباخرة وهى ترسى مراسيها . ولكنه تذكر شيئا فقال لها :

— كيف أمضى الليل فى « بلجراد » . ليس معى « فيزا » ...

قالت : نمضيه فى قراقول البوليس !

وشرع يجتاز سلم الباخرة بشنطه واذا بيد ثقيلة غليظة تنحط على كتفه ! ويلتفت وراءه فيرى « هرون أبو سحلى باشا » بطاقيته ، والروب

دى شامبر ، وقد أيقظوه من نومه وأبلغوه أن صـديقه يهرب ! وجذبه بشدة وهو فى غاية التأثر فعاد ...

عاد ... عاد مضطرا لأن « هرون باشا » كان مريضا وكان يعتمد عليه فى رحلته الصحية ...

ولم تعد ليليان ... وانما نظرت اليه نظرة احتقار لاينساها طول حياته !

بودابست

بودابست ...

وصلت الباخرة الى بودابست عروس وسط أوربا فى يوم الأربعاء ٢ أغسطس سنة ١٩٣٣ ونزل السائح المصرى شكرى فى فندق من الدرجة الأولى . أيدرى القراء كم كانت أجرة الغرفة اذ ذاك ؟ كانت خمسة وثلاثين قرشا ! ولم يكد يدخل الى المصعد هو وزميله هرون باشا حتى تقدم اليهما فتيان ثلاثة من الكشافة وقال زعيمهم : « نحن تحت أمركم فهل أنتما محتاجان الى أية خدمة فى الفندق ... تلغرافات ... بوسطة ... فسحة ... الذهاب الى مهرجان الكشافة العالمى فى«جواديلو»... تاكسى... صرف نقود من البنك الى آخره »

كان المهرجان العالمى للكشافة على وشك الافتتاح وبسرعة البرق دبر الفتيان لهما السيارة ، فذهبا بالطرابيش الى الملعب الكبير ، فلم يكد المشرفون على الحفل العالمى يلمحونهما حتى استقبلوهما بالترحاب وذهبوا بهما تكريما للمصرية ، وللطربوشين حيث جلسا بجوار ولى عهد السويد والأميرة قرينتــه ، ووصى العرش فى المجر ، واللورد « بادن باول » مؤسس الكشافة ورئيسها العالمى . ولمحا « خالد حسنين باشا » والمربى الرياضى الكبير « عبد الله سلامة » ...

وكانت أسـعد لحظة مرت بهمـا حين ظهرت فرقة الكشـافة المصرية بملابسها الرسمية الأنيقة وطرابيشها ، وقد حمل أحد الكشافة المصريين العلم

المصرى فاستقبله أربعون ألفا من النظارة بالهتـاف والتصفيق . وعندما انتهى الاحتفال تزاحمت آلاف الجماهير على الخيم المصرية الجميلة التى لم يروا مثل دقة صنعها ، وسلامة ذوقها .. فأخذت الآلاف المؤلفة تحاصر الفتيان المصريين وتطلب توقيعاتهم على أوراقهم ...

ثم أخذت هذه الآلاف تلمس قماش كل خيمة لتتحقق اذا كانت النقوش مرسومة أم مصنوعة ، وارتفعت قامتا هرون وشـكرى زهوا واعتزازا ولا يظن بطل هذه القصة أن فرقة أخرى من فرق العالم المشتركة فى ذلك المهرجان الدولى قد فازت بمثل ذلك الاعجاب وتلك الدهشة !.. وقضى الزميلان يوما كاملا فى الحمام العالمى الذى لا ميثـل له ، وهو حمـام « سان جاليرث » الذى كان يحتشد دائما بأجمل الفتيات العالميات ...

وبودابست من أجمل مدن الدنيـا و « الدانوب » الذى يخترقها يعج بالملاهى والكازينات والمسارح والفرق الموسيقية العالمية وتنتابنا الحسرة والوجيعة اذا قارنا بينه وبين «النيل» الموحش المظلم ! تلك أى «هنجاريا» بلد فقير ، ولكنها استطاعت أن تخلق من « الدانوب » بهجة ، وسحرا ، وشيئا عالميا عديم النظير ...

ولكن وا آسفاه : علم الضاحك الباكى أن ذلك النهر الذى تنبعث منه السعادة والهناء نهارا وليلا يتلقى كل يوم ما لا يقل عن عشرين منتحرا ومنتحرة من شدة الفقر وشدة الحاجة !

***

وفى ذات ليلة من ليالى أغسطس اشترى الضاحك الباكى قرطاسا من المشمش بما لايزيد عن خمسة قروش وقدم منه مشمشة لأجمل فتاة فى حشد لايقل عدده عن عشرين فتاة جميلة فاذا بهن يهجمن على القرطاس ويلتهمنه التهاما من شدة الجوع !

وبودابست متاع عالمى منقطع النظير ، فهل هى اليوم فى عهدها الحاضر كما كانت بالأمس زاهية زاهرة فى عهدها الغابر ؟

فينا !..

لكل شيء اذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش انسان
دار الزمان على « دارا » فقاتله
وأم « كسرى » فما أواه ايوان !

أى والله ... « ڤينا » عاصمة « الامبراطورية النمسوية » التى أشرفت على التاريخين القديم والحديث منذ القدم ... ماذا دهاها ؟ ... الزمن !

دحرت « الأمبراطورية » العجوز فقلمت أظافرها ، ونزعت أضراسها ، وانهارت ! وبعد أن كانت حدودها مع « المجر » تمتد الى سهول ايطاليا الشمالية ، والى البلقان.. تقمصت ، وانقبضت ، و «انسخطت» فأصبح عدد سكان « الأمبراطورية » بعد عشرات الملايين خمسة ملايين فقط ! العاصمة وحدها ــ « ڤينا » ــ ثلاثة ملايين ! ومع ذلك ظلت محتفظة بجلالها ، وجمالها ، كالمرأة الحسناء ذات الجمال والجلال التى عبث بها العمر . ولكن لم تتخل عنها رحمة الخلاق فخرج جمالها بجلالها وخلق من المزيج فتنة أية فتنة !..

***

وأبى صاحبنا الا أن ينزل فى « امبريال » حيث كان ينزل الأباطرة ، والقياصرة ، والملوك ، ورؤساء الحكومات ، وأصحاب العروش والتيجان ! عنجهية الفقر « الدكر » وغطرسة الذين ينسلون من صلب « يعرب » و « قحطان » !

ولكنه لم يكن مغفلا ، ولا أبله ، ولا سفيها . فى يده « جواز المرور الصحفى » الذى يهبط بالأسعار وأجور الفنادق الى نصفها . « عصا السحر » هذه كانت تكفل له أن يضع نفسه فى غير موضعها . وأن ينال ما لا يناله أصحاب الملايين !..

« الرفراف » ــ لغة ــ هو « الربطة » التى توضع على العين المريضة سواء أكانت منديلا ، أو قطنا ، أو شاشا ...

لم يكن صاحبنا يملك فى عاصمة هذه الأمبراطورية الا اربعين جنيهــا فقط ! وكانت كافية لتمضية أسبوع واحد فى « ڤينا » ثم العودة بعد ذلك بالباخرة « اوزونيا » الى مصر وقد كان يحمل تذكرة الاياب سلفا... ومضى الأسبوع متواضعا ، رفيقا ، مهاودا فكانت « الأربعون جنيها » تواجه النفقات وتصمد محتملة البقاء حتى تحين ساعة السفر !

ولكن ...

ولكن « ڤينا » الجميلة المليئة بالجميلات . وكان لابد أن يرتطم السائح « المفلس » بهذا الجمال الموسر فتعرف بفاتنات نمسويات ثلاث . ومضى معهن سهرة فى ضاحية من الضواحى اقتطعت كل « الأربعين جنيهــا » ما عدا أجرة السكة الحديد الى ميناء الرحيل : « تريســتا » !.. ولكن الفتيات الجميلات الثلاث ألححن على رحلة ، وفسحة .. فأبرق الى ابن عمه فى القاهرة ليسعفه بمائة جنيه ... وأخــذ يتردد يوما بعد يوم على البنك ليسأل عن « الفلوس » هل وصلت أم لم تصل ، فكان الرد بالنفى . وحل ميعاد اللقاء مع الفتيات الثلاث فى فندق « امبريال » فى الساعة السادسة مساء يوم ١٤ أغسطس سنة ١٩٣٣ ! ماذا يفعل وليس فى جيبه بعد أجر الفندق الا ثلاثة جنيهات حتى يصل الى الباخرة !

نبتت فكرة سريعة فاحتجز نفسه فى غرفته . وأخطر بواب الفندق أنه مريض بعينيه !

ووضع ــ من باب الاحتياط ــ رفرافا سميكا على عينيه وجلس فى فراشه متظاهرا بالمرض الذى يمنعه من الخروج ...



وجاءت الفتيات الثلاث فى الميعاد فأخبرهن البواب بأنه مريض بعينيه. وانه يلزم الفراش . فأصررن على الصعود اليه فى غرفته لعيادته ! ودخلت

الفتيات الثـلاث الغرفة . ولحن « الرفراف » الذى على العين وأظهرن أسفهن ، وتمنين له الشفاء ! وأخذ هو يعتذر عن رحلة الليـل ، وسـهرة الليل ، فلما أتم كلامه شعر بيد ناعمة تنزع عن عينيه المريضتين «الرفراف» برقة وظرف ... ثم اذا به يسمع ضحكات عاليات واذا بكبراهن تقول له :

« حدث هذا فى تجاربنا كثيرا ! أنت مفلس ! وليس الافلاس بعيب فهو طارىء يفد على كل سائح ! عندنا فلوس تكفى للسهرة فخذها منا سلفة الى ميسرة ! »

ولم تجز الحيـلة ولا الأكذوبة ، ثم كانت السهرة والرحلة من أمتع سهرات حياته ورحلاته لأن الذى تولى الانفاق على «رجل» ، هن هاتيك الفتيات الجميلات ! وغرور الرجال يترجم هذا بأنه اعجاب واقبال ...

وامتدت الاقامة فى « ڤينا » الى أكثر من أسبوع آخر بعد أن وصلت نجدة القاهرة ، واسترد « المفلس » اعتباره وكرامته ...

ومن أجمـل المصايف ــ أو المشاتى ــ فى النمسا « سيمرنج » فهى بلد السحر والفتنة والجمال ...

ما أقبح الأيام القليلة التى تسبق الرحيل ، والعودة ، خصوصا اذا نفد الاعتماد المالى ووجب على السائح أن يعود مضطرا مجبرا !..

تكرر هذا فاحتاط له صاحبنا فى رحلاته التالية فكان ــ دائما ــ يتسلح بخاتم ماسى ، وعلبـة سجائر ذهبية صاحبته دائما فى رحلاته . حتى اذا نضب المعين ونفد الاعتماد باع هذه أو تلك اذا لذت له الاقامة فكانت هذه الأشياء بمثابة « الاحتياطى » الذى تلجأ اليه الحكومات عند زيادة المصروفات على الايرادات !..

« هيرست » : ملك الصحافة !

وسافر الى « تريستا » ليعود بالباخرة « اوزونيا » الى مصر . وزار القنصل البارع العجيب « حمزة بك شديد » وقد كان من الفتيان المصريين الذين أرسلتهم الجـامعة المصرية « الأهلية » فى سنة ١٩١٠ الى ايطاليـا

للتـعليم ، فتـعلم ، وأجاد الايطاليـة اجادة فائقـة ، وتعرف الى كل الشخصيات البارزة فى ايطاليا ، فلما كبر وترعرع ألحقته الحكومة بالسلك السياسى فى ايطاليا الى أن عين «قنصلا» لمصر فى « تريستا » !.. وجعلت منه الاقامة فى ايطاليـا كل ذلك الزمن الطويل ايطاليـا صميما فى لهجته وأسلوبه ، وكان محل اعجاب وحب الايطاليين ، ولايزال مقيما هناك يشتغل فى تجارة واسعة بعد اعتزاله الخدمة ...

أصر عليه « القنصل » فى أن يذهب لزيارة محافظ المدينة . فلما أخـذ يعرف المحافظ دهش كل الدهشة اذ سمعه يقول عنه : « انه أشهر صحفى فى مصر وافريقيا وآسيا والشرق الأوسط والأدنى ! انه يملك عشرة جرائد يومية وعشرين مجلة أسبوعية وعدة محطات للراديو ! انه « هيرست مصر» كزميله ملك الصحافة فى أمريكا ! انه « نورث كليف » ! انه «بيفربروك» الى آخره الى آخره ! »



ونهض محافظ المدينة يؤدى ويكرر التحية اللائقة بمقام هذه الشخصية العظيمة فى الشرق الأدنى والأقصى ...

ولم يكتف « القنصل » بذلك بل أبى الا أن يتصل فى الحال بشركة البواخر التى تتبعها الباخرة « اوزونيا » فاستبدل كابين الدرجة الأولى « بكابين » لوكس رعاية للمقام الكبير !..

وقبل أن تقلع الباخرة من الميناء اذا بالأسـتاذ « شكرى » يرى على الرصيف كوكبة من جنود الشرف الايطاليين يتقدمهم محافظ المدينة للقيام بواجب الوداع !.. وأخذ قبطان الباخرة بمظاهر التكريم هذه فأصـدر تعليماته الى ضباط الباخرة وموظفيها بأن يكونوا تحت أمر واذن الضيف العظيم ! وأجلسه على يمينه فى مكان الشرف بالباخرة !

مرت ثلاثة أيام بلياليها والأستاذ « شكرى » ملك الصحافة ــ وأشهر الصـحفيين فى الشرقين الأدنى والأوسـط ــ وصـاحب عشر جرائد

وعشرين مجلة وعدة محطات من محطات الاذاعة ... مرت عليه ثلاثة أيام وثلاث ليال وهو فى غاية التعاسة وفى غاية الألم ! ما يكاد يطلب كوبة ماء .. أو شوكة .. أو سكينة .. حتى يهرع اليه أكثر من ستة جرسونات يلبون طلبه بانحناءة تقليدية لا يعامل بها الا الملوك ! وتتردد لفظة اكسلانس فى كل لحظة وفى كل خطوة ! كل ذلك ولم يبق فى جيبه الا « جنيهان فقط » ! كيف يدفع « هيرست » الأول و « نورثكليف » الثانى و « بيفربروك » الثالث ، وصاحب الجرائد والمجلات والاذاعات وأبرز الصحفيين فى الشرقين الأدنى والأوسط ، وكيف يدفع البقشيش لهؤلاء جميعا والجنيهان الباقيان لايكفيان لواحد منهم ! لجأ للنجدة الاحتياطية التى حملها معه فانتقى منها الخاتم الماسى وباعه لأحد الركاب من معارفه ، واشترى بالثمن كرامته وكبرياءه ، وفى ذمة « حمزة بك شديد » ما حصل ! ووصل الى الاسكندرية فى نهاية شهر أغسطس سنة ١٩٣٣ فلم يدرك قطار الليل الى القاهرة ، فنزل فى فندق «وندسور» من الدرجة الأولى ولكن صديقته التركية أسعفته بقرض حسن حتى عاد الى القاهرة

طرزان ! ..

عاد الى القاهرة فاذا بصدقى باشا يستقيل ! واذا بحزبه وبرلمانه يتألبان عليه ويتنكران له ! فيتولى « عبد الفتاح يحيى باشا » رياسة الوزارة مكانه ! ثم يصل فى سبتمبر سنة ١٩٣٤ « طرزان » ! أى والله طرزان . وطرزان هذا هو المستر « بترسون » نائب المندوب السامى ! كان هذا الرجل عجيبا جدا ! كان يفتش أقسام البوليس ! ويستدعى كبار الموظفين المصريين ويناقشهم ويصدر التعليمات اليهم كأنه رئيس الحكومة أو ملك البلاد !

وبالرغم من أن الحكومة معادية للوفد فقد زار « توفيق نسيم باشا » عدة زيارات ، ثم زار « مصطفى النحاس باشا » عدة زيارات ! ثم يصدر القرار باعادة العمد والمشايخ المفصولين !

ثم تسمح الحكومة مضطرة بانعقاد المؤتمر الوطنى العام للوفد المصرى ! ثم تدور مفاوضة سياسية مع خصوم الحكومة فيضطر « عبد الفتاح يحيى باشا » الى الاستقالة الصريحة التى تضمنت احتجاجا قويا على تصرفات هذا الرجل . وهذه الوثيقة الوطنية تعتبر من أهم الوثائق السياسية التى تبرز كرامة الرجال فى أساليب استقالاتهم التى كانت تقليدية لا تحتوى أسبابا ولا حيثيات ...



حين عين الرئيس السابق على ماهر باشا رئيسا للديوان الملكى فى يونية سنة ١٩٣٥ أحس العارفون بأن وراء الأكمة ما وراءها . وان انقلابا ما قادم فى الطريق ... وتجرى الحوادث والأحـداث بسرعة البرق فتتحرج الحالة السياسيـة فى أغسطس سنة ١٩٣٥ . وينشط رجال العسـكرية البريطانية فى منطقة القنال ، ويتخذون اجراءات مفاجئة ، ويثـور الشعب المصرى ، وتقوم المظاهرات فى جميع أنحـاء البلاد فى نوفمبر سنة ١٩٣٥ ، وتحدث الحوادث الدامية ، ويتساقط الصرعى والقتلى وتقوم قائمة الشعب من أجل الضحايا والشهداء !

وينعقد « مؤتمر الطلبة » فى كلية الطب ويقرر المؤتمر القيام بحملة عنيفة ضد الانجليز من ناحية ــ وللتوفيق بين الزعماء والأحزاب من ناحيـة أخرى ــ ويؤلف المؤتمر « وفد الطلبة » لتنفيذ القرارين ، ويسعى وفد الطلبة هـذا سعيه الحثيث ومن بين أعضـائه نور الدين طراف ، وفريد زعلوك ، ومصطفى حلمى ، وآخرون كثيرون

وفى هذه الأثناء ــ فى ابريل سنة ١٩٣٦ ــ توفى الملك فؤاد ، ونودى بفاروق ملكا على مصر . بدأ الجو يهدأ ! ونجح الطلبة فى تنفيذ القرارين ، وعاد الدستور القديم كما عرف القراء مصحوبا بقانون الانتخاب القديم والفضل فى ذلك للرئيس السابق على ماهر بلا شك !..

انتخابات سنة ١٩٣٦ ...

أجريت انتخابات أخـرى فى سـنة ١٩٣٦ ، واجتمع كبار أفراد أسرة « شكرى » وقرروا أن يفتح للأسرة دائرة من الدوائر الوفدية العنيفة التى استعصت عليها ثلاث مرات متواليات لأنها كانت دائرة مستعصية ، وفدية ، لا عصبية فيها ولا سلطان ! قبـل « الضاحك الباكى » هـذا

الوضع مرغما . ولم تكن له حيلة فى أن يختار ! ولكنه كان فى الوقت نفسه من أبرز أعضاء الحزب الوطنى ، وقد عرف أن الوفد جامل بعض زملائه من أعضاء الحزب ، فترك لهم الدوائر بدون ترشيح ! وعرف أن الوفد قرر فى هــذه المرة أن لايرشح فى أية دائرة الا مرشحا وفــديا واحدا ! واحدا فقط ! وذلك لكى يتفادى اصطدام أنصاره بأنصاره ! ولكنه حين رشح نفسه خولفت القاعدة فى هذه الدائرة بالذات دون باقى دوائر القطر كله ! أدهشته هذه الظاهرة فطلب قطب الوفد الذى كان فى يده كل الزمام ودارت بينهما هذه المحادثة التليفونية :

ـــ صباح الخير يا باشا .. أنا فلان ...

ـــ أهلا وسهلا . أهلا أهلا . ازيك يا أستاذ ؟

ـــ يا باشا أريد فقط أن أفهم مسألتين : الأولى ـــ لماذا تركتم دوائر زملائى فى الحزب عبد الحميد سعيد ، وعبد العزيز الصــوفانى ، ومحمد محمود جلال ، بدون ترشيح ، ولم تعاملونى معاملة المثل ؟ !

ـــ يا أستاذ دى دوائرهم « اقطاعيات » !

ـــ هكذا ؟ طيب ولماذا رشحتم فى دائرتى بالذات ثلاثة ! بينما قررتم أن لا ترشحوا الا واحدا ! وان تفصلوا من عضوية الوفد كل مرشح آخر ؟ !..

يا أستاذ شكرى انت معــارض عنيف ومن حق الوفد أن يبــذل كل ما فى وسعه للتخلص منك !

الثلاثة المرشحون ! ...

علم صاحبنا من هذه المناقشة التليفونية أن معركته الانتخابية ستكون معركة حامية دامية ، فاستعد لها الاستعداد الذى يناسبها ...

كان أول المرشحين الوفديين رجلا عصاميا بارع الذكاء وان لم يكن متعلما ! أعتقد انه أقوى مرشح فى العالم بأسره ! كان «الشيخ محمد...» رجلا وافدا من الصــعيد واستطاع بتجاربه المريرة أن يفتح « دكانا » وسط الدائرة يبيع فيه للناس كل ما يحتاج اليه الناس : سباخ كيماوى ،

مسامير ، حديد ، أخشاب ، بقـالة ، تقاوى قمح وذرة وبذرة قطن ، حلاوة طحينية ، زيت ـ الخ الخ ... غير أن خطره كمرشح لم يكن فى هذا كله وانما كان فى أن جميع زعماء العشائر والعصبيات ممن يملـكون الاصوات كانوا مدينين له بديون ! وكانت فى يده مئات الكمبيالات التى تثبت ديونه عليهم ، فكان أثناء المعركة الانتخابية يمزقها علنا فى مختلف بلاد الدائرة ! وفى المساجد ! ويشترى بهذا « التمزيق » أصوات الناخبين !

كان الرجل العصامى لايقاوم ! كان خطيرا فى أساليبه الانتخابية ، وكان يوزع أطنان « الكراملة والملبس » على أطفال كل قرية ليواجهوا خصمه الأستاذ « شكرى » بالطوب ، وروث البهائم ، والنبال .. بفضل رشوة « الكراملة والملبس » ولم يرد هذا العدوان الا أن الأستاذ « شكرى » اشترى أطنـانا من « الشيكولاتة » المفضضـة والمذهبـة على شكل « الريالات » و « الجنيهات الذهب » فضربت « الكراملة والملبس » على عينها !..

وبلغ من جرأته أنه كان يقتحم اللجان الانتخابية ويتظاهر بأنه يخاطب تليفونيا فى القاهرة مصطفى النحاس ، والسيدة الجليلة المرحومة صفيـة زغلول ، والأستاذ الكبير مكرم عبيد ليوهم أعضاء اللجنة بأنه الابن البار لهؤلاء جميعا ! ..



وفى ليلة من الليالى « الليلاء » تربص لسـيارته عدد كبير من أنصار الأستاذ « شكرى » المسلحين بالنبابيت والزقل والفؤوس ليعتدوا عليه ! فلمح الخطر بذكائه النادر فأمر أصحابه من الذين معه فى السيارات أن يهتفوا بحياة الأستاذ « شكرى » وجازت الحيلة على الأنصار المتربصين فى الليل ، فظنوا أن الموكب موكب صاحبهم، فساهموا فى الهتاف ومر ركبه بسلام ! ولكن جاء على الأثر ركب آخر من السيارات فظن الأنصار أنه ــ بلا شك ــ ركب الخصم « الشيخ محمد... » وانهالوا على السيارات بالنبابيت والزقل والفؤوس وأصيب صديقهم ومرشحهم الأستاذ « شكرى »

هو ومن معه بالجروح والرضوض ونقل بعضهم الى المستشفيات ! هـذا لون من ألوان وأساليب ذلك المرشح الخطير !

أما الثانى فكان وفديا يعتز بقرابته لأحد كبار موظفى «القصرالملكى» والثالث من ذوى العصبيات والمكانة الوفدية المتينة ...

سقط الثانى والثالث من مرشحى الوفد وبقى الأستاذ « شكرى » وخصمه العنيف « الشيخ محمد ... » !

ودارت المعركة عنيفة ، استعملت فيها كل أسلحة الانتخابات من بنادق ، ورصاص ، ومتروليوزات ، وقطاع طرق ، وحشيش ، وأفيون حتى ظهرت النتيجة فاذا بالأستاذ « شكرى » يفوز فقط ... فقط ... بـ ٧٢ صوتا !

كان قد يئس من النجاح ، وفر الى القاهرة وأخذ ينتظر النتيجة حتى الساعة الواحدة صباحا فى قهوة « الانجلو » وقد ظهرت نتائج كل دوائر القطر ما عدا دائرته ! وقد بلغ من اهتمام الناس بهذه الدائرة انهم ظلوا ساهرين حتى تعلن النتيجة ، وكان أن عرفها المرحوم محمد محمـود باشا فأبلغها له بالتليفون فى قهوة « الانجلو » وأخذ أصدقاؤه يتندرون بهذا الفرق الضئيـل ـ ٧٢ صـوتا فقط ـ وكانت السيدة الممثلة الكبيرة زينب صدقى موجودة بين « شلل » المنتظرين فقالت :

ـ ٧٢ « صوت » بس ! كنت قول لى وأنا « أرقعهم لك » !

العهد الجديد !

افتتح برلمان « العهد الجديد » بعد عهد صدقى باشـا فى مايو سنة ١٩٣٦ . وحضر الافتتاح أوصياء العرش برياسة الأمير محمد على ، وحدثت المباحثات المبدئية بين سير مايلزلمبسون السفير البريطـانى يومئـذ ، ومصطفى النحاس باشا تمهيدا للمفاوضة

وكانت قد ألفت « الجبهة القومية » من جميـع الأحزاب لاجراء تلك المفاوضة . ورفض الحزب الوطنى أن يشترك فيها تنفيذا لخطته وهى خطة عدم المفاوضة الا بعد الجلاء ...

ومن الضرورى أن نسجل فى هذا التاريخ السريع العابر أن سير مايلز

لمبسون قد نجح نجاحا باهرا فى أنه طوى جميع الأحزاب ــ ما عدا الحزب الوطنى ــ وجميع الزعماء فى جبهة واحدة لاجراء المفاوضة ، فكان ائتلافا من أنصار الحكم يحف بالوزارة الوفـدية التى توكلت على الله وأقدمت على المفاوضة بعد الجهاد المرير الطويل !..

وفى ١٣ فبراير سنة ١٩٣٦ صدر مرسوم ملكى بتعيين الهيئة الرسمية لابرام معاهدة صداقة ومودة ومحالفة مع بريطانيا العظمى . فنصت المادة على أن يعين الآتية أسماؤهم مندوبين فوق العادة لأداء هذه المهمة وهم :

مصطفى النحاس ، ومحمد محمود ، واسماعيل صدقى ، وعبد الفتـاح يحيى ، وواصف بطرس غالى ، والدكتور أحمد ماهر ، وعلى الشمسى ، وعثمان محرم ، ومحمد حلمى عيسى ، ومكرم عبيد ، وحافظ عفيفى ، ومحمود فهمى النقراشى ، وأحمد حمدى سيف النصر

وقد خول المرسوم هؤلاء السـادة السلطة التامة فى ابرام المعاهـدة وتوقيعها ...

وفى نفس اليوم أبلغ الرئيس السابق صورة هذا المرسوم الى المندوب السامى البريطانى وطلب منه بيانا بأسماء المندوبين الذين سيمثلون الحكومة البريطانية . فوصل اليه هذا البيان فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٦ ...

وفى ٢ مارس سنة ١٩٣٦ عقدت جلسة افتتاح المحادثات بقصر الزعفران بحضور جميع أعضاء الهيئتين ، وكبار رجال الدولة وموظفيها ، وممثلى الصحف المصرية والأجنبية ، وألقيت خطب الافتتاح التقليدية ...

وتوالت الجلسات ، وتفوديت عقبات وعقبات ، ووصل بعض الساسة البريطانيين بالطائرة مبالغة فى الاهتمام بانهاء كل اشكال . وفى يوم ٢٤ يولية سنة ١٩٣٦ ، عقـد الوفدان بقصر الزعفران جلسة عامة ووقع فيها الرئيسان النصوص المتفق عليها . ثم انتقلت المحادثات الى المسألة الكبرى. وهى مسألة السودان ، ثم مسألة الامتيازات الأجنبية ، وفى ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ صدر التفويض الرسمى بتعيين أعضاء الهيئة الرسمية فى توقيع المعاهدة كما سيأتى بيانه فيما بعد ...

فى الطريق الى ...

عاد للنيابة ، وللبرلمان ، بعد كفاحه الانتخابى المرير . اذن : من حق بدنه ، وذهنه ، عليه أن يستريح ، ويستروح ...

هو « رياضى » قديم لعب فى فرق « كرة القدم » الأولى من سنة ١٩١٠ ـ الى سنة ١٩٢٥ : فى السعيدية ... فى الحقوق ... فى فريق أسرته الخاص ... فى النادى الأهلى ... ثم هو سباح ماهر ، ولاعب تنس ماهر ، فاز بالجوائز الأولى فى سنة ١٩٢٦ ... ثم هو صحفى يرأس تحرير مجلة مصورة كبرى ... ثم هو مذيع هز الخواطر عامين متواليين حتى هذا التاريخ ...

كل هذه المؤهلات أتاحت له أن يرحل الى برلين حيث كانت الألعاب الأولمبية أو أعظم مهرجان رياضى عالمى دولى شهده العالم ، وسيشهده ... وسوف يشهده !

أتاحت له هذه المؤهلات : شهادةصحفية ، ورياضية ، أن يسافرعلى جميع خطوط السكك الحديدية بتخفيض قدره ٥٠ فى المائة ، وبحساب « للمارك الألمانى » الرجستر بنصف قيمته ـ غير الامتيازات الأخرى العديدة التى يحق لحامل هذه المؤهلات أن يستمتع بها ...

وصل الى جنوا فى يوم الاثنين ٢٧ يولية سنة ١٩٣٦ ، وذهب فورا ليأخذ قطار الاكسبريس الى برلين ليدرك افتتاح الألعاب الأولمبية التاريخية . وأراد أن يستعمل حقه فى تخفيض نصف الأجرة فقال له الموظف الايطالى : « ان هذا الحق يستعمل فى ألمانيا لا فى ايطاليا ... فخذ تذكرة عادية الى أقرب بلدة ألمانية واستعمل حقك هناك ... وتلك البلدة هى « بال » ... ولما وصل الى « بال » هذه قالوا له : انها سويسرية فاذهب الى بال « الألمانية » ! .. وقطع تذكرة أخرى الى « بال الألمانية » فوصل متأخرا وبات ليلته بفندق بجوار المحطة ...

ولما أصبح الصباح أراد أن يحاسب الفندق بحساب المـارك المخفض فقالوا له : « لا ! البلد سويسرية . والمحطة ألمانية » ! وسوّى مشكلته وذهب الى المحطة الصغيرة وتقدم الى عامل التذاكر فطلب منه قطع تذكرة الى برلين بتخفيض ٥٠ فى المائة حسب الوثيقة التى يحملها وتبيح له ذلك التخفيض ...

ــ الموظف لا يفهم شيئا ! .. لم تصـله تعليمـات ! .. لا يريد أن يخفض ! ! .. ميعاد القطار الأخير قبل الافتتاح يقترب ... لم يبق على ميعاد وصوله الا نصف ساعة ... لا أحد فى المحطة يفهم الانجليزية أو الفرنسية وهو لايعرف الألمانية ، جن جنونه ! .. باقى على ميعاد وصول القطار ثلث ساعة ! ماذا يفعل ؟

ألقى بشنطه على الرصيف ! وتظاهر بالتشنج ! ومزق قبعته اربا اربا ! ونكش شعره ! ومزق كرافتته وياقته ! ثم بدأ يخطب بالعربيـة الفصحى خطبة كلها سباب وشتائم ! ويترجمها باشارات وحركات وايماءات يستفاد منها أنه رياضى ! وان له تخفيض ٥٠ فى المـائة فى أجرة القطـار ! وان الفرصة ستضيع منه ! وانه لايجوز أن يعامل ضيوف ألمانيا هذه المعاملة ! وازدحم الرصـيف بالمتفرجين على ذلك المخلوق العجيب ! وانقســموا فريقين : فريقا يؤيده وفريقا يعارضه ! وأخيرا تطوع « ترجمان » يعرف ــ بالكاد ــ بعض الانجليزية فترجم « لناظر المحطة الصغيرة » ، وتردد هذا كثيرا ثم أقبل على الرياضى العجيب فقبض منه نصف الأجرة ، ولكنه لم يعطه « تذكرة » وانما أعطاه « ورقة » وأفهمه أنها تقوم مقام التذكرة ... وأعطاه « خطابا مقفولا » ... وأفهمه ما يأتى :

ــ يقدم « الورقة » أولا للكمسارى أو مفتش التذاكر ... فان لم يقبلها يقدم له « الخطاب المقفول »

وانتهت المشكلة . ووصل القطار ، وركب ...

وبعد لحظات وصل مفتش التذاكر فنفذ التعليمات : أعطاه ــ أولا ــ « الورقة » التى تقوم مقام « التذكرة » فأرغى مفتش التذاكر وأزبد ،

وهدد وتوعد ، وأشار بانزاله من القطار عند أول محطة بعد تحرير المحضر

وعند ذاك قدم له « الخطاب المقفول » ففضه ، وقرأه ... ثم قـرأه ... ثم نظر اليه وحدق فيه وقرأه ... ثم انقلب فجأة فأخذ يبتسم ... ويلاطفه و « يطبطب عليه » ... ويعتذر اليه ... وانتهت الأزمة !..

وبعد ساعات مر مفتش تذاكر آخر. فأعطاه الورقة الأولى فثار وهاج ! وأرغى وأزبد كزميله . فأعطاه « الخطاب » فلم يكد يقرأه حتى ابتسم ... وطبطب ... واعتذر ... وتركه مسرعا الى حيث لايعود ...

وهكذا ... وهكذا ... تكررت الحكاية خمس مرات وصاحبنا لايدرى سر هذا الخطاب ، ولا سحره ! !

ولما وصل الى برلين ذهب — توا — الى المفوضـية المصرية ، وقابل وزير مصر المفوض « نشأت باشا » وروى له الرواية العجيبة ، ودفع اليه بالخطاب العجيب ذى السحر العجيب ... وحاول « نشأت باشا » أن يقرأ فاستعصى عليه لأنه مكتوب باللغة الأهلية . فاستدعى سكرتيرته الخاصة وكلفها بقراءته ... والفتاة التى كانت تضطرب أمام الوزير تقرأ ... ثم تجفل ... ثم تضحك ... ثم تهش ...ثم تكش ... و «نشأت باشا» مندهش غاية الدهشة ، سألها بعنف : « ماذا ؟ »

فهمست فى أذنه همسـات . فأمرها بالانصراف ، ثم اندفع يضـحك ضحكا عاليا ... ثم التفت اليه وقال : اسمع ياسيدى ترجمة الخطاب :

« حامل هـذا الخطـاب مصرى مجنـون ... قوى ، وشرس ، يجب الاحتراس منه ...

« عاملوه بكل لطف ولا تثيروه حتى يصل — فى ستين داهية — الى برلين ... » « رولف »

« ناظر محطة بال »

وهكذا نجحت مظاهرة الجنون فى محطة بال وكان لها الفضل فى وصوله — سالما وفى الميعاد — الى برلين ...

لا !.. لا لا !.. مستحيل !..

لن يشهد العالم ــ أبدا ... ــ مهرجانا دوليــا كمهرجان الألعــاب الأولمبية فى برلين سنة ١٩٣٦

الذين زاروا بعد ذلك انجلترا ، وفنلندا ، فى « الأولمبياد » يشهدون بذلك ... مستحيل !

لم يكن « أوليمبيادا » وانما كان مظاهرة سياسية دولية ضخمة عاتية جبارة ! استعدادا عديم النظير ! نظاما هو نظام المعجزات ! ضيافة فاخرة فيها الكرم والتكريم .. فيضانا ..! عظمة ..! عظمة ..! عظمة ..!

ماذا يدون الكاتب ؟ وماذا يدون المسجل ؟ والمؤرخ ؟

ــ برلين ذات الأربعة ملايين أصبح عدد سكانها ستة ملايين !

ــ حجزت الفنادق ، والبنسيونات ، والمساكن الخاصة للضيوف ...

ــ كل فتيات برلين ، فتيانها ، تحت أمر الضيوف للارشــاد والخدمة والتوجيه ...

ــ مكاتب الاستعلامات فى كل شارع وميدان وعمارة ...

ــ كل بلكونات البلد مزينة بالزهور وبلافتات الترحيب بالضيوف...

ــ أمر عام بتخفيض أجورالسكن ، والأكل ، والحاجات ، والمشتروات

كانت مظاهرة دعاية وسياسة كبرى عديمة النظير ...

وفى الملعب الكبير وحوله يتراص مليون متفرج لم تحدث بينهم حادثة واحدة ، ولا كلمة نابية واحدة ، ولا مشاجرة واحدة ، ولا تزاحم على محل واحد ، معجزة ! معجزة ! معجزة !..

وتتصل المخابرات الألمانية ، بالأستاذ شكرى فى مسكنه :

ــ حضرتك الصحفى المعروف ؟.. هذه بطاقة مرور اتّى شئت وأين شئت ! ــ هذه سكرتيرتك الخاصة ! ــ هذا « تليفونك » ! ــ هــذا ترخيص بمجانية برقياتك ...

ـ حضرتك مذيع فى الراديو ...

لقد حجزنا لك ٢٠ دقيقة لتخاطب بلدك بلغتك العربية ...

ـ هذه دعوة عشاء مع « هتلر » ... غداء مع « جيبلز » ... سهرة مع « جيرنج » ...

ـ هـذه مدالية تذكارية لأشهر المذيعين فى العالم ... الى آخره ... الى آخره ...



والى القارىء لونا من ألوان « المذكرات اليومية » التى ننصح بها . عندما تقرأها بعد عشرين أو ثلاثين أو أربعين عاما ... أو بعد نصف قرن ... تشعر بحياتك تتجدد !

وعمرك يرجع القهقرى ! وشبابك يبعث من جديد !..

كتب الأستاذ شكرى بالترتيب :

الأحد ٢ أغسطس سنة ١٩٣٦ :

استقبلنـا الدكتور محجوب ثابت على قطـار الشرق ، أراد أن ينزل شنطته الكبيرة فحطم لوح البنور الكبير الذى يساوى مبلغا كبيرا ! تجمع الناس وأراد الموظف الألمانى أن يغرمه فرفض ! ثم وقف وسط الجميـع وألقى بالألمانية خطبـة رنانة خلاصتها انه ضيف مصرى ! وانه سيجتمع الليلة ـ بالذات ـ مع هتلر فى مؤتمر « الأطبـاء الرياضيين » ! وانه لايجوز أن يدفع غرامة !..

وقد أمن الجميع على أقواله ، وصفقوا له طويلا ... ولم يدفع «ماركا» واحدا !..

ذهبنا معه « للبنسيون » وطلب الى الخادمة الألمانية الجميلة الصغيرة أن تكوى له بدلة السهرة « الاسموكن » فبحثنا عنها طويلا فى الشنطة . واذا بها رثة ، قديمة ، مهلهلة . ولبسها ! أى والله لبسـها ! ثم أمر الفتـاة بأن تكويها على جسمه ! لأن الوقت أزف !

ودهشت الفتاة ودهشنا . ولكنه أصر ! فحدثت أول حادثة فى التاريخ من نوعها ، وكوت الفتاة البدلة على جسم الدكتور !..

وبعد السهرة رجع الى « البنسيون » فلم يفتح البـاب بمفتاحه الذى معه . وانما صفق ، وصفق ! ففتح له البواب وهو يتميز غيظا ! وفتح باب غرفة غير غرفته ، وأضاء النور ، وبدا بذقنه ، وبدلته الرسمية ، وعصاه ، وجرائده ، ومجلاته ، واذا « بفتاة فاتنة » تهب مذعورة من نومها . كانت نجمة سينما المانية . وأخطأ الدكتور محجوب فاقتحم غرفتها بعـد نصف الليل ! وهرولت صاحبة « البنسيون » وسكانه ، واحتجوا بشدة ، فكان اعتذاره : «لماذا لم تضعى حذاءك على الباب لأعرف أن الغرفة مسكونة ؟ !»

***

الأربعاء ٥ أغسطس سنة ١٩٣٦ :

كانت ليلة ! رفعنا فيها الرؤوس عالية ! يالك من بطل يا «خضر ياتونى» ... كان « هتلر » و « جيرنج » و « جيبلز » معنا حتى الساعة الرابعة صباحا . وكان فى فرقتنا من المتفرجين « حسان » بطل « الجسد » فى العالم ! كلما رفع « الهولندى » الحديد الضخم قلنا « لحسان » :

ـــ اضربه عين !..

فيضربه « العين » فتقع منه الحديدة !

وهكذا الفرنسى ، والفنلندى ، والانجليزى !

أما البطل المصرى « خضر التونى » فكان يقبض على الحديدة ويقول : « ياســيدة زينب ! » ويرفعها فترتفع بقــدرة قادر ! وكلما ضرب رقم الألمانى الذى صمد معه ، كلما تشنج « هتلر » بحركاته العصبية ، وأخــذ « جيرنج » يلكزه من شدة الغيظ . وانتصر « خضر التونى » انتصــارا باهرا ، وفاز بالمدالية الذهبيــة ، ورفع العلم المصرى تكريما له ولأمته . وأنشد الجميع النشيد الألمانى كالتقليد المتبع ...

الخميس ٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ :

هزم « النمسويون » الفريق المصرى . « الكابتن مختــار » يخرج من

الملعب بسبب اصابته . وبالطبيعة كانت الهزيمة !..

أحبتنى « مرجريت » بائعة « الفوريرات » فى أعظم محل ببرلين . كانت تبيعه لى بتخفيض خاص ٤٠ فى المائة ! وباعت بالتخفيض عينه لكل المصريات اللواتى معنا اكراما لى ...

ضربتنى آخر السهرة « بمفتاح » شقتها لسبب تافه ! وسال الدم..فبكت بكاء مرا ، ولفت الجرح بلفافة كبيرة من القطن والشاش !..

الجمعة ٧ أغسطس سنة ١٩٣٦ :

كان أخى يحلق ذقنه ، وفتح فمه فاذا به يرى كيسا دهنيا كبيرا تحت لسانه . ذهبنا للدكتور فأزاله ولكنه أمهلنا ساعات لتحليله حتى يطمئن الى انه ليس بخبيث ... وانتظرنا قلقين مروعين . ولكن الحمد لله ...

السبت ٨ أغسطس سنة ١٩٣٦ :

اشترى « يوسف الشريعى » كلبا ألمانيا ، وسحبناه أمام أكبر محل « كرانسلر » ، وأكبر شارع .. فعطل المرور ! وعانينا من البوليس ما عانينا ، ويوسف يرد بالعربية قائلا :

ــ دهده ! حاتعملوا « عجلكم » « بعجل » الكلاب ! غوروا جاتكو داهية ...

الاحد ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ :

حفلة الوداع ... الختام

يالها من حفلة ! .. أضاء الألمان «الاستاد» الكبير الذى مساحته ثلثمائة فدان بالأنوار على شكل الكنائس الكبرى وعلى ارتفاع كبير . وشيعت « الراية الأولمبية » باخراج هائل ! مائتا فرقة موسيقية تصدح بانسجام ! ١٠ر٠٠٠ طفل وطفلة يمثلون وداع الأولمبياد ثلاث ساعات متواليات ...

كان المنظر مؤثرا جدا فبكت الآلاف المؤلفة وأخذت تقبل بعضها بعضا وتقول : « الى اللقاء ... »

الأحد ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٦ :

وصلت الى بروكسل عاصمة بلجيكا منذ يومين ، دعانى صديقى « اسكندر الوهابى » الى مشاهدة « واترلو » حيث وقعت المعركة التاريخية الكبرى التى هزم فيها « نابليون بونابرت » هزيمته الكبرى التى كانت ختام مجده وسلطانه . ولقد شرح لنا الحارس المختص سير المعركة ساعة بعد ساعة حتى لوى « بونابرت » عنان جواده هاربا الى باريس بعد أن ودع قواده وداعا مؤثرا وسط هتاف الحرس الأمبراطورى بحياة الأمبراطور ...

هذا لون من ألوان « المذكرات اليومية » سردناه سردا سريعا حسب ما ورد بالحرف فى يوميات أستاذنا شكرى ...

وكان قد تعرف الى فتاة بلجيكية صغيرة اسمها « اوديت » تجيد الانجليزية ، وذهب معها الى رحلة فى المصيف العالمى المشهور « اوستاند» وبينما هوجالس معها فى يوم الاثنين ٢٤ أغسطس تقرأ له جريدة «التيمس» اذا بها تقول : « ان زعماءك سيوقعون المعاهدة المصرية الانجليزية يوم الأربعاء ٢٦ أغسطس » ...

لم يكد يسمع هذا الكلام حتى وثب مقررا السفر ليحضر توقيع المعاهدة كصحفى قبل كل شيء . وتعلقت الفتاة بأذياله ملحة فى السفر معه ، ولكن ظهر أنها دون سن الرشد فاستحال سفرها

ووصل الى لندن فى يوم الاثنين بالذات ونزل فى فندق «ماونت رويال» ولما قيل له انه لابد من لبس البدلة الرسمية « البونجور » مع « القبعة العالية » استأجرها فى اليوم التالى وكأنها فصلت عليه تفصيلا . وقابل النحاس باشا فقدمه الى قرينته الذكية اللماحة فهمست فى أذنه قائلة :

ـ طبعا انت حزب وطنى .. وسوف تنتقد انتقادا مرا .. فمن فضلك ابقى « لايمها شوية » ...

وفى صباح الأربعاء ـ ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ ـ ارتدى «البونجور»

و « القبعة السوداء العالية » متجها الى قاعة « لوكارنو » وفى مدخل البناء تزاحم عليه المصورون يلتقطون صورته على أنه « أغا خان » اذ كان يشبهه تماما وخصوصا فى بذلة البونجور ...

وأخذ كل منا مقعده فى قاعة « لوكارنو » ، وفى الساعة الحادية عشرة تماما دخل ماكدونالد ، وايدن ، وأعضاء الوفدين ، وألقيت خطبتان تقليديتان ووقعت المعاهدة !

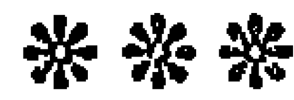
وأقيمت الحفلات ومنها الحفلة الكبرى فى السفارة المصرية فى يوم الخميس ٢٧ أغسطس ...



الشعب ؟ !

تلقت مصر أنباء معاهدة الصداقة والشرف ! ! أى والله معاهدة الصداقة والشرف ... بعدم اكتراث ! وهز الشعب الأكتاف فلم تنطلق يد بالتصفيق ... ولا حنجرة بالهتاف ... ولا لسان امرأة واحدة بالزغاريد ! وجوم !..

ولكن الدعاية الحزبية تستطيع بما لديها من وسائل ومؤهلات أن تطلق الأيدى بالتصفيق ، والحناجر بالهتاف ، والألسنة بالزغاريد ! وعاد الوفد وحلفاؤه الدستوريون والشعبيون والاتحاديون والمستقلون وسط المهرجانات ، والموالد ، و « الزفف » وحلبات رقص الخيول... والآدميين!



وما أعجب الشعب المصرى وأغربه ، وما أمتعه وأطربه ، حاولت كل حياتى السياسية أن أحلله فعجزت ! نعم : عجزت !

ــ أهو طيب القلب سليم الطوية ؟ نعم : هو طيب القلب سليم الطوية متى وثق جرى لايلوى على شىء ...!

صحيح انه طيب القلب سليم الطوية ! !

ــ ولكن : أهو متقلب يلتف حول الوفد تارة ، وحول الدستوريين تارة أخرى ، وحول الاتحاديين والشعبيين حينا ، وحول المستقلين أحيانا ؟ نعم : حصل ! أكان مخلصا ؟ أم منقادا ؟ أم مضطرا ؟ ! أم لاعبا عابثا بهؤلاء جميعا ؟ !

والله لست أدرى ! وانما الذى أدريه أن الشعب أثبت فى الملمات ، وفى الأزمات ، وفى الأيام السود ، ان معدنه أصيل !

هو وحده ! الذى استقبل الرصاص فى سنة ١٩١٩ فلم يصرع زعيم ، ولا نصف زعيم ، ولا ربع زعيم ! !

وهو — وحـــده ! — الذى ضحى بالأرواح فى الاضـــطرابات وفى المذابح الانجليزية من سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٥٢ !..

وهو — وحده ! — قبل ذلك الذى سيق سوقا الى الصحراء الغربية ويعلم الله كم من الآلاف غيبتهم الرمال ، وقصفت أعمارهم الشمس !..

وهو — وحده ! — الذى كان يلقى العسف والاضطهاد فى الأقاليم فكان يدفع ويؤدى ضريبة الدم وضرائب الغرامات من عرق جبينه ، ومن قوت عياله !..

كان الشعب المصرى ملبيا ، كانت ثقته بزعمائه فى محلهـــا . فلما عبث الزعماء بالثقة وبه ضن بها فمنحها بلسانه . ولم يمنحها بقلبه ووجدانه . فماتت روحانيته . وذوت معنويته . فسخر من الأحزاب جميعا ! وضحك على الأحزاب جميعا ! واستخدمها جميعا ! ولم يتحرك الا اذا كان الطريق آمنا . والسير فيه مأمونا ! !

هذا هو الشعب ... أو هذا هو اللغز ...

والشعب معذور ... أمل فخاب الأمل !.. ورجا فخاب الرجاء !.. ووثق فضاعت الثقة !.. فهز الأكتاف ... أو نام ...

« معاهدة الصداقة والشرف » !

نظرت معاهدة سنة ١٩٣٦ فى شهر نوفمبر من ذلك العام . وقد أجاد المتكلمون — والحق يقال من الناحية البرلمانية — برفع النظر عن قيمة الكلام.

ونحن نسجل هنا — للتاريخ — بعض ما ورد فى معارضـــة صاحب هذه القصة . فقد يجد القارىء فيما قاله بعض « التنبـــؤات » التى صدقت ، وبعض الهواجس التى تحققت ، وبعض ما أثبتت السنون أنه صحيح ... قال :

— حضرات النواب المحترمين ...

« انى وان شاطرت زميلى الصوفانى والأستاذ جلال عضوى الحزب

الوطنى رأيهما من ناحية العقيدة والحزبية ، الا أن لى مصلحة خاصة فى الاعتراض على ما ورد بمشروع المعاهدة خاصا بالنقطة العسكرية .. فقد نكبت مديريتى ، وهى اقليم الشرقية بالاحتلال العسكرى وأصبحت أنا وزميلى الأستاذ على أيوب وصالح عيد من نواب المعسكر ، لهذا أرجو أن تتسع لى صدوركم اذا تحمست ، فالموقف دقيق ، ويدعو الى الشفقة . وقد ألفتم جميعا مواقف المعارضة . ولا شك أن دولة النحاس باشا كان يقف موقفى هذا لو ان الاحتلال كان يتناول مديريته ، اقليم الغربية . أما معالى مكرم باشا نائب قنا وغيره من حضرات النواب فهم يمثلون بلادا بعيدة كل البعد عن المعسكر الذى شاء القدر بأن يلقى على صدورنا ، ويكتم أنفاسنا لمدة لا تقل عن عشرين سنة ، لذلك أرجو أن تساعدونى على أن أكون واضحا فى كلامى ، منطقيا معتمدا دائما على النصوص ..

« ان أول بحث أريد أن أتناوله بالكلام هو ما سماه معالى مكرم باشا « الوثيقة والحقيقة » وانى أرى أنه من العبث أن نبحث هذا الموضوع بحثا فقهيا يدور حول : هل مشروع المعاهدة المعروض استقلال أوحماية ؟ لأن هذا يلزمنى حتما بأن أرجع الى رجال الفقه ، ورجال الفقه كما تعلمون باعهم طويل وصبرهم أطول . وحسبهم أن ينكب الواحد منهم على دراسة كتب الفقه.. وسواء لديه أكان تاريخ هذه المؤلفات يرجع الى القرن الثالث أم العاشر أم السادس عشر أم العشرين . فلنكن عمليين اذن ، خصوصا فى عصرنا هذا ، عصر السرعة ، وقد عانت الأكثرية كثيرا من جراء الرجوع الى هذا الفقه الملتقط المتصيد ، فقد وضع لمصر دستور — غير دستورها الذى ارتضته — اصطيدت مواده من دساتير لتوانيا واستوانيا وبلجيكا . وقد كان هذا الدستور محلا للكراهية ، فقاومته البلاد ، حتى سلم أصحابه بالنزول عنه ...

« الواقع ياحضرات النواب المحترمين ، انه يجب أن ننظر الى المعاهدة على أساس انها عقد ، فيه حقوق ، وفيه التزامات ، لا على اعتبار أنها استقلال أو حماية ، وواجبنا كوطنيين يقضى علينا أن نتبين أى الكفتين

هى الراجحة ، كفة الالتزامات أو الأعباء أم كفة الحقوق . واذا استطعت أن أثبت لحضراتكم ان كفة الالتزامات هى الراجحة وهى الثقيلة حقيقة حكمتم معى حتما برفض هذه المعاهدة ... انه من العبث أن أقول لكم ما قاله المشرع الانجليزى الكبير لورنس من أنه « من موجبات الحماية أن يكون للدولة الحامية الحق فى السيطرة على ما كان مهما فى جوهره من العلاقات الخارجية .. أما المسائل الداخلية البحتة فتكون السيطرة عليها للحكومة المحمية ». يقول أيضا أحد الأساتذة أن مدة كل ما ورد بالمعاهدة من قيود — كمعسكرات ومطارات بريطانيا الخ — هى مدة بسيطة لا تزيد على العشرين سنة ، وأبلغ الآن التاسعة والثلاثين أو الأربعين من العمر ، فلن يطول بى الأجل لأرى جلاء القوات الانجليزية عن الشرقية

« ومن الغريب ياحضرات النواب ، ان اقامة هذه القوات تعد من الوجهة القانونية والفقهية من قبيل الضيافة !

« وهذا ما لا يليق بنا أن نسمعه ، لأن الواجب يقضى بأن تشجعونا على أن نكون عمليين كما تشجعون النشء على أن يتلقى فنا عصريا عمليا ليس الغرض منه خدمة الأهواء .

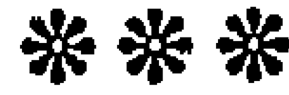
« هذه هى أقوال الفقهاء ، يطلقونها اطلاقا من وجهات علمية بحتة ، وبعضهم أصحاب مؤلفات ، بينما بعضهم الآخر يرمى الى خدمة أغراض وأهواء معينة . ولم يعرض على أحدهم هذا العقد — أعنى المعاهدة المصرية — ليقرر ان كان حماية أو استقلالا ، ولكن عندنا فقهاء عمليون أحسوا بالخطر بقلوبهم فحكموا على النقطة العسكرية حكما ، هو وليد التجربة والعلم. وهؤلاء هم زعماؤنا وعلى رأسهم زعيمنا الخالد المغفور له سعد زغلول باشا ، وانى لن أقتصر على ذكر فقرة واحدة من أقوال زعيمنا الخالد كما فعل زميلى عزيز أباظة ، بل سأذكر لكم كل ما صرح به فى هذا الصدد . قال رحمه الله فى حديثه بجريدة الديلى هيرالد : « ان مستر ماكدونالد أثار مسألة القنال وأصر على بقاء الجنود البريطانية لحمايتها ، فلم أستطع أن أقبل هذا الطلب للأسباب الآتية :

أولا ــ ان هذا الطلب لايتفق واستقلال مصر

ثانيا ــ لأنه بمقتضى اتفاقية ١٨٨٨ الخاصة بحيدة القنـال لايمكن أن تحميه بريطانيا وحدها »

وقال فى خطبة أخرى : « ليس هــذا استقلالا لأن بلدا يكون ممرا ومعسكرا لجنود دولة أخرى لايمكن أن يكون مستقلا ، لا تقبل بعد أن ضحينا بتلك الضحايا ، ولا يحل لنا ولا لمن يأتى بعدنا أن يسمح بأن يكون على أرض مصر عسكرى أجنبى واحد »

« هذه هى أقوال فقيهكم وزعيمكم الذى مارس مهنة الفقه والزعامة بعظمة وجلال



« انتقل بعد هذا الى بيان ، لمصلحة من استؤنفت المفاوضات الأخيرة ؟ ان الذى دفع الزعماء الى التشدد فى طلب المفاوضة هو الشباب المصرى الذى ضحى بحياته ، وأريق دمه فى الشوارع فى سبيل البت فى المسألة المصرية لأن الظرف الذى كان قائما وقتئذ (نوفمبر سنة ١٩٣٥) كان أنسب الظروف وأصلحها لمصر ، اذ راجت فى ذلك الوقت الأقاويل بأن الأمبراطورية البريطانية مهددة محرجة ، وقد ضاعت كرامتها فى عصبة الأمم من جراء استمرار ايطاليا فى غزو بلاد الحبشة . وقد ثارت الخواطر لمـا صرح سير صمويل هور ردا على الدعوة للاتفاق بأننا « نلبى صــوت الواجب عند حلول الوقت لوضع علاقاتنا مع مصر على أساس دائم »

« هذه الكلمات الثلاث « عند حلول الوقت » أشعلت فى البلاد نارا تشبه نار الثورة ، فبادر دولة النحاس باشا بالرد على السير صمويل هور فى خطابه فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ « ان الأمر أصبح لايقتصر على مطلبنا الدستورى وحده بل يستلزم تصفية الموقف كله على أساس الاتفاق مع مصر »

« كنا نظن ان توتر الحال بين ايطاليا وانجلترا واضطراب الحالة الدولية

فرصة ، فاذا بها غصـــة وأصبحنا الخاسرين ، بدلا من أن نكون الغـــانمين الغالبين ...

« انى فى الواقع ياحضرات النواب لا أفرق بين أصحاب الدولة النحاس باشـــا ومحمد محمود باشـــا واسماعيل صدقى باشا كمفاوضين ، فكلهم يحكمون حكما واحدا ، وقد وافقوا على المعاهدة ووقعوا عليها . فاذا قال بعد ذلك حزب : ان المعاهدة لا تحقق أمانى البلاد ولكننا نقبلها وأمرنا لله ، فلا شك أن يُفهم من هذا ان هذه المعاهدة لايصح قبولها . واذا صـــرّح حزب آخر بأن المعاهدة قابلة للتعديل فانى من غير شك أفهم أن الحزب ليس براض عنها . فبعد ذلك لا أكون متجنيا على زعمائنا اذا قلت بكل احترام لحضراتهم :

« انكم أتيتم لنا بأسوأ مما جاء عن النقطة العسكرية فى المفاوضـــات السابقة »



ولا شك انه يترتب على نفاذ هذه المعاهدة أن يصبح كل عدو لبريطانيا العظمى وكل طامع فيها أو ثائر عليها عدوا لنا ...

« كذلك نجد أنفسنا مضطرين الى مساعدة حليفتنـــا انجلترا فى حالة قيام حرب بينها وبين ألمانيـــا التى تريد استرداد مستعمراتها وقـــد بلغ استعدادها الحربى مبلغا هائلا

« ما هو الداعى لجعل هذه المحالفة أبدية خالدة مع انجلترا ؟ لقد قيل أننا أمة ضعيفة ، ونخشى هجوم الدول علينا ، فما هذا المنطق؟ هل كل أمة ضعيفة عرضة لالتهام دولة أخرى قوية ؟

« واذا قيل ان المعاهدات الأبدية غير معروفة فى القانون الدولى ، فما هى الحكمة اذن من النص على الأبدية فى هذه المعاهدة ؟

أما النكبة الكبرى فهى ما تضمنته المادة السابعة من المعاهدة ، من أنه عند اشتباك أحد الطرفين فى حرب ، وجب على الطرف الآخر أن ينجده بصفته حليفا . وتنحصر معاونتنا فى أن نقدم الى قوات صاحب الجـــلالة

الملك والأمبراطور جميـع التسـهيلات والمسـاعدات بما فى ذلك الموانى والمطارات ، وطرق المواصلات، واعلان الأحكام العرفية . وهذا تغلغل أبدى لا فى مسائلنا التشريعية فقط ، بل فى مطاراتنا ومواردنا وأرزاقنا وأقواتنا وأبنائنا الى الأبد لا فى حالة الحرب فقط ، وانما فى حالة شبهة الحرب ، أو قيام حالة دولية

« انتقل بعد ذلك الى الثكنات العسكرية ، ولم تقتصر نصوص المعاهدة هنا على وجوب انشـاء ثكنات عسكرية فى منطقة القنـال لعشرة آلاف جندى وما يتبع هذه القوة ، من خدم وعمال فنيين وطيارين ، بل طلب الينا أن ننشىء الحدائق المنسقة ، والمنازل للمتزوجين، وملاهى ومستشفى للنقاهة. يجب لكى نعطى رأيا صـحيحا أن نعرف ثمن هـذه المعاهـدة ، ولكن المفاوضين قبل التوقيع على المعاهدة لم يعنوا ببحث هذه النفقات

حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء ــ أطلب الكلمة

رئيس المجلس ــ أرجو اذا وافق دولة الرئيس أن ينتظر قليلا حتى يتم حضرة النائب كلامه

« احتراما لدولة رئيس مجلـس الوزراء لا أريد أن أطيـل فى هـذا الموضوع ، وقـد أوضحت لحضراتكم بعض ما انتاب هـذه المعاهدة من نقص وما بذل حولها من كرم كثير فى الميزات التى وصل اليها الانجليز ، لكى نبرهن على حسن النية !.. اننى فى جميع أطوارى فى الحياة لم أكن رجلا تجاريا أقصد النقد لغرض ، ولكنى أحكم المنطق وأحكم النص . لذلك أرجو من حضراتكم أن توافقونى على رفض المعاهدة »

وعندما انتهى من القاء خطابه حدث ضجيج وعجيج وصخب ورد عليه النحاس باشا ... وكثيرون كثيرون . ويجب أن نذكر للحقيقة وللتاريخ أن زعيم الأحرار الدستوريين محمد محمود باشـا كان فى كلامه ساخطا على ما ورد فى المعاهدة خاصا بالنقطة العسكرية ، كما نذكر للحقيقة والتاريخ أن أستاذنا أحمـد ماهر كان سـاخطا كل السخط على النص الخـاص بالسودان ...

وأخذت الأصوات فوافق على المعاهدة ثلثمائة واثنان فى مجلس النواب وعارضها أحد عشر، هم : محمد عزيز أباظة ــ عبد العزيز الصوفانى ــ محمد محمود جلال ــ الدكتور عبد الحميد سعيد ــ مصطفى فودة ــ محمد عبد الجليل أبو سمرة ــ الدكتور محمد بهى الدين بركات ــ حسن شعراوى ــ هرون أبو سحلى ــ فكرى الصغير ــ وصاحب هذه القصة

أما فى مجلس الشيوخ فكان المعارضون هم :

محمد حافظ رمضان ــ محمد على علوبة ــ وهيب دوس ــ ابراهيم الهلباوى ــ أحمد محمد خشبة ــ حافظ حسن ــ حسن صبرى ...

***

ويشاء القدر ، بعد ذلك ، بخمسة عشر عاما أى فى آخر سنة ١٩٥١ ، أن تلغى معاهدة سنة ١٩٣٦



لا ... لا ...

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين !

نحن الآن فى سنة ١٩٣٧ .. وكانت سنة طيبة .. ففى مستهلها ــ أى فى مارس ــ اجتمعت هيئة المفاوضات وكان موضوع البحث : « الغاء الامتيازات » ...

وسافر الوفد الرسمى فى شهر ابريل ...

وفى مايو وقعت مصر مع الدول صاحبات الامتيازات اتفاقية مونتريه

كان نجاحا . ونجاحا باهرا لا شك فيه . كان « الاستقلال التشريعى » أشرف من الاستقلال السياسى المزيف وأصدق !

كان تحريرا للكرامة الوطنية ، وللقوانين المصرية ، وللمالية والشئون الاقتصادية ... وظفرت البلاد بحرية « فرض الضرائب » فاسترد الوطنى المصرى اعتباره . وأصبح على قدم المساواة مع الأجنبى وقفزت الميزانية المصرية وتابعت قفزها فبلغت أكثر من مائتى مليون من الجنيهات مقابل عشرين وثلاثين ! !

واستطاعت الحكومات الوطنية أن تنفذ مشروعات الاصلاح الكبرى التى كانت تشلها الامتيازات ...

وعاد النحاس « باشا » رئيس الوفد المصرى متوجا بأكاليل النصر ! فاستقبلته البلاد هو وزملاءه استقبالا تاريخيا عديم النظير ! كانت الحفاوة من قلبها ومن وجدانها ومن ذمتها وضميرها !

وهرول الأستاذ شكرى اليه يهنئه . وربما قبله ، ثم شد على يديه وقال له :

ــ عندى كلمة من قلبى ...

قال النحاس « باشا » : « قل ... »

قال شكرى : « أنظر يا باشا ... هذه الملايين كلها تحييك تحية من الأعماق لا نفاق فيها ! وقد تزعمت ورأست خصومك السياسيين ! وقد غزوت فى تاريخ حياتك غزوة مونتريه الموفقة الكاملة النجاح ! انت اليوم أبو الوطن ! ألا ترى أن الفرصة قد حانت لتؤلف وزارة قومية تضم جميع الأحزاب كما ضمت المفاوضات جميع الأحزاب ، لتبدأ عهد البناء والتشييد والترميم بعد المعاهدة والاتفاقية ؟

لم يكد شكرى يتم كلامه حتى ثار النحاس ثورته المعهودة وقال : « لا لا ! لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ! »

ولم ييأس الشاب فاستطاع أن يقنع المغفور له محمد محمود باشا بأن يحمله رسالة الى النحاس « باشا » تتضمن بعض القواعد الأساسية لحكومة قومية . وفى كازينو سان ستيفانو والنحاس « باشا » يسير سيره التقليدى، أسرَّ اليه الأستاذشكرى بالرسالة التى يحملها من محمدمحمود باشا فلم يكد يستمع حتى ثار نفس الثورة ، ورفض نفس الرفض !



تولى الملك فاروق سلطته الدستورية بعد عودته من أوربا فى يولية سنة ١٩٣٧ ، وبذلك انتهت مهمة مجلس الوصاية ، على أن أكرم وأهم ما حدث فى هذا العام هو عودة الجيش المصرى الى السودان بعد ثلاثة عشر عاما ، وبهذا استردت البلاد اعتبارها فى الجنوب ... وحدث الخلاف المشهور بين الوفد المصرى والمرحوم المغفور له النقراشى « باشا » فقرر فصله . وأحدث الفصل ضجة كبرى فى جميع أنحاء البلاد

ولم يعكر الصفو فى هذا العام الا ما حدث فى نوفمبر من تقديم عريضة محمد محمود « باشا » لجلالة الملك باسم المعارضة عن سوء الحالة السياسية وعما تعانيه البلاد من حكم الوفد . ولم يمض شهر واحد حتى حدث الانقلاب وتألفت وزارة محمد محمود « باشا » الثانية وعادت ريمة لعادتها القديمة ! ودارت معركة جديدة من المعارك الانتخابية لا نريد أن

نعيد وصف مسرحيتها لأن الشهور تزحف وراء الشهور والقــدر يدفع لا مصر وحدها ــ وانما العالم أجمع ــ الىماهو أدهى وأمر وأخطر...

الحرب العظمى الثانية !

كان النائب شكرى من النواب الذين اعتاد الزملاء أن ينتخبوه من بين ممثلى البرلمان المصرى فى المؤتمرات البرلمانية الدولية على التوالى فى سنى ١٩٣٧ بباريس ، و ١٩٣٨ فى لاهاى ، و ١٩٣٩ فى أوسلو

وندع ســنتى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ بحوادثهما وأحــداثهما ، ومآســيهما ومسراتهما ، فقد مررنا عليهما مرورا سريعا لنصل الى هذه السنة الخطيرة فى تاريخ العالم كله ! سنة ١٩٣٩ !

أبحر من الاسكندرية فى ٢٧ يولية سنة ١٩٣٩ على الباخرة « النيل » وكانت مزدحمة بالمسافرين ، ومن بين ركابها الاقتصادى المصرى الكبير طلعت حرب رحمه الله . وكان على الباخرة زميله فؤاد سلطان ، وحضر أستاذنا الكبير أحمد نجيب ، فأسر فى أذن طلعت حرب بكلام أثار اهتمامه العظيم . وفهم « شكرى » بعد ذلك أن أستاذنا أحمد نجيب كان من فرط اخلاصه يحس بأن حملة ما تزحف ، أو تتهيأ للزحف ، على البنك المصرى الكبير . وقد حدث بعد ذلك ــ بقليل أو كثير ــ ما حدث

وكان البحر هائجا مرعدا مزبدا كأنه ينذر بما خبأته الأيام ! واستحوذ الخوف على ركاب الباخرة ولكنها وصلت الى « جنوه » ثم « مرسيليا »

ووصل شكرى الى باريس فى ٢ أغسطس سنة ١٩٣٩ فلم تكن باريس المرحة الطروب التى لا تحفل بالأحداث والأخطار ! بل كانت وراء كل كلمة زفرة ، ووراء كل همسة حسرة ، ووراء كل ابتسامة وجوم ! !

ماذا ؟..

الحــالة الدوليــة مضطربة ! ألمانيا تتحدى ! الانجليز يرقبون الموقف بحذر شديد ...

وبعد منتصف الليل بثلاث ساعات وصل القطار الى برلين الرهيبة فى ٧

أعسطس سنة ١٩٣٩ ، ومن هذه العاصمة المدججة بالسلاح ، المستعدة لكل طارىء ، أحس شكرى بأن الحرب لابد آتية ! فأرسل الى مجلته عدة رسائل ضمنها تحرياته فى الدوائر العسكرية والسياسيـة الألمـانية وكلها تبدأ وتنتهى بأن الحرب العظمى الثانية على الأبواب !

وقابله بطريق الصدفة صديقه الأستاذ يونس بحرى فدعاه لاذاعة حديث فى راديو برلين وبألهام من الله ومن غير تفكير اعتذر عن القاء الحديث — ولو فعل اذ ذاك لما علم الا الله وحده ماذا كانت تكون العواقب ...

والأستاذ يونس بحرى هو الأديب العربى العراقى الكبير الذى أنصت ملايين المصريين والعرب الى اذاعاته المثيرة من برلين أثناء الحرب العظمى...

ومن برلين سافر الأستاذ شكرى وبقية أعضاء الوفد المصرى الى اوسلو عاصمة النرويج فوصلوها فى ١٣ أغسطس سنة ١٩٣٩ ...

كانت وفود المؤتمر البرلمانى من جميـع الأجنـاس تتهامس وأعضاؤها يتساءلون بلهفة عن أخبار الشبح المزعج الذى يتراءى أمامهم : شبح الحرب

وانتهى المؤتمر فى يوم السبت ١٩ أغسطس ، وأخذت الوفود تستعد للعودة الى بلادها . وبينما أعضاء الوفد المصرى وغيرهم من آنسـات وسيدات ورجال محتشدين فى بهو الفندق الكبير ، وصـل فجأة سكرتير المؤتمر البرلمانى العام وهو رجل سويسرى وقال وهو متجهم الوجه :

« أيتها السيدات وأيها السـادة : لقد زحفت الكتائب الألمانيـة الى دانزيج ! الحرب ! الحرب ! هنـاك طيـارة واحدة هولاندية تقوم باكر صـباحا — أى يوم الأربعاء ٢٣ أغسطس سـنة ١٩٣٩ — الى باريس فادركوها أو تصرفوا ! »

ووقع كلامه الرهيب وقعه الرهيب فى النفوس فبكت بعض الآنسـات والسيدات وانفرد كل وفد بنفسه ليدبر شـئونه . ووسط هـذا الخطر وفدت مضحكات لابد منها : فقد رأى البعض أن يبيع ما تملك زوجاته وبناته من جواهر من باب الاحتياط اذا تعذرت العودة الى الوطن — وفكر البعض فى العمل الذى يناسبه اذا اضطر الى العمل لكسب قوته

أثناء الحرب ـ وفكر البعض فى السفر برا الى اسـتامبول ومن هناك بطريق البحر أيضا الى مصر ـ ولكن الاجماع أوشك أن ينعقد على أن البقاء فى النرويج المحايدة التى لايمكن أن يهاجمها أحد هو الرأى الأصوب والأحكم ! !

ويشاء القـدر أن تكون « النرويج » هى أول بلد يحرق حيـادها وتكتسح ... وتدافع أعضـاء الوفد المصرى نحو الطـائرة الهولاندية الوحيدة فحجزوا محلاتهم الى « باريس » وهم فى فزع وجزع شديدين !

ووصلوا الى باريس يوم الأربعاء ٢٣ أغسطس فلم يجدوا باريس ! ! نعم لم يجدوها بل وجدوا المدينة الضاحكة الصاخبة الساهرة السـعيدة مدينة مكفهرة ، موحشة ، قلقة ، باكية ، تعسة !..

وبكل جهـد جهيـد استطاع المصريون أن يجدوا بعض القطـارات فهرولوا اليها فى طريقهم الى مرسيليا ، فوصلوها بعد عناء طويل وعنيف

كانت الفرق الفرنسـية المعبـأة تنزل الركاب من القطـارات لتحتل أمكنتهم . وكان بعض الجنود الفرنسيين يذرفون الدموع من فرط الهلع. وعجبت مرسيليا بالمصريين الذين زحفوا من كل ناحية ليدركوا البواخر فبلغ عددهم ألفا وخمسمائة ! فضلا عن الجنسيات الأخرى ! وقضى أكثرهم الليل يفترشون الأرصفة وموائد القهوات لعدم وجود أمكنة فى الفنادق!

وكانت الباخرة « النيل » فى الانتظار تنتظر الأوامر . واتصـل قائد الأسطول البريطانى بالمرحوم طلعت حرب ينذره بوجوب سير البـاخرة فى حراسة الأسـطول البريطانى مع تغيير الطريق بحيث تحاذى شـاطىء شمال أفريقيا بقدر الاستطاعة . وحدثت مناقشات حادة حامية بين بعض كبار المصريين فى وجوب ، أو عدم وجوب اتباع تعليمات قائد الأسطول البريطانى، وكان فؤاد أباظة وبعض من يرون رأيه يتمسكون بوجوب سير الباخرة فى طريقها المعتاد ، وفى عدم اتباعهم لتعليمات الأسطول البريطانى لاعتبارات وطنية قومية !

ولـكن كان لابد مما ليس منـه بد ، فأخـذ بالرأى الأول وتزاحم

المصريون على الباخرة ، فسارت فى طريقها المجهول على مقربة من شاطىء شمال افريقيا

وفى يوم الخميس ٣١ أغسطس هاج البحر وماج ! ووجم الجميع عندما سمعوا فى المذياع فى يوم الجمعة أول سبتمبر أن انجلترا وفرنسا أعلنتا الحرب على ألمانيا ...

ساد الخوف وسيطر على الجميع.. وأخذ كل من الركاب يدعى أنه شاهد الغواصات الألمانية تحف بالباخرة ، فساد الهلع ولجأ الركاب الى مخادعهم فى الساعة السابعة مساء !..

غير أن «الضاحك الباكى» القدرى ، الفيلسوف ، المؤمن بالله ، رأى أن يغير الجو المخيف فدعا فرقة « الجازباند » وأعد مقطوعة موسيقية مسلية ، وأجرى بروفاتها مع الفرقة الموسيقية وتطوع زميله أحمد الألفى عطيه فعاونه فى اعداد حفلة ساهرة وسط الخطر ، ولما أتم الاعداد أيقظ الركاب وجمعهم فى البهو الكبير وبدأت الحفلة الضاحكة المتوكلة على الله ، فنجحت نجاحا باهرا ونسى الكل الخطر وانتهت فى الساعة الرابعة صباحا !..

وجاء أحد الضباط المصريين فهمس فى أذنه قائلا : « أتدرى أن الباخرة كانت ستغرق وسط الضجيج والعجيج ونغمات الموسيقى فى الساعة الثالثة صباحا ! » ...

قال : « كيف ؟ »

قال الضابط : « فوجئت وأنا أتولى القيادة بالنيابة عن الأميرال الانجليزى بدوامة كانت ستقسم الباخرة نصفين أو تبتلعها ولكنى بارادة الله أدرت « البوز » وواجهت « الدوامة » بعرض الباخرة لا بمقدمتها فنجونا بأعجوبة ! .»

وخطب ملك الانجليز يوم الأحد ٣ سبتمبر فى الساعة السابعة مساء فكان صوته صوتا حزينا متخاذلا منهارا يلقى الرعب فى النفوس !..

ووصلت «الباخرة» بسلام الله الى الاسكندرية فأخذ المصريون يعانق بعضهم البعض الآخر ، ويتبادلون التهانى للوصول الى الوطن سالمين ...

فهرس

الموضوع — الصفحة

المرحلة الاولى من الضاحك الباكى

المرحلة الثانية من الضاحك الباكى

مطابع دار الهلال
١٩٥٨